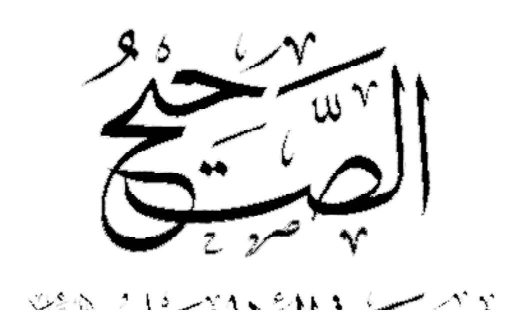




العلامة المحقق

السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الحادي والثلاثون

مركز نشر وترجمة مؤلفات العلامة المحقق
آية الله السيد جعفر مرتضى العاملي

عاملي، جعفر مرتضى ١٩٤٤م.

الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام (المرتضى من سيرة المرتضى) /**السيد جعفر مرتضى العاملي**. قم: أيام، ١٤٣٢ ق.= ٢٠١٢م. = ١٣٨٩.

٥١٢ ص.

ISBN : ٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩١٠٦٣ ـ ٩ ـ ٧ ٦٠٠،٠٠٠ ريال

فهرست نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.

كتابنامه:

١. علي بن أبي طالب (ع)، إمام اول، ٢٣ قبل الهجرت ـ ٤٠ ق سر گذشت نامه. ٢ . إسلام ـ تاريخ از آغاز تا ٤١ ق. ألف. عنوان ب. عنوان: المرتضى من سيرة المرتضى.

٣ ص ٤٢ع BP ٣٧/٣٥ ٢٩٧/٩٥١

١٣٨٩

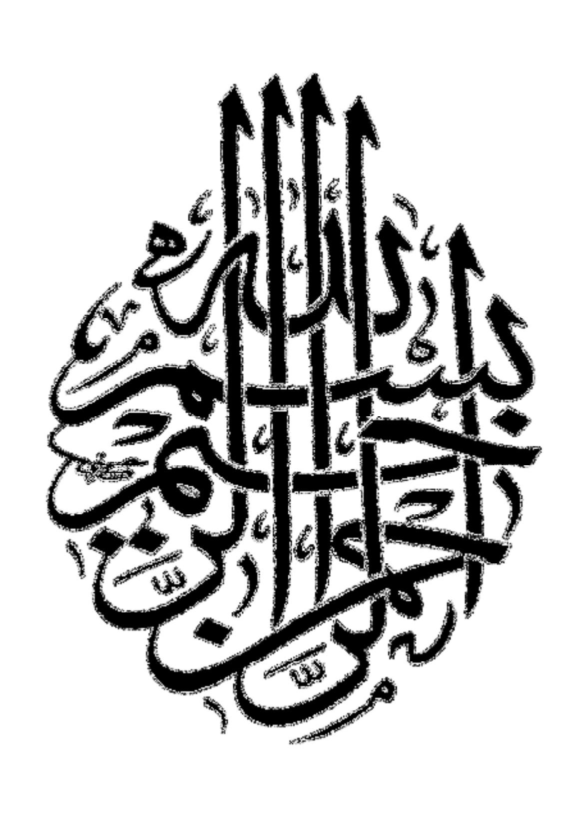




اسم الكتاب:	**الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام**
اسم المؤلف:	**السيد جعفر مرتضى العاملي**
الناشر:	**نشر أيام**
الطبعة:	**الأولى ١٤٣٢ هـ.ق = ١٣٨٩ هـش =٢٠١٢ م**
عدد المطبوع:	**٢٠٠٠ نسخة**
سعر الدورة: ٣١ ـ ٤٥	**٦٠٠٠٠ توماناً**
ردمك ج٣١:	**٥ ـ ٣ ـ ٩١٠٦٣ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨**

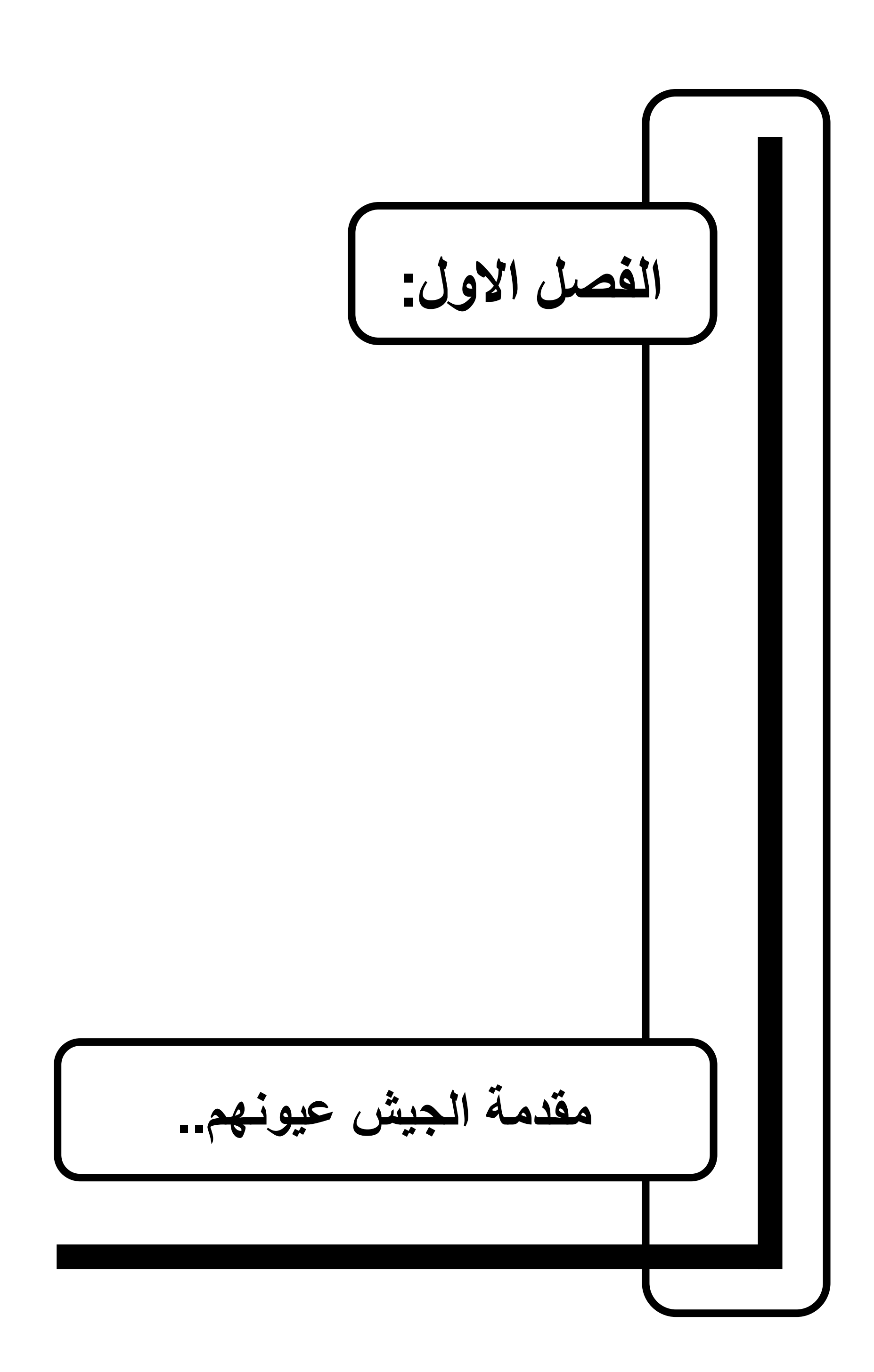
العنوان: ايران ـ قم ـ ٤٥ متري صدوق ـ صدوقي ٦ پلاك ٢٠ تلفن: ٠٩١٢٦٥١٨٨١٤ ـ ٠٩١٢١٥١٧٦٧٧

اين اثر با حمايت معاونت محترم فرهنگي وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى طبع شده است


بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس:

من الكوفة.. إلى صفين..



الفصل الاول:

مقدمة الجيش عيونـهم..

الخروج من الكوفة:

قالوا: ثم خرج علي «عليه السلام» وخرج الناس معه.

قال المنقري:

روى نصر: عن عمر حدثني عبد الرحمن عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الله ابن شريك: أن الناس لما توافوا بالنخيلة قام رجال ممن كان سيَّر عثمان، فتكلموا، فقام جندب بن زهير، والحارث الأعور، ويزيد بن قيس الأرحبي، فقال جندب: قد آن للذين أخرجوا من ديارهم[1].

روى نصر: عمر بن سعد ، حدثني يزيد بن خالد بن قطن: أن علياً «عليه السلام» حين أراد المسير إلى النخيلة دعا زياد بن النضر، وشريح بن هانئ ـ وكانا على مذحج والأشعريين ـ وقال: يا زياد، اتق الله في كل ممسى ومصبح، وخف على نفسك الدنيا

---

(1) صفين للمنقري ص121 وراجع: المعيار والموازنة ص128 و 129.

الغرور، ولا تأمنها على حال من البلاء.

واعلم أنك إن لم تزع نفسك عن كثير مما يحب مخافة مكروهة، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضر.

فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجند، فلا تستطيلن عليهم، وإن خيركم عند الله أتقاكم.

وتعلم من عالمهم، وعلم جاهلهم، واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى والجهل.

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك، مؤدباً بأدبك، يرى الرشد في نفاذ أمرك، والغي في تضييع عهدك(1).

إختلاف القادة:

قال المنقري:

فأمرهما أن يأخذا في طريق واحد ولا يختلفا، وبعثهما في اثني عشر ألفاً على مقدمته شريح بن هانئ على طائفة من الجند، وزياد على جماعة.

---

(1) صفين للمنقري ص121 و 122 وبحار الأنوار ج32 ص410 وراجع ج33 ص465 ونهج السعادة ج2 ص116 - 118 وراجع ج8 ص326 و 327 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص191 والمعيار والموازنة ص140 وراجع: تحف العقول ص191 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص222 .

فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة، ولا يقرب زياد بن النضر، فكتب زياد [إلى علي «عليه السلام»] مع غلام له، أو مولى يقال له: شوذب:

لعبد الله علي أمير المؤمنين من زياد بن النضر..

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. فإنك وليتني أمر الناس، وإن شريحاً لا يرى لي عليه طاعة، ولا حقاً، وذلك من فعله بي استخفاف بأمرك، وترك لعهدك. والسلام(1).

وكتب شريح بن هانئ:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. فإن زياد بن النضر حين أشركته في أمرك، ووليته جنداً من جنودك، تنكر واستكبر، ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضاه الرب تبارك وتعالى من القول والفعل. فإن رأى أمير المؤمنين أن يعزله عنا ويبعث مكانه من يحب فليفعل، فإنا له كارهون. والسلام(2).

---

(1) صفين للمنقري ص122 و 123 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص191 و 192.

(2) صفين للمنقري ص122 و 123 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص192.

علي × يحل الاختلاف:

فكتب إليهما علي «عليه السلام»:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ..

سلام عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. فإني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وأمرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير، فإن أنتما جمعكما بأس، فزياد بن النضر على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها.

واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما، فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نقض الشعاب والشجر والخمر في كل جانب كي لا يغتركما عدو، أو يكون لكم كمين.

ولا تسيرن الكتائب [والقبائل] من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبية. فإن دهمكم داهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبية.

وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قُبُلِ الأشراف أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كي ما يكون ذلك لكم ردءاً، وتكون

مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين.

واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب يرون لكم، لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن.

وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة، ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم. وما أقمتم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى منكم غرة، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون.

واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة، ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكما.

وليكن عندي كل يوم خبركما، ورسول من قبلكما، فإني ـ ولا شيء إلا ما شاء الله ـ حثيث السير في آثاركما.

عليكما في حربكما بالتؤدة.

وإياكم والعجلة، إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة.

وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما، إلا أن تُبْدأا، أو يأتيكما أمري إن شاء الله. والسلام**(1)**.

---

(1) صفين للمنقري ص123- 125 وراجع: مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص41 ـ 43 ونهج السعادة ج4 ص234 والمعيار والموازنة

ونقول:

هنا أمور هامة جداً، وتدبيرات دقيقة لا بد من معرفتها، ومراعاتها، في العديد من المجالات، ولا سيما ما يرتبط بمجال الجهد الحربي.

بعد التأكيد على أن ما نقدمه لا يعدو كونه مجرد إثارات يراد منها لفت النظر إلى بعض الحقائق، من دون استقصاء للبحث فيها.. ونشير إلى بعض من ذلك، فنقول:

إيضاحات:

قوله «عليه السلام» لزياد بن النضر:

«عن كثير مما يحب مخافة مكروهة»: لعل الصحيح فيه أن يكون هكذا: «عن كثير مما تحب، مخافة مكروهه».

مقدمة الجيش: هي طائفة متقدمة منه، تستطيع أن تشتبك مع جيش العدو، ومشاغلته أو صده عن التقدم إلى أن يلحق معظم الجيش.. وتقوم بمهمة الرصد أيضاً.

طليعة الجيش: هي مجموعة تنبعث قدام الجيش، لتتعرف أخبار

ص141 ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص12 الكتاب رقم 11 وتحف العقول ص190 والأخبار الطوال للدينوري ص166 وبحار الأنوار ج32 ص410 وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص192.

العدو.. وقيل: إنها تتألف من الثلاثة والأربعة(1). وقيل أكثر من ذلك.

نقض الشعاب: أي تفتيشها بدقة.

الخمَر ـ بفتح الميم ـ: ما واراك من شجر ونحوه.

تِرَسة ـ بكسر أوله وفتح ثانيه ـ: جمع ترس بضم التاء. وهو صفيحة مستديرة من الفولاذ يتوقى بها السيوف.

المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

الهضبة ـ بفتح أوله، وسكون ثانيه ـ: الجبل المنبسط على وجه الأرض.

أول ما يحتاجه القائد:

من يتولى زمام القيادة، ولا سيما في الأمور الحساسة معني بحفظ أرواح الناس، وأموالهم، وأعراضهم، ودفع الأسواء والأعداء عنهم، وهو بأمس الحاجة إلى مراقبة نفسه في كل ممسى ومصبح، ليصونها من كثير من المزالق والمهالك، وليحفظها من شياطين الليل وشياطين النهار، الذين يتعاقبون على إغوائه، ويزينون له الإنقياد على أهوائه.. فهو يحتاج إلى تقوى الله في كل ممسى ومصبح، كما قال أمير المؤمنين «عليه السلام».

ثم إن من جملة الأمور التي قد يواجهها هذا القائد، وتؤكد

---

(1) راجع: قرب الموارد ج 1 ص 712.

حاجته إلى التقوى، وإلى مراقبة نفسه، ما يلي:

1 ـ أن يصاب بالزهو والخيلاء، حيث يصبح في موقع الآمر الناهي، والمتصرف. ويرى أنه جدير بهذا المقام، بسبب مؤهلاته، ومزاياه.

2 ـ أن يتوهم أن مقامه هذا امتياز له، يخوله أن يستثمره في منافعه الشخصية، ووفق ما يروق له..

3 ـ أن يتوهم أن من حقه فرض طاعته المطلقة، على من هم تحت يده، وعلى غيرهم، فيما يحق له وما لا يحق له حتى فيما يرتبط بأموره الشخصية.. حيث تختلط عليه الأمور، فلا يعرف حده ليقف عنده، فيبوء بالظلم لمن هم تحت يده، فيطلب منهم القيام بمهمات، لا يحق له أن يطلبها منهم، ويفرض قرارات ليس له أن يفرضها عليهم..

4 ـ كما أنه قد يجعل من هذه القوة التي بيده وسيلة للعدوان على الآخرين، وانتهاك حرماتهم، أو التعدي على أموالهم، وغيرها من حقوقهم..

5 ـ أن يكون شديد الطلب لما ليس له، الأمر الذي ينتج عنه شدة الإضرار بالغير، ويجسد مفهوم البغي الذي يمقته الله، ويستتبع العقاب الأليم..

العلاج الناجع:

وقد ألمح «عليه السلام» في كلامه لزياد بن النضر إلى معالجته

الناجعة لهذا الداء، فقال: «واعلم أنك إن لم تزع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرّ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً إلخ..».

ففي هذه الكلمة المباركة لمحات رائعة، نجملها، ونذكر منها:

1 - إن المطلوب من القائد: أن يراقب نفسه حتى لا يطغى، ولا يظلم، ولا يعتدي. ولكنه «عليه السلام» لم يقل له: لا تظلم، ولا تبغ، ولا تعتدي، لأن هذا النحو من الخطاب، قد يفهم منه: أنه يريد أن يكون نفس إنشائه لهذا النهي، هو المؤثر في الإمتناع عن هذه الأمور.

وربما يكون الإنقياد لمجرد الأمر والنهي الصادر إنما يعني الاستسلام لإرادة الغير، وهذا ثقيل على النفس، أو مكروه لها.. لأنها تميل إلى الإستقلالية والحرية، التي يرضي غرورها، ويعطيها بعض الزهو والإنتعاش.

2 - إنه «عليه السلام» قد ساق الكلام في البداية بطريقة تجعل المتلقي يغفل عن خصوصية الإنقياد لإرادة الغير، وينساق إلى وعي الخصوصيات والحيثيات الموجبة، بحيث يصبح الإقدام على الفعل، أو الإمتناع عنه قراراً له، ونابعاً من عمق ذاته..

3 - ثم إنه «عليه السلام» لم يقتصر على ذلك، بل عطف الكلام أيضاً إلى إنشاء أوامر وزواجر، لكي تعاضد ذلك القرار الذي صدر عنها.. وتتضافر بها المحفزات، والدواعي، وتؤثر الأثر المطلوب في مقام العمل..

4 - إن تلك الأوامر والزواجر، وإن كانت قد اتخذت صورة الأمر، أو النهي الإلزامي .. ولكنه إلزام يوحي بأنه يأتي في سياق الحث والتحريض من منطلق المحبة والحرص، لا على سبيل الفرض والقهر، والإخضاع للإرادة، بتسلط إرادة أخرى عليها.

5 - ويدل على ما ذكرناه: أنه «عليه السلام» قد أيد ذلك بالتنويه بأن عدم الإبتعاد عن البغي، والعدوان، والظلم، سيؤدي إلى مواجهة الكثير من الضرر والأذى في نفسه، وفي كل ما يعود إليه، ويهمه أمره..

6 - ثم تجاوز موضوع إلزامه بالإبتعاد عن البغي والظلم والعدوان، إلى ما هو أدنى من ذلك.. حيث ألزمه بكف النفس عن كل ما يحتمل وجود المكروه فيه، وإن كانت النفس تحبه، وتندفع إليه، وتتهافت عليه..

ولا بد أن ينتج الإلتزام بهذا وذاك، هيمنة وسيطرة له على نفسه، تمكنه من ضبط حركتها، وتوجهها بالإتجاه الصحيح..

يضاف إلى ذلك: أنه يحتم عليه التريث، وعدم الإقدام على أي شيء قبل اكتساب المعرفة التامة به، والوقوف على خصوصياته، وتفاصيله ودقائقه.. فإن الإنسان العادي، وإن كان قد يملك خصوصيات وميزات، وعلوماً يتميز بها على غيره، وتؤهله لمقام القيادة. لكن ذلك لا يمنع أن يستفيد من غيره بعض ما غاب عنه لغفلة أو لغيرها، فإن بعض الناس قد يملك خبرة في أمر بعينه

تقصر عنها خبرة ذلك القائد، فإن لذلك القائد خبرة أعظم في مجالات كثيرة أخرى تكون هي التي أهلته لمقام القيادة..

وربما يحتاج القائد إلى استكشاف حالة بعض المناطق، فيلجأ إلى بعض الرعاة أو الساكنين فيها، فإنهم أعرف بها، ولكن ذلك لا يعني أنهم أحق بقيادة الجيش منه، وإن احتاج إليهم في هذه الجزئية. لأن المفروض أن هؤلاء القادة غير معصومين، وغير مسددين بالغيب، ولا يملكون علم الإمامة ليقال: إن ذلك يجعلهم في غنى عن غيرهم.

علِّمهم وتعلَّم منهم:

وبعد أن ذكر «عليه السلام» لابن النضر ما يمكن أن يدخل في دائرة التوجيهات الهادفة إلى معرفة سياسة النفوس.. انتقل لبيان ما يرتبط بعلاقة القائد بجنده، ومن هم تحت يده، فذكر له أموراً، هي التالية:

أولاً: أن عليه أن يعرف حده فيقف عنده، فلا يستطيل على من هم تحت يده. مؤكداً ذلك بنون التوكيد الثقيلة، التي تفيد مضاعفة التأكيد والتشديد فيه، فقال: «لا تستطيلنَّ».

والإستطالة هي: طلب الزيادة في الطول ليبزَّ به الآخرين، ويتجاوزهم، فيصيرون دونه، وهو فوقهم.

وإختيار هذا التعبير يدل على أن الأساس عنده «عليه السلام» أن القائد متساو مع جنده. وأن جعلهم تحت إمرته لا يمنحه زيادة تجعله

يخرج نفسه من هذا التساوي، ليتفرد بالطول عنهم، لأن هذه الزيادة مصطنعة وغير واقعية، وهي مجرد ادِّعاء فارغ، وسراب خادع..

وبذلك يكون «عليه السلام» قد أفرغ هذا الطول الذي ادَّعاه ذلك القائد لنفسه من محتواه، وجعله خواء وهباء بنفس كلمة «لا تستطيلن»..

ثانياً: إنه «عليه السلام» لم يكتف بالنهي عن الإستطالة، ولا اقتصر على هذه الصيغة الدالة على أن هذه الإستطالة مُدَّعاة ومصطنعة.. بل صرح له بالمعيار والميزان الذي توزن به الرجال. وأعطاه الأساس الواقعي للتفاضل بين البشر، فقال: «وإن خيركم عند الله أتقاكم»..

ويلاحظ هنا:

ألف: أن الخيرية عنوان حقيقي وواقعي، يمكن تلمّسه من خلال تلمّس آثاره في الحياة، وفي الواقع العملي، المتمثل بإسهامات ذلك الذي هو خير في المسار العام بما يفيد في صلاحه، وفي كماله، ويسهم في تناسقه وانسجامه مع سائر المكونات التي يفترض فيها أن تتخذ مساراً ينتهي بالموجودات إلى كمالاتها، وإلى تحقيق أهدافها السامية..

وبهذه الخيرية استحق هذا المخلوق التشريف والتكريم الإلهي..

ب: إنه «عليه السلام» قد ذكر العنصر الأهم في إنتاج هذه الخيرية للإنسان التي توجب له التعظيم والتكريم. وهو عنصر

التقوى. فكلما أوغل الإنسان فيها، كلما أنتجت له المزيد من الخير والبركة، وأعطت من النتائج ما هو أفضل وأمثل..

ولأجل ذلك وردت بصيغة أفعل التفضيل أيضاً، فقال: «أتقاكم».

ج: والأهم من ذلك: أنه «عليه السلام» لم يتحدث عن الخيرية بصورة مطلقة، والسبب في ذلك: أنه قد يروق لكل واحد من الناس: أن يظن الخير في مكان، أو في مسار أو نهج، أو غير ذلك. وهو مخطئ في ظنه أو توهمه.. لأن المبررات التي اعتمدها لهذا الظن، والمنطلقات في تحديد الخير من غيره لم تكن صحيحة، ولا دقيقة..

ولذلك أرجع «عليه السلام» تحديد ما هو خير، وتمييزه عما عداه إلى خالق الكون والحياة، والعالم بكل شيء، والواقف بكل الحقائق والدقائق، والمناشئ، والأهداف، والبدايات، والمسارات، والآثار، والغايات..

فقرر «عليه السلام»: أن الله وحده هو الذي يحدد ما هو خير، ويميزه عن غيره.

ثالثاً: إنه «عليه السلام» بعد أن قرر مبدأ المساواة واستدل عليه بقوله: «وإن خيركم عند الله أتقاكم» طبق ذلك، وفرع عليه أمره لهذا القائد: بأن يتعلم من العالم، الذي يكون في جملة من هم تحت يده، فإن كونه قائداً له لا يعني أن له امتيازاً عليه، بل الإمتياز يكون لذلك العالم بعلمه.

أما القائد، فله على العالم حق الطاعة فيما يعود إلى تدبير أمور

الجند، وأمور الحرب في حدود ما أوكل إليه وللعالم على القائد حق التعليم والهداية..

كما أن هذا يدل على أن المهمات الحربية لا تعني الإكتفاء بها عن غيرها، بل على القائد أن يتابع في نفسه تحصيل كل ما يحتاج إليه في أمور دينه حتى وهو يدير أمر الحرب، ولا تعفيه قيادته من سائر الواجبات عليه.

رابعاً: ثم أمره «عليه السلام» أن يعلم جاهلهم. وهذا يدل على أن على القائد بالإضافة إلى القيام بالمهمات الموكلة إليه أن لا يهمل القيام بمهمة تعليم الجاهل. أي أن مهمات القائد لا تنحصر بشؤون الحرب، بل تتعداها إلى التربية والتعليم، والعمل على رفع المستوى العلمي لمن هم تحت يده..

خامساً: قال «عليه السلام»: «واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم».

وهذا أمر آخر جديد أصدره «عليه السلام» للقائد. يرشده فيه إلى عدم التشدد على الآخرين في مؤاخذاته على ذنوبهم، لأن ذلك يوجب الضيق والنفور منهم، ويزين لهم الإبتعاد عنه.

وأما الحلم عنهم، فيحببهم به، ويقربهم منه، ويجعلهم يأنسون إليه..

غير أن علينا أن نوضح: أن الحلم الذي يدعو «عليه السلام»

إليه هنا إنما هو حين يكون السفه على الأمير في أموره الشخصية، لا فيما يرتبط بالمهمات الموكلة إليه، والتي يوجب التغاضي عنها اختلالاً في مسار الأمور.

ولكن حلم القائد عن جنده في الأمور الشخصية، مشروط بأن لا يصل إلى حد الإفراط، فيوجب المزيد من الجرأة عليه، وإسقاط هيبته، والإستهتار به.

موجبات إدراك الخير:

وقد قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: «فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى، والجهل». فجعل «عليه السلام» إدراك الخير مستنداً إلى توفر ثلاثة عناصر:

الأول: الحلم.

الثاني: كف الأذى عن الآخرين. وهذا أيضاً من موجبات الحصول على الخير..

الثالث: كف الجهل، ومنع الجاهل من المضي على جهله. فإنه يمنع من حصول الخير..

وقد تلخص مما تقدم: أن من الصفات التي ينبغي توفرها في القائد العسكري:

1 - تقوى الله في كل ممسى ومصبح.. وفي هذا تأكيد على لزوم استمرار حالة التقوى في كل زمان.

2 - أن يراقب نفسه باستمرار حتى لا يغترّ بالدنيا.

3 - أن يكون ممن لا يأمن الدنيا على حال، أي سواء أكان في حال البلاء، أو الرخاء.

4 - أن يمنع نفسه مما تحب، حتى لا يقع بما هو أشر وأضر.

5 - أن يمنع نفسه من البغي، والظلم، والعدوان.

6 - أن لا يكون ممن يستطيل على من هم تحت يده، أو على غيرهم.

7 - وينبغي اختيار الأتقى على من عداه.

ومن وظائف القائد:

ألف: تعليم الجاهل.

ب: التعلم من العالم.

ج: الحلم عن السفيه.

القائد واحد:

قد يستحسن بعض الناس اعتماد مبدأ الشورى في إدارة الحروب، وفي تولي الأمور العامة، ولا سيما القيادة العسكرية منها، لأن المطلوب هو حفظ أرواح الناس، وحفظ مستقبلهم، أو حفظ الدين.. بالإضافة إلى حفظ الأموال، والأعراض، والكرامات، وما إلى ذلك..

والشورى تعني: المشاركة في البحث والتقصي، واستنباط أفضل

السبل، لتحقيق تلك الغايات الحساسة، والمصيرية..

ويفترض أن يكون رأي الجماعة الذي يأتي بعد الدراسة والبحث والتقصي، يكون أقرب إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات..

غير أننا نقول:

1 - إن تفويض أمر القيادة إلى جماعة من الناس.. قد يكون أكثر ضرراً، وأشد خطراً مما يظن.. وذلك بسبب ما يعرض للجماعة التي تتولى القيادة من تواكل وتكاسل في أداء المهمات، ومن اختلاف في الرأي الذي يؤخر ويؤثر على اتخاذ القرار .. بالإضافة إلى تضاؤل الشعور بالمسؤولية.. وغير ذلك من سلبيات.

2 - إنه إذا كان القائد واحداً، فبالإمكان تدارك النقص في البحث والتقصِّي بإنشاء مجلس تخطيط، أو مجلس استشاري، أو مجلس قيادة يكون القرار بيد رئيسه، فيبذل هذا المجلس الجهد لاستنباط الحلول، ووضع الخطط، ودراسة القرارات، وتمييز الصالح والأصلح من غيره..

ثم يكون القرار النهائي للرئيس أو للقائد.. على قاعدة: **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)**[1].

فيكون قد جمع بذلك بين الجهد الجماعي، وبين الإلتزام بوحدة

---

(1) الآية 159 من سورة آل عمران.

القيادة مع تلافي سلبيات القيادة الجماعية، والنأي بالنفس عن التفرد في الدراسة والبحث، واستنباط الخطط، وعن الإرتجال والتسرع فيه..

3 ـ لقد قرر «عليه السلام» هنا وفي جميع حروبه: مبدأ وحدة القيادة. ولكنه أعطى نموذجاً لسلبيات الإشراك في القيادة، حين جعل «عليه السلام» رجلين قائدين على جماعتين، حين كانت هناك حاجة لإرسال هاتين الجماعتين في مهمتين منفصلتين..

وحين انتفت الحاجة للإنفصال، أصبح الإجتماع ضرورياً، كرس القيادة وحصرها في رجل واحد، وألغى قيادة الآخر، ولم يعطه أي دور معه، بل صار تحت إمرته كسائر من كانوا معه..

الشاهد والدليل:

غير أن اللافت هنا: أن نفس هذا المورد الذي قرر فيه «عليه السلام» وحدة القيادة قد حمل لنا الدليل القاطع والبرهان الساطع على عدم صحة التشريك في القيادة..

حيث اتخذ إجراءً قرَّب فيه المسافة العملية بين قائدين كبيرين معروفين، لهما مكانتهما المميزة، واحترامهما الكبير.. فكان من نتائج هذا التقريب ظهور التباينات بينهما بسرعة قياسية، ولعل السبب في ذلك: هو ارتفاع مستوى التوقعات، وتبلور الشعور بالرقابة، وبالتنافس لدى كل منهما تجاه الآخر بصورة مفاجئة، وتبع ذلك

اختلال تفاقم واستعصى حتى احتاج كل من القائدين إلى الشكوى من زميله لدى الإمام «عليه السلام» نفسه.

فإذا كانت هذه هي أولى النتائج لهذا الربط الخفيف، والتقريب اللطيف، فكيف ستكون الحال عليه لو كانا شريكين شراكة تامة في القيادة وفي القرار؟!

هذا.. وقد سبق أن حدث نظير هذا في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين أرسل «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» وخالداً في مسيرين مختلفين، مع معرفته بأن الأمر سينتهي باجتماعهما، وجعل القيادة حين الإجتماع منحصرة بأمير المؤمنين «عليه السلام».. فإن النتيجة كانت مشابهة للنتيجة التي جرت لعلي «عليه السلام» هنا، فقد أظهر خالد في هذه المناسبة كل ما يبطنه من حقد وحسد، لعلي «عليه السلام». وانجر معه آخرون في التعبير عما تكنه صدورهم من ذلك، حين حاول أن يشتكي عليه لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، في أمر جارية اصطفاها «عليه السلام» من السبي، فكانت عاقبة عمله: أن غضب رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأعلن إدانته لكل من أبغض علياً «عليه السلام» وناوأه وآذاه..

مع أن ما فعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» أيضاً لم يبلغ درجة التشريك في القيادة، وإن اشتم خالد رائحة هذا التشريك.

وعلى كل حال، فإن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد أكمل ما بدأه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكان من حكمة تكرار هذه

التجربة أنه إن كان هناك من يتوهم أن ما جرى في عهد الرسول «صلى الله عليه وآله» إنما كان لأسباب أخرى لا تتصل بموضوع توهم التشريك، فإن ما فعله علي «عليه السلام» قد أزال كل شبهة، وأبعد كل ريب في ذلك.

الإستطلاع:

إن الإستطلاع الدقيق والشامل والمتواصل، هو من أهم الأعمال التي يقوم بها الجيش المحارب.. وبه يرتبط مصير الجيش، وعليه يتوقف النصر والهزيمة، والموت والحياة.

وقد تعرض أمير المؤمنين «عليه السلام» في الكتاب المتقدم إلى بعض موارد الإستطلاع، وهو موضوع تأمين سلامة الجيش، أو بعض قطعاته في حال الإنتقال والنزول، فألقى «عليه السلام» بعض الضوء على هذا المجال، وحدد لنا بعض معالمه على النحو التالي:

الرصد والإستطلاع:

1- لقد بيَّن «عليه السلام»: أنه لا بد من فرز مجموعات معينة تكون مهمتها رصد تحركات العدو، وكيفية انتشار عناصره، والمواقع التي اختارها لمراصده ورقبائه.. وتحديد خطوط إمداده، ومعرفة كل شاردة وواردة عنه..

وتسمى هذه المجموعات بـ: «الطلائع».

2- إن هذه الطلائع تكون عادة مندمجة مع الفرقة التي يطلق

عليها اسم مقدمة الجيش، وهي الفرقة التي تتقدم الجيش عادة، لتكون ردءاً له، وتقوم بمهمة التمهيد له..

3 ـ إنه «عليه السلام» قد اعتبر جميع من في المقدمة عيوناً لصالح الجيش كله، ترصد العدو في كل اتجاه.. ولا يقتصر الأمر على مجموعات الطلائع المولجة بهذا الأمر..

أما الطلائع، وهي المجموعات الصغيرة التي مهمتها الرصد والإستطلاع، فهم عيون للمقدمة نفسها، يهتمون بما يعنيها هي بالدرجة الأولى، وإن لم يكن يهم الجيش الآتي على إثرها.

فمثلاً: لو أن الأعداء وضعوا كميناً يستهدف المقدمة، أو وضعوا في طريقها عوائق وموانع، فإذا أزالتها المقدمة، أو إذا تخلصت من ذلك الكمين، وقضت عليه، فذلك مما لا يجب إخبار الجيش اللاحق به.

وأما لو وجدت المقدمة من خلال نشاط أفرادها دلائل تشير إلى وجود مجموعات كامنة لذلك الجيش، وتريد الإلتفاف عليه، فلا بد من إيصال هذه المعلومة فوراً إليه.

هذا وقد أوجز «عليه السلام» هذه الأمور الأربعة، بقوله: «إن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم».

طريقة عمل الطلائع:

ثم ذكر «عليه السلام» أسلوب عمل تلك الطلائع، فقال: «فلا

تسأما من توجيه الطلائع، ومن نقض الشعاب، والشجر، والخمر في كل جانب، كي لا يغترَّكما عدو، أو يكون لكما كمين».

فقد تضمنت هذه الفقرة ما يلي:

1- إن تنقل القطعات العسكرية في البلاد الآمنة لا ضير فيه، ولا مانع منه، ولا يطلب منها أن تكون لها مقدمة، أو طلائع، أو عيون، وغير ذلك.

2 - إذا بلغت القوات العسكرية بلاد العدو، فلا بد من توجيه الطلائع، لأجل الرصد والإستطلاع. ولو امتد إلى مسافات بعيدة..

3 - إن توجيه الطلائع يجب أن يستمر، ويتواصل، لأن العدو قد ينكفئ عن المواضع التي يصل إليها الراصدون والمراقبون، فإذا رأى العيون والطلائع قد أنهت مهمتها، وعادت أدراجها، عاد إلى الإنتشار في المواقع التي انكفأ عنها، ليورد ضربته في الوقت المناسب..

ولكن إذا كان توجيه الطلائع متواصلاً من دون سأم أو ملل، فإنه لن يجد الفرصة لأي عمل..

4 - لا بد من البحث والتحري والتفتيش بصورة متواصلة عن العدو وعناصره، وعيونه، وكمائنه في كل مكان، ويجب عدم الإقتصار على إجراء مسح ظاهري وسطحي، بل يجب أن تدخل الطلائع في كل شعب وواد، وأن تنظر في أغصان كل شجرة، والتحري عما في داخل كل ما يمكن أن يكون ساتراً.. سواء أكان بيتاً،

أو حائطاً، أو صخرة، أو زرعاً، أو منخفضاً، أو منعطفاً.. أو غير ذلك..

5 ـ وقد علل «عليه السلام» ذلك كله بأمرين:

أولهما: أن «لا يغترهما عدو»، فيخفي نفسه عن عيونهم بين الشجر، وفي الخمر، وفي الشعاب، ثم يفاجئهم بضربته القاصمة والمهلكة..

الثاني: حتى لا يكون لهم كمين يريد أن يضرب وينسحب، ليربكهم ويشوش حركتهم، ويسقط معنوياتهم، ويدخل الرعب إلى قلوبهم تمهيداً للقائهم في ميدان القتال، وهم مرعوبون وعلى غير نظام، ومهزومون من الداخل، قبل أن يدخلوا الحرب..

هكذا يسير الجيش:

وقد عرّفنا «عليه السلام»: أن لمسير كتائب الجيش أيضاً قانوناً، ونظاماً، تجب مراعاته.

فأولاً: يجب أن يكون السير في النهار وليس في الليل.. والحكمة في هذا الإجراء واضحة، فإن إمكانية وضع الكمائن لهم، أو أخذهم على حين غرة تصير في الليل كبيرة وواضحة.. ولا تصح المجازفة بأرواح الناس..

ثانياً: قال «عليه السلام»: «ولا تسيِّرن الكتائب من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة».

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» لم يتكل هنا أيضاً على مجرد إصدار الأمر، والإلتزام به.. بل تعدى ذلك إلى اعتماد الأسلوب الإقناعي العملي، فقال: «فإن دهمكم داهم، أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبئة».

والمراد بالتعبئة: رفع درجة الإستعداد إلى الحد الأقصى.

ثالثاً: سيأتي: أن السير يجب أن يكون في غير أوقات الحر، فقد قال «عليه السلام» في رسالته لمعقل: «وسر البردين».

رابعاً: وسيأتي أيضاً قوله لمعقل: «ورفه في السير». فلا يتعب الجند بالسرعة المتعبة، أو باختيار المراكب الصعبة، أو الطرق الوعرة، وما إلى ذلك.

إختيار مواضع النزول:

وحين تصل الكتائب إلى ساحات المواجهة مع العدو، فإن أول ما يحتاجه القائد هو اختيار الموقع المناسب الذي ينزل فيه عسكره، حيث لا بد من رعاية بعض المواصفات والحيثيات في مواضع النزول.. وفي الإجراءات المتخذة..

وكذلك حين ينزل العدو المحارب بهم، فقد يكون يحتاج إلى تعويض المكان الذي ينزل فيه عسكر أهل الإيمان.. وقد ذكر «عليه السلام» ما يفيد في معالجة هتين الحالتين، فقال: «وإذا نزلتم بعدو، أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبل الأشراف، أو سفاح الجبال، أو

أثناء الأنهار».

وإنما يتكلم «عليه السلام» عن معسكرين متحاربين لا يملكان من وسائل الحرب مثل ما أصبح متداولاً في عصورنا هذه، وإنما كانت وسائل حربهم السيوف والرماح، والسهام، والمنجنيقات وغيرها.. وربما استفادوا من العصي والحجارة، ونحو ذلك..

والمناسب لمثل هذه الحرب هو: أن يفرض على العدو أن يأتيه من وجه واحد، أو وجهين على أبعد تقدير. أما سائر الإتجاهات فتكون مسدودة أمام العدو، إما بنهر يجري، أو بجبل، أو حائط، أو أي مانع آخر..

كما أن الحرب إنما تدور بين المشاة، وربما كانت هناك خيول، أو فيلة..

وقد أوصى «عليه السلام» باختيار نزول العسكر في الموضع الذي فيه أحد هذه الأوصاف:

1 - أن يكون في قبل الأشراف. والأشراف: الأماكن المرتفعة المشرفة على العدو، والمقابلة له. فإن الإشراف عليه يمكِّن من رصد جميع تحركاته، ولا يتمكن هو من رصد الكثير من تحركات من هم فوقه.

كما أن من المفضل أن يكون المعسكر مواجهاً للعدو من جهة واحدة، وتكون باقي الجهات، بسبب ارتفاعها، وشدة انحدارها من موجبات منع العدو من الوصول إليهم منها..

2 ـ أن يكون في سفاح الجبال، فتكون الجبال هي المانع الطبيعي للعدو من الإلتفاف، والمحاصرة، فإن ذلك موجب لخفض مستوى التنسيق وموجب لتوزع القوى، وعدم إمكان التعاون الفاعل والمؤثر بين العناصر المحاصرة.

3 ـ أن يكون في أثناء الأنهار ومنعطفاتها، فإن الموانع المائية توفر على القوات الكثير من الجهد للحماية، ولها دور في إبطال الخطط الإلتفافية والهجومية.. وذلك ظاهر..

وقد علل «عليه السلام» لزوم اختيار أحد هذه الثلاثة، بأمرين:

أولهما: أن النزول في ذلك الموضع من موجبات الأمن من كيد العدو، من تلك الجهات التي لا يستطيع العدو الوصول إليهم منها..

الثاني: أن يكون القتال مع العدو من وجه واحد، أو من وجهين.. فلا تتوزع القوى، ولا يتلاشى الجهد، ولا يقع الخلل.

مواضع الرصد:

أما الرقباء الذين يرصدون تحركات العدو، وخطوط إمداده، وغير ذلك، فلهم توجيهات خاصة بهم، وقد حدد «عليه السلام» لهم ثلاثة مواضع هي:

1 ـ صياصي الجبال. والصياصي: هي الأماكن المحصنة، الواقعة في قمم الجبال عادة، والتي لا يستطيع العدو الوصول إليهم فيها، وقد اختارها «عليه السلام»، لأن المطلوب للرقيب أمران:

أولهما: أن يكون في موضع مشرف على العدو..

الثاني: أن يكون الرقيب في مأمن من أن يصل العدو إليه، ويأسره، أو يقتله.

والحصون في أعالي الجبال قادرة بحصانتها وبإشرافها على توفير هذين العنصرين..

2 ـ أعالي الأشراف.أي الأماكن العالية المشرفة.

3 ـ مناكب الهضاب: المنكب هو مجمع عظمي الكتف والعضد. والهضبة هي الجبل المنبسط على وجه الأرض.. فانبساط الجبل قد يمنع من رؤية بعض المواضع القريبة منه، فلذلك طلب «عليه السلام» أن يجعل الرقباء في منكب الجبل، أي في طرف كتفه، ليتمكن الرقيب من رؤية تلك الجهة من الجبل، ثم رؤية سفحه، ثم الأرض المنبسطة بعده..

وقد أشار «عليه السلام» إلى هذه الأمور الثلاثة بقوله: «واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب».

لماذا الرقباء؟!:

وقد دل كلامه «عليه السلام» هنا: على أن الداعي لوضع هؤلاء الرقباء هو:

أولاً: رؤية ما يجري ليبلغوهم إياه، وقد قال «عليه السلام»: «يرون لكم»، ليدل على أن على الرقباء أن ينقلوا كل شاردة وواردة

إلى قيادة الجيش، لكي تحللها، وتتعرف على مقاصد العدو منها، ثم تضع الخطط لتلافي الأخطار التي ربما تكشفها لها بعض قرائن أحواله..

ثانياً: وربما يستفاد من قوله: «يرون لكم» ضرورة الإبلاغ الفوري المتواصل، لأن العين حين ترى لصاحبها، فإنه يدرك ما تراه على الفور.

ثالثاً: إن مراقبتهم لا بد أن تكون مستوعبة لجميع المواضع، حتى التي لا يظن الناس أن العدو سيأتيهم منها. فإن العدو يحاول أن يفاجئ عدوه، بسلوك أمثال هذه الطرق المأمونة.

رابعاً: إن تحقيق هذا الهدف، وهو: أن لا يأتيهم العدو من أي موضع كان، يستدعي شمولية واستمرار الرقابة في كل وقت وحين، ولكل مكان، ومن دون انقطاع.

كيف ينزل الجيش، وكيف يرتحل؟!:

إن لكيفية نزول الجيش، واختيار عناصره لمواقعهم، وكيفية حراسته من تحرشات العدو ضوابط، ومقررات، لا بد من مراعاتها. وهذه المقررات وإن كانت قد وردت في أيام كان السيف والرمح والوسائل البدائية هي التي تستعمل في الحرب، ولكن ذلك لا يمنع من استفادة معان وحيثيات عامة منها يمكن بواسطتها تسرية هذه الضوابط حتى إلى زماننا هذا الذي تطورت به الوسائل..

ومهما يكن من أمر، فإننا نقول:

لقد ذكر «عليه السلام» بعض هذه المقررات هنا كما يلي:

1 - أمر «عليه السلام» قادة ذلك العسكر (المقدمة) بعدم التفرق في النزول، فلا يختار كل فريق موضعاً لنفسه ولمن معه، فينزل فيه.. بل يجب عليهم أن ينزلوا جميعاً، فقد قال «عليه السلام»: «وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم، فانزلوا جميعاً».

وهكذا يجب أن يكونوا أيضاً في حال الإرتحال..

قال «عليه السلام»: «وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً».

وسبب ذلك واضح، فإن التفرق إلى جماعات تنزل كل واحدة منها على حدة، أو تنفرد في سيرها، يهيء للعدو الفرصة لنفوذ عناصره في الفجوات التي تكون بين تلك الجماعات.. وبذلك يسهل عليهم جمع المعلومات، عن مكونات هذا الجيش، وعن حجمه وعن أسلحته، وعن أدق التفاصيل فيه..

كما أن هذا التفرق يمكِّن العدو من بث عناصره في تلك الفجوات، والقيام بضربات صغيرة في كل اتجاه، تؤدي بذلك الجيش إلى الفوضى والإرتباك، حيث لا يعرف العدو من الصديق، وينتهي الأمر بما يشبه فتنة داخلية يختلط فيها الحابل بالنابل، وربما ينتهز العدو الفرصة لشن هجوم صاعق يقضي على الأخضر واليابس..

أما في حال الإرتحال، فإن ذلك يمكِّن العدو من اقتطاع قسم من

الجيش، أو الإستفراد ببعض الفئات، وتسديد ضربة قاصمة لها دون أن يعينها أحد.

2 ـ فيما يرتبط بالحراسة الليلية حال النزول، فإنه «عليه السلام» خصصها بقسط وافر من اهتمامه، فأمر قادة مقدمته بما يلي:

أولاً: أمرهم باعتماد نظام الإنذار المبكر، بالإستفادة من الإمكانات المتوفرة لهم، فقال «عليه السلام»: «وإذا غشيكم ليل، فنزلتم، فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة». أي أن تجعل الأترسة التي هي صفائح حديد قائمة على نحو تسقط عند أدنى ملامسة، فيحدث وقوعها أصواتاً توجب لفت نظر الحراس القريبين منها.

ثانياً: ثم تجعل الرماح في صف آخر، وتزرع بحيث تصادف المهاجم الذي لا يراها في ظلمة الليل، فيرتطم بها، فتؤذيه، وتربكه، وربما سمع الحرس حركاته اللاإرادية فيحذرون، ويتهيأون.. فإن لم تؤذه، فهي تمثل عائقاً يجعله يخشى من مواصلة التقدم في جنح الظلام، ويفقد الرغبة في التقدم..

ثالثاً: ثم يكون خلف هذين المانعين مانع ثالث، وهو فريق الرماة المتأهب لإطلاق سهامه المميتة باتجاه مصدر الصوت، حين يصطدم القادمون بالأترسة التي يحدث اختلالها ووقوعها أصواتاً لافتة، أو باتجاه مصدر الحركة حين تكون الرماح قد فعلت فعلها في العدو المهاجم، وأربكته، وآذته.. فإذا صبوا سهامهم على عدوهم، فلن يجد أمامه إلا الفرار الذليل، والخيبة القاتلة، والفشل الذريع..

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قد جعل الرماة هم الحاجز الثالث بعد الرماح والأترسة، ولم يجعل حراساً مع المسلحين بالسيوف أو الرماح، لأنه يريد أن يلحق الضرر بالعدو المهاجم القريب والبعيد قبل الإلتحام ومعه.

ولو كان السلاح هو السيوف أو الرماح، فلربما يلحق الحراس ضرر كبير.. وقد يتغلب عليهم المهاجمون بكثرتهم، أو بمهاراتهم القتالية. أما البعيد الرامي بالسهام، فيبقى سالماً، ويمكنه أن يجد لنفسه مهرباً ومناصاً..

4 ـ أمر «عليه السلام» أن يستمر هذا التدبير طيلة فترة نزولهم، في ليل أو نهار..

واللافت هنا:

ألف: أن العدو لا يحاول التسلل إلى عدوه في الليالي المقمرة، بل يتسلل في الظلام الدامس الساتر لشخصه عن الحراس والرقباء..

ب: إنه «عليه السلام» قد بيَّن أسباب هذا التدبير، فقال: «كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى منكم غِرّة..».

أي أن إهمال هذه الإجراءات قد يؤدي:

أولاً: إلى غفلة المسؤولين عن الحراسة القيام بالمهمات الموكلة إليهم في هذا الإتجاه، ولو بأن ينشغلوا بأمور أخرى.. كأن يجتمعوا مع بعضهم للحديث لفترة وجيزة..

ثانياً: أن يلاحظ العدو وجود نقص معين كان يحتاج إلى تدبير

خاص، فيبادر إلى الإستفادة منه..

ثم استنتج «عليه السلام»: أن هذا التدبير، وهو جعل الأترسة والرماح، والرماة حول الجيش من شأنه أن يجعل الجيش في منعة وقوة، وكأنه في حصن حصين..

القائد يحرس ولا ينام:

وقد لفت نظرنا هنا، قوله «عليه السلام» للقائدين الذين وجه إليهما هذا الخطاب: «واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا، إلا غراراً، أو مضمضة».

فإن هذا التوجيه تضمن ما يلي:

1 - إن للقائد تكليفاً خاصاً يختلف فيه عن سائر من عداه، وهو: أن عليه أن يحرس عسكره بنفسه..

وهذا خلاف ما نعهده لدى القادة العسكريين أو غيرهم على مدى التاريخ، فإنهم ما زالوا يرون أن الحراسة هي أدنى الأعمال في الجيش، ويوكلون أمرها إلى غيرهم ممن لا يحتاجون إليه، وينصرفون هم إلى شؤون أخرى خاصة بهم أو عامة..

بل إنك لو قلت لقائد، أو لمن هو أدنى منك رتبة أو بمراتب: لماذا لا تحرس ولو ساعة واحدة؟! لا عتبر ذلك إهانة عظيمة له، ولربما بادر إلى عقوبتك بما يرى أنك تستحقه.

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» يقرر هنا: أن على القائد أن

يتولى مهمة الحراسة بنفسه. وذلك يرفع من شأن هذه المهمة، ويدل على خطرها وحساسيتها.

2 ـ إن هذا الإجراء إنما يقصد به الحراسة الليلة في الأكثر، كما دل عليه قوله: «وإياكما أن تذوقا نوماً إلخ..».

3 ـ إن الحراسة تقتصر عادة على ساعة أو ساعتين، أو أكثر أو أقل، حسب الجدول الموضوع لجماعة الحراس، حيث توزع ساعات الليل عليهم، فإذا تولاها من حضر وقت حراسته أخلد الباقون إلى الراحة، أو إلى النوم إن شاؤوا..

أما القائد، فإن عليه أن يحرس العسكر الليل بطوله..

4 ـ إن المعمول به هو: أنه إذا قام بالحراسة أحد، سقط هذا الواجب عن غيره. لكن الإمام يقرر هنا: أن القيام بواجب الحراسة من الناس لا يسقطها عن القائد، بل يجب عليه أن يقوم بهذا الواجب أيضاً حتى لو تولى الحراسة غيره.

5 ـ هناك تكليف آخر يتوجه إلى القائد، ولا يتوجه إلى أحد سواه، وهو: أن النوم ممنوع عليه طوال الليل.. إلا غراراً أو مضمضة..

مع أن المعمول به لدى غير المؤمنين هو: أن القائد هو الذي ينام، بل هو الذي يحق له النوم دون كل أحد، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه فيه.

6 ـ إن الغرار والمضمضة التي سمح بها للقائد هي ما لا يتجاوز حد الغرار والمضمضة، وهذا التعبير يدل على أنها فترة متناهية في

القصر، لأن المطلوب هو أن لا يمتد وقتها إلى حد يحتمل معه مضي وقت يكفي لتحرك عناصر العدو باتجاههم، بنحو يشكل أدنى خطر عليهم.

ولعل السبب في ذلك:

أولاً: أن العدو، إنما يلتمس ساعات الغفلة، ليورد ضرباته السريعة، والمؤثرة، فإن كان الحراس فقط هم المستيقظون، فإن العدو يبادر إلى مهاجمته، لعلمه بأن الحارس لا يستطيع أن يدير حرباً، أو أن يضع خطة، أو يتخذ قراراً، ولا تطاع أوامره التي يصدرها. بل ربما استهين به، وأوذي، وطرد من قبل زملائه، ومن يرون أنهم أرفع منه رتبة وشأناً، وأسد منه رأياً..

أما إذا كان القائد هو الساهر، والحاضر والناظر، فإنه بسبب خبرته، ومعرفته بالإمكانات التي لديه، وبمواقع القوة، ومفاتيحها، ولأنه هو المطاع أمره ونهيه، فإنه سيكون قادراً على معالجة أي اختلال، وامتصاص آثار أية مفاجأة، وربما يقلب بتدبيره، ونفوذ أوامره الأمور على رؤوس مهاجميه..

ثانياً: إن العسكر كله، وخصوصاً الحراس، إذا رأوا أن القائد الأول فيهم يشاركهم في السهر والحراسة، ويتفقد أحوالهم لحظة بعد أخرى، فإنهم سيشعرون بالرضا، وبالعزة، والكرامة، والقيمة.. وأنهم ليسوا مجرد وسائل يستفيد منها الحاكم لبسط نفوذه، وقهر عدوه، بل هو يريد أن يحفظهم، كما يريد أن يحفظ نفسه، بل يريد أن يقيهم

بنفسه، ويتحمل من العناء والسهر أكثر مما يتحملون، ويبذل من نفسه مثل ما يبذلون..

ثالثاً: إن هذا يدل الحراس على قيمة عملهم أيضاً، وأنه من الأهمية والقداسة بحيث يكون كبار القادة على استعداد لبذل كل غال ونفيس في سبيله، ومن أجله.. وأن ما يقوله القائد لمن هم تحت يده ليس مجرد شعارات يراد بها إثارة الحماس لا أكثر، ولا أقل..

لا مجال للتهاون بهذه الأوامر:

وقد جرت العادة في الشؤون العامة، بأن تنفذ الأوامر بحماس ودقة في البداية، ثم يبدأ التراخي والإهمال، وتبدأ الثغرات بالظهور، ولا سيما فيما يرتبط بالمراقبة، وكل ما يحتاج إلى بذل جهد متواصل، في مجال له امتداد زمني، ينقسم إلى أيام، ثم إلى ساعات، ودقائق، ويصبح توالي الثواني كتوالي الأنفاس، فإن هذا الروتين والإنتظار الطويل والممل يؤدي إلى عدم التركيز، وربما يدعو إلى صرف النظر عن الواجب للحظات تقصر تارة وتطول أخرى.

من أجل ذلك: جاء التأكيد من أمير المؤمنين «عليه السلام» على لزوم مواصلة الإلتزام بهذه الأوامر، وعدم التواني والإهمال فيها مهما طال الزمن، لأن أي إخلال بشأن الحراسة، ودقتها قد ينتهي بكارثة حقيقية وهائلة. فقال «عليه السلام»: «ليكن ذلك شأنكما ورأيكما إلى أن تنتهيا إلى عدوكما».

الإتصالات:

ومن الأمور البالغة الأهمية في الحرب: الإتصال المتواصل بالقيادة، ووضعها في صورة ما يجري، وتعريفها بكل صغيرة وكبيرة، لحظة بلحظة، حتى كأن القائد حاضر معهم، وناظر لما يجري.. ولا يختص ذلك بالعمليات العسكرية، بل يشمل حال المسير والإنتقال، وسائر التقلبات والأحوال، الداخلية منها، والخارجية..

التسرع مرفوض في الحرب:

1 - وحيث إن للحرب طبيعة حادة، مبدؤها التشنج، والإنفعال، ثم محاولة استباق الأمور، والمباغتة للعدو. وقوامها العنف والبطش الشديد، فإنها قد ترفع تبعاً لذلك من مستوى السرعة في اتخاذ القرارات إلى حد التسرع والإرتجال فيها.

وربما أدى ذلك إلى تجاوز الخطط الموضوعة، والمدروسة بعناية فائقة.. فينشأ عن هذه العجلة والتسرع الوقوع في محاذير كبيرة، وخطيرة، وربما مميتة.

فجاء أمره «عليه السلام» للقائد هنا، ليؤكد على لزوم السيطرة على النفس، وضبط المشاعر، فلا يخرجه رهج الحرب عن توازنه، ولا تبهره ضوضاؤها، وعجيجها، وضجيجها، وشعاراتها، وانفعالاتها، عن تماسكه، ولا توجب هيمنة مشاعره، وانفعالاته، على عقله، ودرايته..

كما أن هذا التشنج والإنفعال يجب أن لا يقوده إلى ترك ما يجب عليه من إقامة الحجة على مناوئيه، وتركهم يسبحون في بحار شبهاتهم، وأباطيلهم، ولا يقدِّم لهم ما يكون به عذره عند الله تعالى في حربهم..

2 ـ ثم استدرك «عليه السلام» على ذلك، بأن قال: إنه إن أقيمت الحجة على الأعداء، وأصروا على بغيهم، وعلى باطلهم، وعدوانهم، وأصبح لا بد من الحرب.. وسنحت فرصة لحسم الأمر بأقل الخسائر، فلا مانع من انتهازها في هذه الحال.

قرار الحرب والإنضباط التام:

وقد فرض «عليه السلام» على قادة مقدمة جيشه، الإلتزام بعدم الإقدام على أي عمل حربي. إلا في موردين هما:

الأول: أن يهاجمهما العدو، فيدافعانه ويدفعانه عن أنفسهم.

الثاني: أن يأتيهما الأمر بالقتال منه «عليه السلام».

فدلنا بذلك:

أولاً: على لزوم الإنضباط التام.

الثاني: على أن قرار الحرب بيده وحده، وليس لأحد أن يفتئت عليه فيه. إلا فيما استثناه.

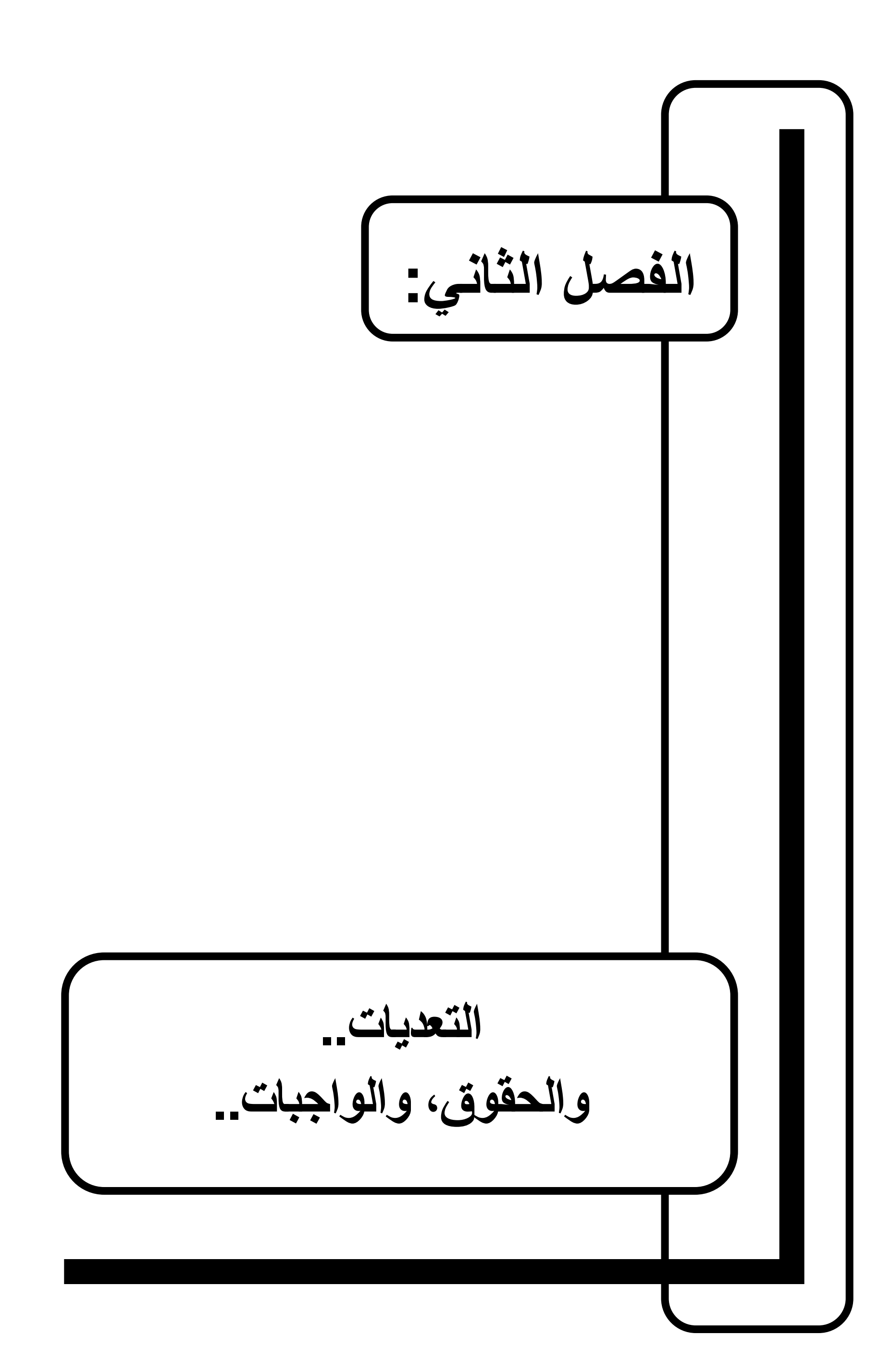
الثالث: إن الصورة المستثناة إنما هي في مورد الدفاع عن النفس، حيث لا يمكن انتظار القرار من موقع بعيد عن ساحة القتال.

فدل ذلك على أن الحرب الدفاعية مشروعة في نفسها.

للبحث صلة:

ونشير أخيراً إلى أن لأمير المؤمنين «عليه السلام» وصية أخرى كتبها لمعقل بن قيس حين أرسله على رأس مجموعة من المقاتلين إلى بلاد الشام، تحدث فيها عن الموضوعات المتقدمة المرتبطة بتنقلات الجيش. وسنرى أنها تضمنت خصوصيات وأوامر تختلف عن الأوامر التي أصدرها لزياد بن النضر ورفيقه.

فلا بد للقارئ الكريم من النظر فيما أوصى به «عليه السلام» معقل أيضاً، ويضمه إلى ما ذكرناه هنا، لتكتمل الصورة لديه.



الفصل الثاني:

التعديات..
والحقوق، والواجبات..

تعديات الجيش:

قال المنقري: وفي حديث عمر أيضاً بإسناده، قال: ثم إن علياً «عليه السلام» كتب إلى أمراء الأجناد:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين..

أما بعد.. فإني أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش، إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، أو عمى إلى هدى، فإن ذلك عليهم.

فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا، فيرد علينا وعليكم دعاءنا، فإن الله تعالى يقول: **(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ**

كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)[1]. فإن الله إذا مقت قوماً من السماء هلكوا في الأرض.

فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما [يجب علينا أن] نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا. ولا قوة إلا بالله.

وكتب أبو ثروان[2].

لكن النص الوارد في نهج البلاغة لهذا الكتاب يختلف كثيراً عن هذا النص، ولذا رأينا أن نورده هنا أيضاً، وهو كما يلي:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد..

أما بعد..

فإني قد سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم، من كف الأذى، وصرف الشذى. وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش، إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا إلى شبعة.

---

(1) الآية 77 من سورة الفرقان.

(2) صفين للمنقري ص125 ونهج السعادة ج4 ص242 و 243 وراجع: بحار الأنوار ج32 ص415 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص194.

فنكلوا من تناول منهم ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضادتهم، والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم.

وأنا بين أظهر الجيش، فارفعوا إلى مظالمكم ، وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم ولا تطيقون دفعه إلا بالله وبي، أغيره بمعونة الله. إن شاء الله(1).

ونقول:

إيضاحات:

عمال البلاد: حكامها.

الشذى: الشر. يقال: آذيت وأشذيت.

معرَّة الجيش: إثمه، وشره، وأذاه.

نكلوا: ادفعوا، أو دافعوا.

بداية ضرورية:

لو راجعنا تاريخ البشرية كلها، فلن نجد فيه أية إشارة إلى أن أحداً من الناس أراد أن يرسل جيشاً ليحارب عدواً، فاستبق حركة ذلك الجيش برسالة إلى جميع البلاد، والقصبات، والمزارع،

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص116 و 117 الكتاب رقم 60 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج17 ص147 وبحار الأنوار ج33 ص486 ونهج السعادة ج4 ص240 و 241.

والقرى، يتحدث فيها لهم عن احتمال تعرض بعض أفراد ذلك الجيش إلى ثمارهم وأرزاقهم. ويضع لهم قانوناً يتعاملون به مع ذلك الجيش، إن حدث لهم شيء من هذا القبيل.

بل نحن نجزم: أن مثل هذا الأمر لا يخطر على بال أحد غير علي «عليه السلام»، أو من ينتمي إليه علي «عليه السلام» في فكره، ونهجه، وفي إيمانه وسلوكه، وطريقة حياته، وكل شؤونه.

قد تضمنت في هذه التوجيهات من الحقائق والدقائق ما يبهر العقول، ويخرس ألسنة المدَّعين زوراً وبهتاناً أن لهم نهجاً حضارياً، أو يملكون نظرة إنسانية راقية. ويعرفهم بأن عليهم ـ لو أنصفوا ـ أن يلقوا بكل ما جاؤوا به وبأنفسهم أيضاً في سلة مهملات التاريخ.. بعد أن أشرقت شمس النبي «صلى الله عليه وآله»، وشمس علي «عليه السلام» على هذا الوجود، وغمرته بأنوارها.

وإذا أردنا أن نلقي نظرة على مضامين ما كتبه «عليه السلام» لجنده، ولأهل البلاد الذي سيمر ذلك الجند بها، فإننا نشير إلى ما يلي:

معرَّة الجيش:

إن تعديات الجيش، أو بعض أفراده على الناس، ليست بالأمر الجديد. بل هو قديم قدم الحروب التي تجرد لها الجيوش، وتسير بالبلاد، وتمر بأرزاق العباد.

وكان الذي يجرؤهم على ذلك:

أولاً: شعورهم بالقوة من حيث أنهم سلطة وجند، وبيدهم سلاح، وهم عصبة يحمي بعضهم بعضاً.

ثانياً: إنهم يعرفون حاجة قائدهم إليهم، ولا سيما في أيام الحرب. وهو يخطب ودهم، ويحاول الإحتفاظ بهم ليكونوا معه، وإلى جانبه، ولا يريد أن يكدر خاطرهم بشيء يزعجهم به، فذنبهم عنده مغفور، وخطأهم مستور، وجهدهم مشكور.

ثالثاً: إنهم يُدِلُّون على الناس بأنهم مجاهدون، يُعَرِّضون أجسادهم للتعب والضرر، وأرواحهم للخطر، من أجل حفظ سلامتهم، وأمنهم في بلادهم. فمن هو ذلك الذي سيعترض عليهم لو أتلفوا بعض زرعه، أو سطوا على شيء من ماله، أو تعدوا على حقوقه، فإن ذلك كله يهون حين يكون ثمن ذلك العزة والكرامة، والأمن والسلامة، والظفر بالأعداء، وصيانة الوطن وحفظ كيان الأمة.

ولكن علياً «عليه السلام» يقول، ويفعل.. إنه يرفع الغطاء عن أي متعد، حتى لو كان أقرب الناس إليه، بل هو يُعلِم جميع الناس أنه قد يطلق الجيش لمواجهة العدو، فإذا مر بهم، فإنه لا يحمي لا الجيش، ولا أي فرد منه، ولا يدفع عنه إذا ارتكب أي خطأ في حق الناس، بل سيكون أول من يعين المظلوم على ظالمه، وسيأخذ له بحقه حتى لو كان هذا الظالم هو جيشه كله أو بعضه.

وهو يعلن لذلك الجيش أيضاً: أنه سيكون مع الناس ضده إذا تعرضوا لأي تعدٍ أو ظلم منه، لأن مسير الجيش للجهاد عمل بالواجب

الشرعي، ولا فرق بين العمل بهذا الواجب، وبين امتثال أي واجب آخر، عبادياً كان أو غير عبادي.

البراءة للمسلمين ولأهل الذمة:

وغني عن البيان: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد برئ من معرَّة الجيش لصنفين من الناس، هما: المسلمون، وأهل الذمة، ولم يذكر المعاهدين، إذ لا يجب على المسلمين حماية المعاهدين، لأنهم هم الذين عقدوا عهداً على ترك الحرب مع المسلمين إلى مدة معينة، فهم محاربون اتفقوا مع المسلمين على هدنة، فإمام المسلمين ليس مسؤولاً عن حماية المعاهدين، والدفاع عنهم، ولا أعطاهم عهداً بتحصيل حقوقهم، بل غاية ما هناك: أنه تعهد لهم بعدم مواصلة الحرب طيلة المدة المتفق عليها.. وبعد انتهاء المدة يعودون إلى الحرب.

والمسؤول عن حماية المعاهدين، هم أبناء جلدتهم وحكامهم ورؤساؤهم. والمعاهدون لا يعترفون بحاكمية ولا برئاسة المسلمين عليهم. إلا إن آثر المعاهد أن يدخل إلى بلاد المسلمين لتجارة أو نحوها برضاً منهم وتعهدوا بعدم التعرض له بشيء.. فيصبحون في ذمة المسلمين من هذه الجهة إلى أن يعودوا إلى أوطانهم.

أما أهل الذمة، فهم يعترفون بالحاكم الإسلامي، ويقرون له بالرئاسة عليهم، وهو المسؤول عن حفظ أمنهم، وإليه ترجع إدارة شؤونهم العامة. ولذلك خاطبهم الإمام «عليه السلام» بما خاطب به

المسلمين، وأبلغهم أنه لا يحمي من يتعدى عليهم، ويؤذيهم ويتناول من أموالهم. فلا ينبغي لهم السكوت على تعديات الجيش ظناً منهم أن علياً «عليه السلام» يحمي المعتدين من ذلك الجيش، ويؤيد جميع تصرفاتهم.

ولذلك قال «عليه السلام»: «فإني أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش».

وتلك ميزة أخرى تتجلى لنا في أمير المؤمنين «عليه السلام»، وهي: أنه «عليه السلام» ليس كغيره من الحكام الذين لا يهتمون لحقوق الضعفاء، الذين قد يجدون حرجاً في المطالبة بحقوقهم، أو برفع الغبن عنهم، ولا سيما إذا كانوا أقلية ومن أهل الأديان الأخرى، ولا يجدون لهم سنداً ولا معيناً.

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» هو السند لكل ضعيف، ولا يتوانى عن حفظ كل حق يطلب منه أن يحفظه ويرعاه لأهله. لأن القوة عنده تكون بالحق.. فالحق هو الذي يمنح القوة، وليس الحق لمن تكون له القوة. كما يراه غيره «عليه السلام»، وهو «عليه السلام» الذي قال:

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له. والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»**(1)**.

---

(1) راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص88 الخطبة رقم 37 وكتاب

هل هذا تناقض؟!:

وقد يقال: إذا كان المبرر للإقتصار على المسلمين وأهل الذمة، هو أن حفظ المعاهدين ليس من مسؤوليات إمام المسلمين، فلماذا غضب «عليه السلام» حين أغارت خيل معاوية على بلاد المسلمين، وسلبت من بعض النساء المعاهدات بعض حليها، وقال كلامه المأثور والمشهور:

«هذا أخو غامد، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها.

ولقد بلغني: أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها، وقلبها، وقلائدها، ورعاثها[1] ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم؛ فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»؟![2].

الأربعين للشيرازي ص173 - 174 وبحار الأنوار ج21 ص121 - 124 وج39 ص351 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص284 و 286 والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري «عليه السلام» ص554 - 558.

(1) الرعاث: جمع رعثة: القرط، والحجل: الخلخال، والقلب: السوار.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص64 و 65 الخطبة رقم 27 والأخبار الطوال ص211 و 212 والغارات للثقفي ج2 ص475 و 476 والكامل للمبرد ج1 ص20 والعقد الفريد ج4 ص70 ومعاني الأخبار ص310

ويجاب:

أولاً: لا شيء يدل على أنه كان في المناطق التي سيمر بها جيشه «عليه

السلام» إلى صفين أحد من المعاهدين، لكي يذكره في كتبه المرسلة إلى أمراء جنده، وإلى الحكام في البلاد سلباً أو إيجاباً.

ثانياً: قلنا: إن الذين لهم حق على أمير المؤمنين «عليه السلام»، من حيث هم رعيته، وهو مسؤول عن أمنهم، وقد بايعوه على أن يكون حافظاً لأمنهم، ودافعاً عنهم عدوهم، هم خصوص المسلمين، وأهل الذمة.. وأما المعاهدون فلا حق لهم من حيث هم رعية له، فمن أي شيء يبرأ لهم، فإن البراءة من شيء إنما تكون في صورة ثبوت ذلك الشيء، وقد قلنا: إنهم لا يعترفون له بالحاكمية عليهم، ولا يرون أن لهم حق عنده. ولا يطالبونه بشيء، ولا يحتاج إلى أن يبرأ لهم من شيء.

ثالثاً: إن المعاهدين، لم يشترطوا عليه «عليه السلام» في عقد العهد، ولا في غيره أن يحميهم، ويدفع عنهم، كما أنهم لم يبايعوه ولم

وأنساب الأشراف (ط مؤسسة الأعلمي) ج2 ص442. وراجع: عيون الأخبار لابن قتيبة ج2 ص236 والكافي ج5 ص4 والأغاني ج15 ص45 ومقاتل الطالبيين ص27 والبيان والتبيين ج1 ص170.

يعاقدوه على غير متاركة الحرب، وهم يرون أنهم المسؤولون عن حفظ أمنهم بأنفسهم. فلا شيء لهم عنده لكي يبرأ لهم منه..

فإن كان لا بد من حفظهم فمن حيث إن الله تعالى قد كلفه بذلك، ولعله كلفه برفع التعدي بعد وقوعه، إذا حصل في بلده، ولم يكلفه بدفعه عنهم مطلقاً، وفي كل زمان ومكان. إلا إذا اقتضت ذلك مصالح وجهات أخرى، فعليه في هذه الحال أن يبرئ ذمته من ذلك أمام الله تعالى كسائر الواجبات الشخصية التي لا بد من الخروج منها بالإمتثال، وتكون مثل صلة الرحم، ونحوها مما يجب على الشخص تجاه الغير، والحال أنه ليس للغير أن يطالب به إلا من باب الأمر بالمعروف.. فإذا كان ذلك الغير لا يرى لنفسه حقاً بالصلة، أو لا يريدها منه، أو لا يرى وجوبها عليه، أو كان هو نفسه قاطعاً له، فكيف يطالبه بها؟! وما الحاجة إلى البراءة منها؟!

أما ما قاله «عليه السلام» عن المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، وما جرى لهما من جيش معاوية، فإنما هو من الناحية الإنسانية والأخلاقية، فإن الأمر قد لا يكون واجباً من الناحية الشرعية، لأن للإيجاب الشرعي مبرراته وموجباته التي قد لا تتوفر في بعض المجالات..

ولكن ذلك لا يمنع من التصدي لها بدافع عاطفي، أو أخلاقي على سبيل الإيثار أو التفضل، فإن الرفق بالعدو ليس واجباً.

ما استثناه من معرَّة الجيش:

وقد استثنى «عليه السلام» في إعلانه هذا ثلاثة أمور، قال إنها ليست معرة الجيش، بل هي حق له على الناس، ولصاحب الحق أن يستوفي حقه، وهي التالية:

1 ـ جوعة لا يجد عنها مذهباً إلى شبعة.. وهذا هو مضمون قوله تعالى: **(فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**[1].

ويلاحظ القارئ: أنه «عليه السلام» حسب النص الوارد في نهج البلاغة قد أضاف الجوعة إلى «المضطر» فقال: «إلا من جوعة المضطر». كما أنه قيد الجوعة بقوله: «لا يجد عنها مذهباً»، ليدل على أن الجوعة التي تجيز للجند الأخذ من أموال الناس هي التي لا يجد عنها مذهباً، ويكون بحيث لو لم يفعل ذلك لواجه الخطر الأكيد، والضرر الشديد.

2 ـ حالة الحاجة التي تضر بالحال في ذلك المسير، فيبادر إلى تناول شيء من مال غيره، لكي لا يواجه الضرر والخطر في مستقبل الأيام.

والفرق بين هذا القسم وسابقه: أن الجوع في القسم الأول هو

---

(1) الآية 3 من سورة المائدة.

الداعي لتناول ما ليس له. أما في هذا القسم، فالفقر والخوف مما يؤول إليه حاله في ذلك المسير هو الحامل له على ذلك، وإن لم يكن جائعاً، ولا مضطراً بالفعل.

3 - أن يكون قد فعل ذلك جهلاً منه بالأحكام، وعمى عن شريعة سيد الأنام، فيتوهم أن ذلك جائز له، لكونه من المجاهدين الباذلين أنفسهم في سبيل الدين وأهل الدين. فيعذر بجهله. ويعفى عنه لأجله. ولا يطالب بما أخذ إن كان لا يزيد عما أباحه الشارع له، من حيث هو عابر سبيل.. وللسابلة حق شرعه الله تعالى.

ولعل هذا هو المراد بقوله: «إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، أو عمى إلى هدى، فإن ذلك عليهم».

كن المخاطب:

وسواء قلنا: أنه «عليه السلام» قد وجه رسالتين: إحداهما إلى عمال الخراج.. والأخرى إلى أمراء الجند، وقد خلط بعض الناس بينهما، أو قلنا: إنها رسالة واحدة، فإننا نقول:

إن ملاحظة المصادر تشير إلى وجود اختلاف فيما بينها في تحديد المخاطب بهذه التوجيهات، فعند نصر بن مزاحم: أن المخاطب بها هو أمراء الأجناد..

أما النص الوارد في نهج البلاغة، ففيه: أن المخاطب به هو جباة الخراج وعمال البلاد..

وعلى هذا يكون المراد من كلمة «الناس» في قوله: «فاعزلوا الناس» الواردة في الرسالة الأولى: هم من تحت أمرة قادة الجيش.

والمراد من كلمة «السفهاء» الواردة في نص نهج البلاغة: هم السفهاء الذين في البلاد التي في أيدي العمال، ويعمل فيها جباة الخراج..

سياسة أمراء الجند:

وبعدأن ذكر النص الذي رواه المنقري براءته «عليه السلام» من معرة الجيش: ذكر أنه «عليه السلام» أمر أمراء الأجناد بمنع الناس الذين هم تحت إمرتهم:

1 ـ من الظلم والعدوان..

2 ـ أمرهم بالأخذ على أيدي سفائهم، فلا يضايقوا الناس بتصرفاتهم، حتى لو كانت تلك التصرفات مباحة في نفسها.. مثل رفع الأصوات، وإحداث الجلبة في الطرقات بلا موجب، ومثل التصرفات والحركات الموجبة لإرباك الناس، أو التطفل عليهم بمفاجأتهم بما لا يتوقعونه، والتظاهر بما يوهمهم بما لا واقع له، أو نحو ذلك..

3 ـ أن يحترس نفس أولئك الأمراء من أن يصدر منهم ما لا يرضي الله تبارك وتعالى.. لأنهم إن فعلوا ذلك، فإن الله يرد دعاء الأخيار، كما يرد دعاء الأشرار.

كما أن ذلك من موجبات مقت الله سبحانه في السماء، الذي هو

سبب الهلاك في الأرض.

ويتفرع على ذلك لزوم العمل بالأمور الخمسة التالية:

1 ـ قال «عليه السلام»: «فلا تألوا أنفسكم خيراً».

وهذا الأمر وإن كان موجهاً هنا إلى أمراء الجند، ولكنه صالح لأن يأخذ الناس كلهم به.. لأن جميع الناس يريدون أن يعبأ الله تعالى بهم، ويجعلهم موضع عنايته، ورعايته، وأن لا يمقتهم الله في السماء، ولا يهلكهم في الأرض. وهذا يحتم عليهم الإستكثار من الخير لأنفسهم.

2 ـ أن لا يألوا الجند حسن السيرة، فإن بذل ما في وسعهم لتحسين تعاملهم مع الجند من موجبات الأمن من مقت الله في السماء، والأمن الهلاك في الأرض ومن موجبات استجابة دعائهم، وعناية الله تعالى بهم..

3 ـ أن لا يألوا في معونة الرعية، ولا يدخروا عنها جهداً في ذلك..

4 ـ أن لا يألوا دين الله تعالى قوة، فلا يقصروا في توفير أية قوة إلى دين الله تعالى..

5 ـ أن يبذلوا في سبيل دين الله كل ما استوجب عليهم.. ولا يكونوا مطالبين بشيء مما يجب عليهم.

الحضور القوي:

وفي النص الوارد في نهج البلاغة أشار «عليه السلام» إلى حضوره القوي والفاعل في الساحة، فقال: «وأنا بين أظهر الجيش، فادفعوا إليَّ مظالمكم».

ويشير هذا النص أيضاً، إلى رقابته «عليه السلام» ومعرفته بكل شاردة وواردة. فإن كونه بين أظهرهم معناه: أنه وسطهم، وفي معظمهم، مما يعطي: أن بإمكان كل أحد أن يصل إليه، ويعرض ما لديه عليه، فليس هو بعيد المنال عنهم، ولا يوصد الأبواب بوجه أحد منهم، فهو يختلف عن كل من عداه من الحكام.

على الحاكم أن يعين من تحت يده:

ويلاحظ أيضاً ما يلي:

1 ـ لقد أسس «عليه السلام» قاعدة لها أهميتها البالغة، وأثرها الكبير في تعاون أجهزة الحكم على إنجاز المهمات.. حين قدَّم عهداً بأن يبذل كل ما في وسعه في معونة عماله وولاته على إنجاز ما أوكل إليهم من مهمات حين لا يقدرون على القيام بها بمفردهم. وأن يسهم في دفع ما عجزوا عن دفعه بمفردهم..

2 ـ إنه «عليه السلام» أفهمهم: أنه هو مرجعيتهم فيما يحتاجونه..

3 ـ إن الأبواب إليه مفتوحة أمام كل طالب..

ولذلك قال «عليه السلام»: «وأنا بين أظهر الجيش، فارفعوا إليَّ

مظالمكم. وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم، ولا تطيقون دفعه إلا بالله وبي..».

4 - إن هذا يعطي: أن المهم عند الحاكم يجب أن يكون هو إنجاز العمل.

5 - إنه يعطي أيضاً أن عليه أن لا يحمل ولاته فوق ما يطيقون..

6 - إن هذا يفتح الباب أمام الولاة والحكام لأن يطلبوا العون من رؤوسائهم كلما غلبهم أمر. وليس لهم أن يتركوا الأمر ناقصاً إلى أن يفوت وقت إنجازه.. ثم يقدمون الأعذار الفارغة، لتبرير هذا الفوت، أو حدوث ذلك النقص.

للجند حقوق.. وعليهم واجبات:

قال المنقري:

وفي كتاب عمر بن سعد أيضاً: وكتب إلى جنوده يخبرهم بالذي لهم، والذي عليهم:

من عبد الله علي أمير المؤمنين.

أما بعد.. فإن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء: أسودكم وأحمركم.

وجعلكم من الوالي، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد، الذي لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة به، ما سمعتم وأطعتم، وقضيتم الذي عليكم.

وإن حقكم عليه إنصافكم، والتعديل بينكم، والكف عن فيئكم.

فإذا فعل ذلك معكم، وجبت عليكم طاعته، بما وافق الحق، ونصرته على سيرته، والدفع عن سلطان الله، فإنكم وزعة الله في الأرض.

(ـ قال عمر: الوزعة الذين يدفعون عن الظلم ـ) فكونوا له أعواناً ولدينه أنصاراً، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها. إن الله لا يحب المفسدين[1].

ونقول:

إن إصدار إعلان خاص بالجند، يحدد ما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات، إنما هو من ابتكارات الإسلام، ممثلاً بأمير المؤمنين «عليه السلام»، حيث لم يعهد أن أحداً قبله ولا بعده، أصدر مثل هذا الإعلان.

والتأمل في هذا الإعلان المبارك، يفتح آفاقاً واسعة في مجال الحقوق، وفلسفتها، وركائزها، وغاياتها التي تنتهي إليها.

نسأل الله تعالى أن يوفق العلماء والباحثين لمعاناة البحث فيها، وسبر أغوار هذا الإعلان العتيد، لاستخراج بعض ما اختزنه من جواهر الحقائق، وكنوز الدقائق..

---

(1) صفين للمنقري ص126 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص195 وبحار الأنوار ج32 ص416 وج72 ص356 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص44 و 45.

غير أننا سنحاول فيما يلي: أن نلم ببعض الإثارات، ونشير إلى ما أمكن وتيسر من لطائف الإشارات، وذلك فيما يلي من عبارات:

مبدأ المساواة في الحقوق:

إن الحقوق والواجبات، التي أشار إليها «عليه السلام» في إعلانه هذا لم تأت من فراغ، ولم تكن مرتجلة، أو عشوائية، وإنما فرضتها مبادئ، وهيمنت عليها مفاهيم، وانطلقت من قيم وأصول صحيحة وأصيلة.

وقد أشار «عليه السلام» في إعلانه هذا إلى تلك المبادىء والمفاهيم، والقيم. فكان أول ما قرره منها هو مبدأ المساواة في الحقوق.. فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، أو أحمر..

فقال «عليه السلام»: «إن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء: أسودكم، وأحمركم».

وقبل أن ندخل في بيان بعض ما ألمح إليه هذا الإعلان المبارك نشير إلى ما يلي:

شمولية النظرة الإسلامية:

إن الإسلام حين قرر مبدأ الحقوق، لم يقصر نظرته على الإنسان، بل تعداه إلى غيره أيضاً: فهناك حق الله، وحق النبي، وحق الإمام، وحق الجوارح، كاللسان، واليد، والبطن.. وغيرها.. وحق

المال، والحيوان، والمركوب، والركوب.. وغير ذلك.

وهناك حقوق الأفعال، كحق الصلاة، والصيام، والهدي..

وهناك حقوق الأرحام كالولد، والأخ، والأب، والأم، والزوج والزوجة.. وغير ذلك.

وهناك حق العالم، والجار، والجليس، والشريك، والمؤذن، والناصح.. وغير ذلك.

وهناك أيضاً حق أهل الذمة، وحق الرعية.. وغير ذلك.

مبادىء ومناشىء الحقوق:

ومن الواضح: أن مبادئ ومناشئ الحقوق على نحوين:

أولهما: ما هو ثابت وراسخ من خصوصيات كامنة في الخلق، والتكوين، كالإنسانية، والحياة ونحو ذلك. أو خصوصية منتزعة عن أمر هو من مقتضيات التكوين والخلق وحالاته، كالأبوة، والبنوة، والأخوة.

فالحقوق المترتبة على أمثال هذه الأمور تتخذ صفة الثبات، والدوام، بالإضافة إلى العموم والشمول تبعاً لمناشئها.

فإذا ثبت اشتراك البشر كلهم في الإنسانية، وكونهم كلهم لآدم وآدم من تراب، فلا معنى للتفاوت في الحقوق بين بني إسماعيل وبني إسحاق، وبين أسودهم وأحمرهم، وعربيهم وعجميهم.

الثاني: الحقوق التابعة لعناوين وخصوصيات اختيارية مكتسبة،

وليست منتزعة عن أمر تكويني، بل هي تختلف وتتفاوت، وتوجد وتفقد كحق العالم والجار، والمسلم، وأهل الذمة، والراعي، و.. و.. و.. وهذه الحقوق تابعة أيضاً لمناشئها.

قال الإمام السجاد: «ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال، وتصرف الأسباب».

والتأمل فيها يعطي: أن منها ما لا يمثل في نفسه قيمة أخلاقية، وإنما هو مجرد حالة حياتية ذات صلة بالنظم الإجتماعي العام، أو بغيره من شؤون الحياة، مثل كونه جاراً، أو جليساً، أو صديقاً، أو شريكاً، أو غريماً، أو نحو ذلك.

ومنها ما يتصل بكمالات إنسانية أو أخلاقية، وهو ذو طابع إختياري مثل العلم والإيمان، وذي المعروف، والمعلم، فإن جعل أمثال هذه الأمور منشأ لحقوق معينة من شأنه أن يرسخ الشعور بقيمة، وأهمية هذه الكمالات، ويذكي الطموح إلى الحصول عليها..

وهناك أنحاء وأحوال أخرى تفهم من الأمثلة التي قدمنا مما يتصل بما كانت له مناشئ ثابتة، أو يتصل بما له مناشئ طوعية وإختيارية ومتغيرة..

الحقوق ليست امتيازات:

وليس لأحد أن يظن أن هذه الحقوق قد جاءت لتكرس امتيازاً لذي الحق.. وتمنحه تفضيلاً، فإن هذا الظن قد يسيء إلى الأهداف

والغايات من هذه الحقوق.. بل هي قد جاءت إما لتسهم في تمكين الخصوصية من أن تسهم في إغناء موقعها الطبيعي بما يجعله مؤثراً إيجاباً في المنظومة الفاعلة في حركة ذي الخصوصية نحو كمالاته، أو لتكون حصانة له من الإختلال في أداء الوظيفة التي رصدت لها في هذه الإتجاه.

فوائد وعوائد:

ونستطيع أن نفهم من ملاحظة موارد الحقوق، ومناشئها وأسبابها: أن لها ثمة أنواعاً من الفوائد والعوائد، واللطائف والظرائف.. فيلاحظ مثلاً:

أن قسماً منها ينتج تعميق الإحساس بالمسؤولية الإجتماعية المنبثقة عن دواع إيمانية، وقيم أخلاقية، وثوابت عقائدية، وقناعات متجذرة وراسخة تفيد في التربية والتنشئة الإنسانية عقلاً وروحاً ونفساً.

كما أن قسماً آخر منها يسهم في تعميق العلاقة مع الله، أو مع النبي، أو الإمام، أو مع الأرحام، أو الإخوان المؤمنين، أو نظرائه من بني الإنسان، أو بسائر ما يحيط به، وتفرض الحياة وجود صلة له به من أي نوع كانت.

وربما ساعدت بعض الحقوق بما لها من مبادئ ومناشئ على تهيئة قدرات أو وسائل تمكن الإنسان من حل كثير من المشكلات التي

تعترض طريقه في حياته، حياة الإباء والكرامة، وفي مسيرته، مسيرة البقاء والسلامة.

وربما كانت لها إسهامات في صقل روحه وعقله، وتمنحه المزيد من بعد النظر، ودقة الملاحظة، وسلامة الإحساس، وحسن التعامل مع الواقع الذي يحيط به، ومع الوقائع التي تنتظره..

على أن قسماً آخر منها مثل حقوق اللسان، والسمع والبصر، والبطن، واليد، والرجل، وغيرها، تسهم في الضبط لأعمال الجوارح، والهيمنة على السلوك العمليٍ، وليكون ذلك عوناً له على بناء ذاته بصورة صحيحة، ومتوازنة، ومنضبطة، لكي تتاح له الفرصة لمواصلة السمو الروحي، وتعميق الصلة بالله تعالى..

وهناك قسم آخر من الحقوق، يفيد في إيجاد المناعة والصلابة في مواجهة المغريات، ويعينه على الإبتعاد عن كل رذيلة، ويغريه بالتشبث بكل فضيلة..

وتجعله يهتم بتزكية نفسه، وتطهير وجدانه عن كل ما يعكر صفاءه، ويشين طهره ونقاءه. وثمة قسم آخر من الحقوق يهتم بتربية المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية التي تعطي قوة في الإندفاع نحو التطبيق العملي للقناعات النظرية والإيمانية، والأخلاقية، وتحويلها إلى نهج، وموقف، وأسلوب وسلوك، وطريقة حياة..

وقسم من الحقوق يهدف إلى الوقاية من التعديات، فالمؤمن أعظم حرمة من الكعبة، ومن حقه على أخيه المؤمن أن لا يخونه، ولا

يظلمه، ولا.. ولا.. الخ..

وقسم منها تكفل بحل مشكلاته بصورة مباشرة، مثل أن من حق المؤمن على المؤمن أن يشبع جوعته، ويفرج كربته، ويقضي دينه، وأن يعوده إذا مرض، الخ..

حق الناس من حق الله:

ويستفاد من أول رسالة الحقوق للإمام زين العابدين «عليه السلام»: أن حق الناس من حق الله سبحانه. وروي عن علي «عليه السلام» أنه قال: «ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً. ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»[1].

حق الناس مقدم على حق الله:

بل إن حق الناس مقدم على حق الله، فعن علي «عليه السلام» أنه

(1) ميزان الحكمة ج2 ص479 و (الطبعة الأولى ـ دار الحديث) ج1 ص662 وج3 ص2720 ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص198 والكافي ج8 ص353 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج2 ص65 وبحار الأنوار ج27 ص251 وج34 ص184 وج41 ص152 وج74 ص354 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج1 ص239 وج3 ص483 وج4 ص233 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج11 ص91 ونهج السعادة ج2 ص179.

قال: «جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله، كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله»(1).

جعلكم الله في الحق سواء:

وبعد.. فقد تقدم: أن الناس لا يختلف أسودهم عن أحمرهم، ولا عربيهم عن أعجميهم في الحقوق التي لها صفة الثبات، لأن لها مناشئ ثابتة وراسخة بسبب كمونها في أصل الخلقة والتكوين كحق الحياة، وحق البطن واليد والرجل، وما إلى ذلك..

ولا يختلف الحال أيضاً فيما له مناشئ عامة منتزعة عن حالة واقعية، كالبنوة، والأبوة، والأخوة، ونحو ذلك.

كما أنه لا يختلف الحال حتى في الحقوق المستندة إلى المناشئ الإختيارية الإكتسابية، كالجليس، والجار، والعالم، و.. و.. الخ..

فإن كل من أصبح ذا صفة، من هذه الصفات، أو ذا خصوصية من هذه الخصوصيات، أو حالة من الحالات، فإن الحقوق التي اقتضتها تلك الصفات، أو الخصوصيات، أو الحالات سوف تتبعها بلا فرق بين الأبيض والأحمر، أو الأسود والأصفر..

فقد يجمع إنسان خصوصية كونه جليساً، وجاراً، وعالماً، وأباً،

---

(1) عيون الحكم والمواعظ للواسطي ص223 وميزان الحكمة ج2 ص480 و (الطبعة الأولى ـ دار الحديث) ج1 ص662 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص231 عن غرر الحكم : 4780.

وإماماً، ومؤمناً، ومصلياً، وصائماً و.. و.. الخ..

وقد يفقد بعض هذه العناوين، ويتحلى بغيرها..

ولكن الأمر الثابت بلا ريب هو: أن أي عنوان أو حال أو خصوصية جعل الله تعالى لها حقاً، فإنها إذا تبلورت وتحققت تبعتها حقوقها، إلا إذا كان هناك مانع منها، أو مسقط لها حسبما تقدم بيانه..

وبذلك يظهر المراد من قوله «عليه السلام» في إعلانه لحقوق الجند: «إن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء: أسودكم، وأحمركم»..

الوالي والد، والرعية بمنزلة الولد:

وإن من أعظم الأصول الإسلامية المقرَّرة فيما يرتبط بالوالي والرعية هو ما بيَّنه «عليه السلام» هنا بقوله:

«..وجعلكم من الوالي، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد..».

ويلاحظ:

أولاً: إن التعبير بكلمة «الوالي» دون كلمة «الإمام» ربما يكون لأجل أن أكثر الناس كانوا لا يعتقدون بإمامته «عليه السلام»، بسبب الإعلام المضاد الذي تعرضت له المفاهيم الأصيلة، التي ترتبط بموضوع الإمام والإمامة.

ثانياً: إن الحديث وإن كان مع قادة الجند، ولكن التعبير هنا كان بكلمة «الوالي» ليكون الكلام أجمع وأتم، وأولى وأعم.

وغني عن البيان: أن أكثر الناس احتكاكاً بالوالي، والحاكم والقائد هم العاملون معه، وعلى وجه الخصوص الجند الذين لهم أعظم الأثر في توفير أمن الناس، وفي مستقبلهم، وحياتهم، وفي طمأنينتهم وسكينتهم..

كما أن طبيعة عملهم، ومهماتهم تجعل لعلاقتهم بالوالي والحاكم ـ ابتداءً من القائد المباشر والقريب، وانتهاءً بالخليفة والإمام ـ مرهفة وحساسة، بل بالغة الحساسية، لأنهم يرون أنهم يبذلون دماءهم دفاعاً عن الغايات الكبرى، والأهداف السامية، وعن الأمة المؤمنة بها.. ولأن الإمام يعرف مدى حساسية ما يقومون به، ومستوى خطورة أي خلل يعرض لهم في عملهم، أو في علاقته بهم..

ولذلك كان لا بد للعلاقة بين الحاكم وبين جنده من أن تقوم على أساس، وأن يحكمها نهج، وتهيمن عليها قيم ومفاهيم معينة، فإن كان الأساس هو المصلحة الشخصية، أو القبلية، أو الفئوية، فإن مصلحة الشخص أو القبيلة أو الفئة اليوم في جانب، وتكون غداً في جانب آخر.. وقد تتصادم مصالح الأشخاص، أو الفئات، أو القبائل.

وإن كانت العلاقة بين الوالي ومن هم تحت يده قائمة على أساس فرض الرأي والقرار، باعتماد منطق السيد والمسود، والآمر والمأمور، كما هو حال ملوك الدنيا الذين يتسلطون على الناس بالقهر وبقوة السيف.. فإن القوة أيضاً قد تكون اليوم في يد هذا الحاكم، وتكون غداً في يد ذلك المحكوم، فينقلب عليه وينتقم منه، ويصبح هو

المأمور، والمقهور، والمغلوب.

وبذلك لا يبقى فرق بين حكومة الطواغيت والمستكبرين، وبين حكومة أهل الإيمان، وقد قال تعالى عن فرعون: **(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)** [1].

وقال تعالى: **(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا)**[2].

وقال تعالى: **(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)**[3].

وقد بيَّن أمير المؤمنين «عليه السلام» هنا: الفرق بين حكومة أهل الإيمان، وحكومة أهل الكفر والطغيان. فقرر في إعلانه هذا: أن علاقة الوالي مع الناس هي علاقة الوالد بولده، والولد بوالده..

بيان ذلك:

1 - إن الله تعالى خلق البشر، وأراد لهم أن يكونوا أمة واحدة:

---

(1) الآيتان 4 و 5 من سورة القصص.

(2) الآية 137 من سورة الاعراف.

(3) الآية 127 من سورة الاعراف.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) تعبد رباً واحداً **(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)**[1] أو **(فَاتَّقُونِ)**[2].

ولهذه الأمة هدف واحد، ومصير واحد.. ولها دين واحد **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ)**[3]، **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)**[4]، لأنه هو الدين الذي يهدي إلى الرشد، ويوصل الأمة إلى ذلك الهدف السامي والكبير، لتصير بعد ذلك إلى جنة الخلد حيث السعادة الأبدية، ورضوان من الله أكبر لو كانوا يعلمون..

وهذه الأمة الواحدة هي بمثابة أسرة واحدة لها قيِّم ومرشد واحد، يشرف على شؤونها، ويدير أمورها، وهو النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، ثم وصيه أمير المؤمنين «عليه السلام». ثم من بعده الأئمة الطاهرون «عليهم السلام»، ثم الأمثل، فالأمثل.

وقد روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»[5]. وعن الإمام الصادق «عليه السلام» في

---

(1) الآية 92 من سورة الأنبياء.

(2) الآية 52 من سورة المؤمنون.

(3) الآية 19 من سورة آل عمران.

(4) الآية 85 من سورة آل عمران.

(5) راجع: البرهان (تفسير) ج1 ص369 ومعاني الأخبار 52 و 118 وعيون أخبار الرضا ج2 ص85 و (ط مؤسسة الأعلمي) ج1 ص91 وعلل الشرائع ص127 وكمال الدين ص261 والأمالي للصدوق ص65 و 411

قوله تعالى: (**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا**)(1).

و 755 وبحار الأنوار ج16 ص95 و 364 وج23 ص128 و 259 وج26 ص264 و 342 وج36 ص6 و 9 و 11 و14 و 255 وج38 ص92 و 152 وج39 ص93 وج40 ص45 وج66 ص343 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص264 وج10 ص455 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص300 وروضة الواعظين ص322 وخاتمة المستدرك ج5 ص14 والغارات للثقفي ج2 ص717 و 745 وكنز الفوائد ص186 والعمدة لابن البطريق ص345 والروضة في فضائل أمير المؤمنين ص133 وسعد السعود ص275 والعقد النضيد والدر الفريد ص70 والمحتضر للحلي ص73 والصراط المستقيم ج1 ص242 و 243 وتفسير أبي حمزة الثمالي ص159 ونور الثقلين ج4 ص237 و 238 وكنز الدقائق ج1 ص286 وج2 ص440 ومفردات غريب القرآن ص7 وتفسير الآلوسي ج22 ص31 وبشارة المصطفى ص97 و 254 ونهج الإيمان ص625 و 629 وينابيع المودة ج1 ص370 ومشارق أنوار اليقين ص43 و 289 وغاية المرام ج1 ص177 و 250 وج2 ص179 و 211 وج3 ص70 وج5 ص118 و122 و 299 و301 و 303 وج6 ص66 و 155 و 166 و 167 وج7 ص128 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج4 ص100 و 227 و 366 وج5 ص95 وج7 ص216 وج13 ص77 وج15 ص518 و 519 وج20 ص230 وج22 ص280 و 282 و 346 وج23 ص580 و 621.

(1) الآية 8 من سورة العنكبوت.

قال: الرسول «صلى الله عليه وآله» أحد الوالدين.

فقال محمد بن عجلان: فمن الآخر؟!

قال: علي[1].

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: «حق علي بن أبي طالب على هذه الأمة كحق [حق] الوالد على ولده»[2].

---

(1) لسان الميزان ج2 ص40 وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص307 ومناقب علي بن أبي طالب لابن مردويه ص180 والمناقب للخوارزمي ص310 وينابيع المودة ج2 ص238 وراجع ج1 ص369 و 370 وعن مناقب ابن المغازلي ص47 وترجمة الإمام علي من تاريخ ابن عساكر ج2 ص271 وراجع: روضة الواعظين ص128 والأمالي للطوسي ص334 والعمدة لابن البطريق ص280 و 345 والروضة في فضائل أمير المؤمنين ص131 وكتاب الأربعين للشيرازي ص73 وبحار الأنوار ج36 ص5 وفضائل أمير المؤمنين لابن عقدة ص77 وتنبيه الغافلين ص101 وبشارة المصطفى ص413 و 414 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج8 ص93 عن: الفردوس ج2 ص2674/132 عن جابر، وفرائد السمطين ج1 ص297 /235 عن أنس بن مالك؛ والأمالي للطوسي ص72/54 عن جابر .

(2) فرائد السمطين ج1 ص397 ولسان الميزان ج4 ص399 وميزان الإعتدال ج3 ص316 والأمالي للطوسي ج2 ص277 والمناقب للخوارزمي ص219 و230 ومناقب الإمام علي بن أبي طالب لابن المغازلي ص48 وترجمة الإمام «عليه السلام» لابن عساكر (بتحقيق

وبهذا المعنى روايات كثيرة، فلتراجع في مظانها[1].

2 - إن الأسرة الأكثر سعادة، هي تلك التي يدبر أمرها شخص واحد، ولا سيما إذا كان هو الأب، الذي هو الأقوى والأجدر بتأمين ما تحتاج إليه، والأقدر على حماية أفرادها الذين لا يملكون من القوة ما يمكنهم من تأمين حاجاتهم وحل مشكلاتهم، ودفع العوادي عن أنفسهم.

وللأب رابط عاطفي بأسرته، يدعوه لأن يحتضنها ويرعاها ويدفع عنها الأسواء، ويحفظ مصالحها بما حباه الله تعالى به من عقل وتدبير حكيم، وفعل قويم وسليم، ثم هو يغدق عليها من عاطفته، وحنانه ما يسعدها، ويبعث الرضا، ويشيع روح السكينة فيها. لا سيما إذا ألزم نفسه برعاية العدل والإنصاف في تعامله مع جميع أفرادها، وعصم نفسه عن أي حيف أو تقصير، أو خطأ في تطبيق ما يمليه عليه وجدانه، ويفرضه تدبيره الحكيم، وعقله السليم، والشرع القويم الذي يهيمن على حركته وسلوكه وتصرفاته في كل شؤونه، الخاصة منها والعامة.

ولأجل ذلك، وإذا كانت الأمة كلها أسرة واحدة بنظر الإسلام، ولها رأس واحد، ومدبر واحد، فلا بد أن يختار لها الوالي الذي يختزن في داخله قدراً كافياً من الحب والحنان، والعطف عليها، ومن

المحمودي) ج2 ص271 و272 وغاية المرام ص544.

(1) البرهان (تفسير) ج3 ص244 و 294 وبحار الأنوار ج75 ص356.

الوعي والمعرفة بما يصلح أمورها، ومن العقل الكبير الذي يستوعب تلك المعارف ويستثمرها.. ومن الحكمة في تدبير شؤونها، ومن العصمة عن التقصير والحيف والخطأ، والإهمال في رعاية مصالحها، ومن القدرة على التحمل للمتاعب والمصاعب، والأذى حتى حين تأتي من جهال أو من أطفال أسرته، القاصرين، أو الفاسدين، أو اللامبالين..

وذلك كله يجعلنا نتفهم بعمق، كيف أن نفس نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» كانت تذهب حسرات على قومه الضالين، قال تعالى: **(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ)**[1].

وقال: **(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)**[2].

يقال: بخع نفسه: قتلها من وجد أو غيظ[3].

ونفهم أيضاً كيف تحمل من أذى قومه ما جعله يقول: «ما أوذي نبي ما أوذيت» أو نحو ذلك[4].

---

(1) الآية 8 من سورة فاطر.

(2) الآية 6 من سورة الكهف.

(3) أقرب الموارد ج2 ص32 وراجع: مجمع البحرين ج1 ص160 وكتاب العين للفراهيدي ج1 ص123 والصحاح للجوهري ج3 ص1183 ولسان العرب ج8 ص5 وتاج العروس ج11 ص7.

(4) كنوز الحقائق (بهامش الجامع الصغير) ج2 ص82 و 83 والجامع

وحين كانوا يحاربونه، ويسعون لإزهاق روحه التي بين جنبيه، ويقتلون إخوانه، وأهله وأصحابه، وكان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

الصغير ج2 ص144 و (ط دار الفكر) ج2 ص488. ومناقب آل أبي طالب ج3 ص42 وبحار الأنوار ج39 ص56 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص 102 وكشف الغمة ج3 ص346 وشرح منهاج الكرامة للميلاني ج 1ص265 وراجع: جواهر المطالب ج2 ص320 وكشف الخفاء ج2 ص180 وتهذيب الكمال ج25 ص314 وكنز العمال ج3 ص130 الحديث رقم: (5817 و 5818) وج11 ص461 الحديث رقم: (32160 و 32161) وشرح أصول الكافي ج9 ص202 وميزان الحكمة ج1 ص67 وج4 ص3227 و 3228 وفتح الباري ج7 ص126 وفيض القدير ج5 ص550.

وراجع: حلية الأولياء ج6 ص333 وأسنى المطالب ج1 ص245 والمقاصد الحسنة ج1 ص573 وكتاب المجروحين ج2 ص305 والكامل لابن عدي ج7 ص155 وتهذيب الكمال ج25 ص314 وميزان الإعتدال ج3 ص570 وج4 ص472 والكشف الحثيث ص233 وكتاب التمحيص للإسكافي ص4 والتفسير الكبير ج4 ص142 وتفسير ابن عربي ج1 ص239 وج2 ص82 وتفسير البحر المحيط ج7 ص242 وتاريخ الإسلام ج41 ص333 والزواجر ج1 ص117.

(1) بحار الأنوار ج11 ص298 وج20 ص21 و 96 و 117 وج21 ص119 وج35 ص177 وشجرة طوبى ج2 ص204 وسنن النبي «صلى الله عليه

أما علي «عليه السلام» فقد قال لأهل العراق: «لقد ملأتم قلبي قيحاً»(1).

أما حنان النبي «صلى الله عليه وآله» وحرصه على قومه وأمته،

وآله» للطباطبائي ص413 والخرائج والجرائح ج1 ص164 والتحفة السنية (مخطوط) ص52 ومناقب آل أبي طالب ج1 ص166 واثنا عشر رسالة للمحقق الداماد ج8 ص26 وتأويل مختلف الحديث ص150 وتفسير مجمع البيان ج4 ص279 وتفسير الميزان ج6 ص60 وجامع البيان ج22 ص192 ومعاني القرآن ج5 ص487 وزاد المسير ج6 ص 268 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص575 والدر المنثور ج2 ص 298 وج3 ص 94 وتفسير الثعالبي ج2 ص104 وفتح القدير ج2 ص61 وتاريخ مدينة دمشق ج62 ص247 والشفا بتعريف حقوق المصطفى ج1 ص105 وإعلام الورى ج1 ص179 وعصمة الأنبياء ص78 وعيون الأثر ج2 ص421 وسبل الهدى والرشاد ج1 ص481 وج7 ص21 و 22 وقصص الأنبياء للجزائري ص83 .

(1) راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص66 الخطبة رقم 26 والأغاني ج15 ص45 والمهذب لابن البراج ج1 ص324 ودعائم الإسلام ج1 ص390 والغارات للثقفي ج2 ص477 ومقاتل الطالبيين ص15 وشرح الأخبار ج2 ص75 وبحار الأنوار ج34 ص65 ونهج السعادة ج2 ص564 وج5 ص317 والمعيار والموازنة ص99 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص75 والأخبار الطوال ص212 والعثمانية للجاحظ ص96.

فقد ذكره الله تعالى فقال: **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)**[1].

وحياة الأنبياء، وصبرهم على أذى أقوامهم خير شاهد على جامعيتها للصفات التي أشرنا إليها. فراجع ما لاقاه نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ويونس، ولوط، وصالح، وسائر الأنبياء «على نبينا وآله وعليهم الصلاة والسلام»..

ويشهد لذلك أيضاً: ما لاقاه أوصياؤهم، ولا سيما أئمة أهل البيت «عليهم السلام» من مرارات وأذايا حتى استشهدوا على أيدي الطواغيت والجبارين.

ثم ما لاقاه العلماء الأبرار، وغيرهم من المؤمنين الأخيار الذين بذلوا كل غال ونفيس، واتخذ الله منهم الكثيرين شهداء، وهم يجاهدون ويدافعون عن المستضعفين، وعن الدين، وأهل الدين..

بمنزلة الوالد والولد:

1 - ومما ذكرناه يتضح السبب في أن الإمامة والولاية لا تكون إلا للأنبياء ولأوصيائهم، ثم لورثتهم، وأمناء الرسل من العلماء الذين هم أمناء الرسل، ممن يملكون من العدالة، والورع، والإلتزام بالحق، ما يحجزهم عن الحيف والتقصير، والإهمال، وتعمد الخطأ في

---

(1) الآية 128 من سورة التوبة.

المهمات التي توكل إليهم.. ولديهم من التقوى، والصلاح، والصفاء، والطهر والنقاء، ما يجعلهم يحبون من أحبه الله، ويبغضون من أبغضه الله، ولا همَّ لهم إلا نيل رضاه تبارك وتعالى..

وأسوتهم في ذلك الأنبياء والأوصياء، فهم يقيمون أنفسهم في محبتهم، واهتمامهم ورعايتهم للمؤمنين مقام الوالد، الذين يهتمون بحفظهم، وتعليمهم، وتربيتهم، وحل مشاكلهم، وتأمين كل ما يصلح شؤونهم، من موقع المحبة لهم والحرص عليهم، والحكمة في تدبير أمورهم، وفق أحكام الشرع والدين..

وهذا ما يريده الله تعالى من كل من يتولى قيادة، أو يولى ولاية على الناس.

ولذلك قال «عليه السلام»: «جعلكم من الوالي، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد. وبمنزلة الولد من الوالد إلخ..».

2 - ويتضح من ذلك أيضاً: أنه إذا كان يطلب من الولد أن يطيع أباه، وأن يتحرى مواقع رضاه، وأن يطيع أوامره، ويلتزم بنواهيه، وإن خالفت ميله وهواه.. فإن هذا بالذات هو ما يطلب من الرعية في تعاملها مع واليها، فإنهم بمنزلة أولاده، فعليهم أن يطيعوا أوامره، وينزجروا بزواجره، وأن يعينوه ويؤازروه، كما يعين الولد والده ويؤازره.

3 - إن جعل هذه المنزلة للوالي، إنما هو في صورة قبول الرعية ذلك، لا في صورة رفضها إياه، والإتجاه إلى غيره، والبيعة لذلك

الغير.

كما أن هذه الحقوق إنما تستمر لهم عليه إذا بادلوه ما يقوم به، بالقيام بما يجب عليهم تجاهه، فإن رفضوا ذلك، لم يجب عليه شيء تجاههم، لأنه سيكون غير قادر على ذلك. ولأجل ذلك، قال «عليه السلام»: «الذي لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة به، ما سمعتم وأطعتم، وقضيتم الذي عليكم».

حق الوالي على الرعية:

وقد أوضح «عليه السلام» في إعلانه المتقدم: أن على الوالي أن يراعي مع رعيته أمرين:

أحدهما: يرتبط بهم، وهو يراعي خصوصية التعديل بينهم، فلا يحابي أحداً منهم على حساب الآخر، ولا يأخذ من نصيب هذا ليعطيه ذاك.. لأن ذلك من الظلم المرفوض عقلاً وشرعاً ووجداناً.. ومن موجبات التحاسد، والتباغض بين الأبناء.

كما أنه يثير في نفوسهم الريب في حكمة وعدالة الوالي نفسه، ويدعوهم على معصيته، ويسقط ثقتهم بأي تصرف يصدر عنه.

الثاني: يعود إلى الحاكم نفسه، ويفرض عليه ضبط حركته، ولزوم حده. فيكف عن فيئهم، فلا يأخذ لنفسه، أو لأي شخص، أو فئة، أو جهة أخرى من ذلك الفيء شيئاً.

الوالي يعطي الحق أولاً:

وقد تضمن هذا الإعلان الكريم أيضاً حقيقة لا نعتقد أن أحداً سبقه إليها، أو لحقه بمثلها أبداً، فإن ما نعرفه في تاريخ الحكام والرعايا، والجند والقادة: أن الحاكم والقائد يفرض على رعيته، وعلى جنده، ما يريد، ويطالبهم بالقيام به، بل يكرههم عليه، وهيهات هيهات أن يفي لهم إلا بالقليل القليل مما يعدهم به..

بل إن أكثر الحكام والقادة لا يرون لرعاياهم، ولا لجندهم حقاً عليهم في شيء.. فضلاً عن أن يجيزوا لهم بأن يطالبوهم بشيء.

أما أمير المؤمنين «عليه السلام» فيعلن للجند: أن على الوالي والقائد أن يقوم بما يجب عليه أولاً ليجب على رعيته أن تؤدي له ما يجب عليها..

بل يتعدى ذلك ليقرر أنه ليس للوالي والقائد حق على الرعية والجند قبل أن يقوم القائد بما يجب عليه، لأن الحق على الرعية والجند يتولد من نفس قيام الوالي والقائد بما يجب عليه.

وبعبارة أوضح: إن الحق أولاً وبالذات ثابت على الوالي، فإن قام بما يجب عليه، فيتولد من ذلك حق له على الجند.. أما قبل ذلك، فلا يجب عليهم شيء، ولا يوجد حق من الأساس لكي يطالبهم به..

ولذلك قال «عليه السلام»: «فإذا فعل ذلك معكم، وجبت عليكم طاعته»..

ما يجب على الجند:

وقد ذكر «عليه السلام» في إعلانه هذا: أن الواجب على الجند تجاه واليهم ثلاثة أمور هي:

1 ـ طاعته بما وافق الحق. أي أن طاعته ليست مطلقة، بل هي مشروطة بأن يكون متعلق أمره ونهيه يوافق الحق.. والتعبير بكلمة يوافق ليشير إلى أنه لا يجب أن يكون محكوماً بحكم بعينه، بل يكفي عدم مخالفته له، ولو لم يكن محكوماً بأي حكم أصلاً.. كما لو كان مباحاً، فإن الإباحة تتوافق مع الوجوب والإستحباب أيضاً، وإن لم تكن محكومة بأي منها.

2 ـ نصرة الوالي على سيرته.. (والظاهر أن المراد من قوله: «على سيرته» هو نصرته فيما وافق الحق منها).

فينظر في سيرته، فإن كانت صالحة نصر عليها، وإلا فلا. فسيرته هي المعيار في النصر وعدمه.

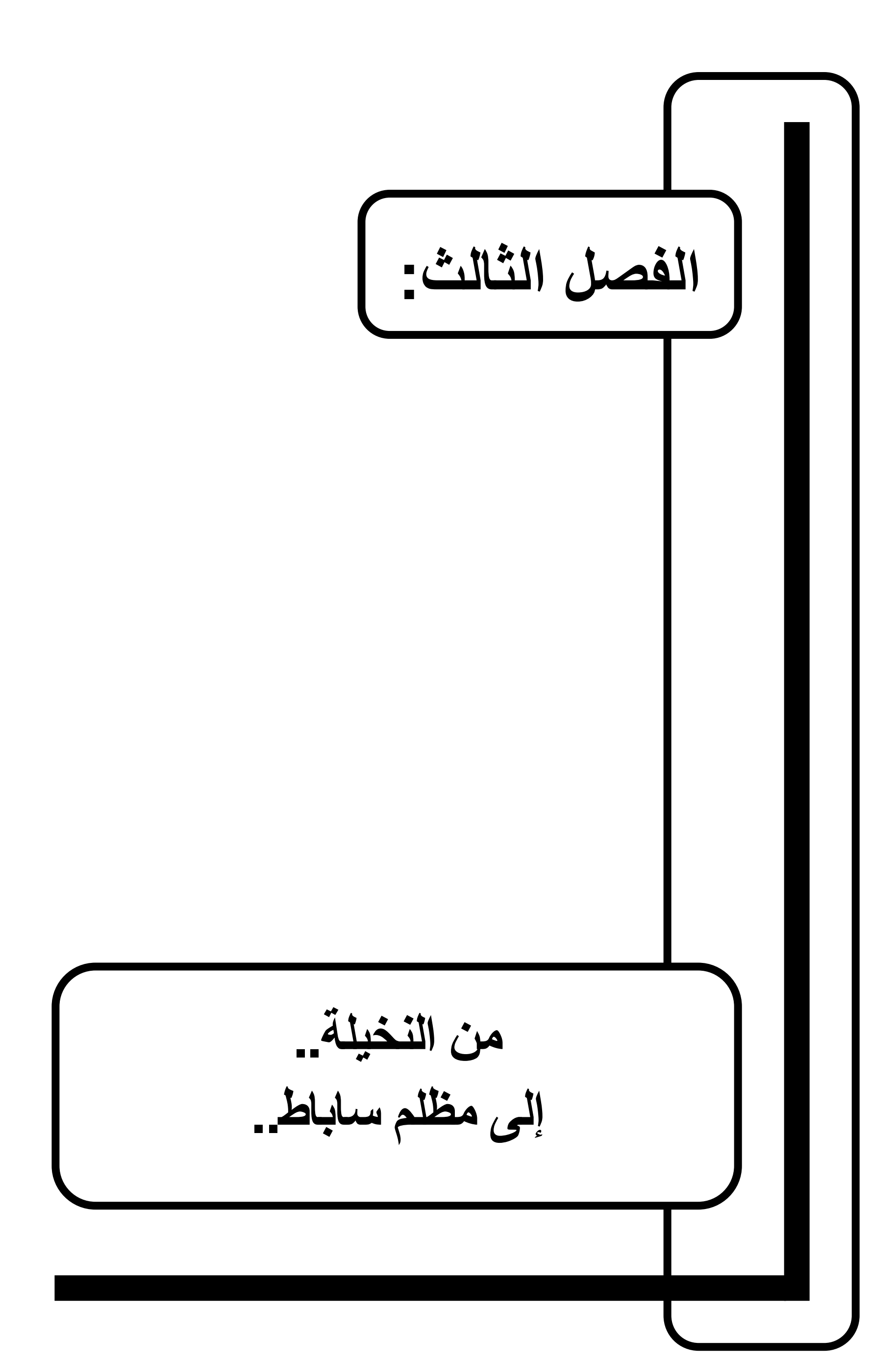
3 ـ الدفع عن سلطان الله.. لأن الحاكمية هي لله سبحانه. والدفاع ليس عن الوالي بما هو شخص، بل بما هو مجرٍ وحافظ لسلطان الله تعالى.

وبذلك يكون «عليه السلام» أيضاً أول إمام يخرج نفسه عن دائرة السلطة، ويعلِّم رعيته أن لا يطيعوه إلا فيما وافق الحق..

وأن ينصروه لا لأجل حفظ نفسه وشخصه، بل لأجل عدله

وحسن سيرته.

وأن يدفعوا عن سلطان الله، لا عن سلطانه..



الفصل الثالث:

من النخيلة..
إلى مظلم ساباط..

قبر هود.. وقبر يهودا:

قال المنقري:

ومرت جنازة على علي «عليه السلام» وهو بالنخيلة.

روى نصر، عن عمر بن سعد، حدثني سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، عن علي «عليه السلام» قال:

قال علي «عليه السلام»: ما يقول الناس في هذا القبر، وفي النخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله؟!

فقال الحسن بن علي «عليه السلام»: يقولون: هذا قبر هود النبي «صلى الله عليه وعلى نبينا وآله»، لما أن عصاه قومه جاء فمات ها هنا.

قال «عليه السلام»: كذبوا، لأنا أعلم به منهم، هذا قبر يهودا بن يعقوب، بن إسحاق، بن إبراهيم، بِكْر يعقوب.

ثم قال «عليه السلام»: هاهنا أحد من مهرة؟!

قال: فأتي بشيخ كبير.

فقال «عليه السلام»: أين منزلك؟!

قال: على شاطئ البحر.

قال «عليه السلام»: أين من الجبل الأحمر؟!

قال: [أنا] قريب منه.

قال «عليه السلام»: فما يقول قومك فيه؟!

قال: يقولون: قبر ساحر.

قال «عليه السلام»: كذبوا، ذاك قبر هود، وهذا قبر يهودا بن يعقوب بِكْره. (أي الابن البكر ليعقوب).

[ثم قال «عليه السلام»]: يحشر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غرة الشمس، يدخلون الجنة بغير حساب(1).

ونقول:

لأنا أعلم به منهم:

إنه «عليه السلام» لم يذكر لهم القبر الذي بالنخيلة، ولم يسألهم عنه.. إلا حين مرت بهم جنازة، ليكون مرور الجنازة مناسبة له لذكر قبر العظيم الذي كان في النخيلة.. حيث إن مرور الجنازة بالناس

---

(1) صفين للمنقري ص126 و 127 ومستدرك الوسائل ج10 ص224 و 225 وبحار الأنوار ج32 ص416 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص195 و 196.

يحضر أمامهم صورة الموت، والموتى بصورة فعلية، ومن دون أي تكلف.. فإذا جاء الحديث عن ذلك القبر الذي يدفن اليهود موتاهم حوله.. فإنه يكون أوقع في النفس، وأقرب إلى الوعي مما لو ابتدأهم «عليه السلام» بالحديث عنه بدون مناسبة.. فحضور الجنازة يربط في أذهانهم هذا الحديث بالقديم، والماضي بالحاضر، ويزيد من رهبة القديم..

وربما يشهد لذلك: أن النخيلة كانت موضع تجمع العساكر والإستعداد والإعداد للمسير إلى الشام.. وكان الناس وعلي «عليه السلام» معهم مدة، وربما أياماً، ولم يسأل عن ذلك القبر، ولا عن صاحبه..

2 ـ إنه «عليه السلام» لم يبدأ بإخبارهم عن القبر وعن صاحبه، بل بدأهم بالسؤال عما يقال عنه.

وهو سؤال يدعوهم إلى استجماع ما اختزنته أذهانهم عنه. ليتأملوا، ويتفحصوا مضامينه، ويميزوا بينها.. تمهيداً لتلقي ما يلقيه إليهم عنه، ليدركوا أن ثمة فرقاً بين ما عندهم، وبين ما يلقيه إليهم، ولو ألقاه إليهم ابتداء، لورد كلامه «عليه السلام» إلى أذهانهم مجرداً عن أية خصوصية، وهذا يؤدي إلى سهولة اختلاطه بغيره، ولا يبقى ما يميزه عنه إلا ارتباطه باسم قائله.

فإذا تقادم العهد، فقد ينسى هذا الارتباط، وتزول هذه الخصوصية أيضاً ـ وهذا كثيراً ما يحدث ـ فلا يبقى له ما يميزه عن غيره، ويصبح

صورة في جملة صور متناثرة..

فإذا عاد الإنسان إلى هذا المخزون الذهني مرة أخرى، فسيجد ركاماً من الصور، وسيرى: أن أكثرها متوافق مع ما يقوله الناس، فسيرى أن بينها صورة غريبة وهجينة، وليس ثمة ما يبرر الإحتفاظ بها، فيعتبرها غير صالحة، ويتخلى عنها بأيسر طريق.

3 ـ يبدو لنا: أن صاحب ذلك القبر، كان معظماً عند اليهود. لأنهم كانوا يدفنون موتاهم حوله.. وربما كان هذا الشائع بين الناس حول اسم صاحب القبر، وأنه هود «عليه السلام»، قد تسرب إليهم من جهة اليهود..

ولعل هدف اليهود هو تعظيم قبر ابن يعقوب «عليه السلام»، لأن يعقوب هو إسرائيل، فأبناؤه معظمون عندهم. وهذا هو السبب في أنهم كانوا يدفنون موتاهم عنده..

وإنما كانوا يدَّعون للمسلمين أنه قبر هود، لكي يعظمه المسلمون معهم. ويدَّعون أن قبر هود الحقيقي «عليه السلام» هو قبر ساحر، لكي ينفر منه المسلمون. وهذا من كيد اليهود وتزويرهم..

4 ـ كما أن علياً «عليه السلام» قد تعمد الجزم بكذب من قال بأن القبر هو لنبي الله هود.. ولو كان غير ذلك لقال «عليه السلام»: أخطأوا أو اشتبهوا، أو نحو ذلك، ولم يقل: كذبوا..

ولعله «عليه السلام» أراد توهين أمر اليهود، لأن العرب كانوا مبهورين بهم، ومستسلمين لهم، فأراد «عليه السلام» أن يظهر للناس

تزويرهم للحقائق، لكي ينكفئ الناس عنهم، ولا يغتروا بهم.

وهذا هو السبب أيضاً في تشدده وتأكيده «عليه السلام» على كذبهم في دعواهم: أن قبر يهودا بن يعقوب هو قبر ساحر، وكذبهم في دعواهم: أن قبر يهودا هو قبر هود «عليه السلام»..

5 - وقد أفهم «عليه السلام» الناس أنه يقول ما يقوله عن بصيرة ومعرفة، وعلم صحيح: بأن طلب أن يؤتى بأي رجل يصادفونه هناك من قبيلة مهرة. فجيء بشيخ كبير عن الجبل الأحمر، فقال المهري: أن منزله قريب منه..

فأفهمهم «عليه السلام» أنه عارف حتى بالمواقع وأسمائها.

ولولا أنه أراد أن يظهر لهم معرفته بصورة عملية وتطبيقية، لا تقبل التأويل لاكتفى بإخبارهم بأن قبر يهودا في الجبل الأحمر عند شاطئ البحر، ولم يطلب أن يأتوه برجل من مهرة..

ظهر الكوفة:

أما قوله «عليه السلام» يحشر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً، فهو من دلائل إمامته «عليه السلام»..

لأن ظهر الكوفة لم يكن مسكوناً في زمنه، بل كان فلاة من الأرض..

هكذا خرج علي × من النخيلة:

قال نصر بن مزاحم:

عمرو بن شمر، وعمر بن سعد، ومحمد بن عبد الله، قال عمر: حدثني رجل من الأنصار عن الحارث بن كعب الوالبي، عن عبد الرحمن بن عبيد بن أبي الكنود، قال: لما أراد على الشخوص من النخيلة قام في الناس لخمس مضين من شوال يوم الأربعاء [سنة سبع وثلاثين]، فقال:

[الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق].

الحمد لله غير مفقود النعم، ولا مكافأ الإفضال، وأشهد ألا إله إلا الله، ونحن على ذلكم من الشاهدين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله«صلى الله عليه وآله».

أما بعد ذلكم، فإني قد بعثت مقدماتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري، فقد أردت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمة منكم موطنين بأكناف دجلة، فأنهضهم معكم إلى أعداء الله، إن شاء الله [إلى عدوكم، واجعلهم من إمداد القوة لكم][1].

وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري، ولم آلكم ولا

---

(1) راجع: صفين للمنقري ص131 و 132 ونهج البلاغة (قسم الخطب) الخطبة رقم 48 وبحار الأنوار ج32 ص420 و 421 وراجع: مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج1 ص323 و 324 ونهج السعادة ج2 ص121 و123 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم.

نفسي [نصحاً]، فإياكم والتخلف والتربص، فإني قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي، وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم، عاجلاً إن شاء الله.

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لا يتخلف عنك إلا ظنين، ولا يتربص بك إلا منافق. فأمر مالك بن حبيب أن يضرب أعناق المتخلفين.

قال علي «عليه السلام»: قد أمرته بأمري، وليس مقصراً في أمري إن شاء الله.

وأراد قوم أن يتكلموا، فدعا بدابته، فجاءته، فلما أراد أن يركب وضع رجله في الركاب[1].

توضيحات:

الملطاط: السمت.

وقب: دخل.

خفق: انحط.

---

(1) صفين للمنقري ص132 وراجع: نهج البلاغة، شرح المختار من خطبه «عليه السلام» رقم 48 وراجع: المعيار والموازنة للإسكافي ص131 وبحار الأنوار ج32 ص421 و 422 ونهج السعادة ج2 ص123 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص201.

غسق: أظلم.

النطفة: الماء الصافي.

والمراد بالشرذمة: قوم من أهل المدائن روي أنهم كانوا ثمان مئة رجل.

الدعاء عند الركوب:

قال ابن أعثم:

ثم دعا علي «عليه السلام» بفرس رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجاؤا بالفرس، فلما أراد أن يضع رجله في الركاب، قال: بسم الله! فلما استوى على ظهر الفرس، قال «عليه السلام»: (**..سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون**)[1].

ثم قال «عليه السلام»: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في [النفس، و] المال والأهل والولد، اللهم! أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، [والحضر][2]. ولا يجمعهما غيرك، لأن المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً[3].

---

(1) الآيتان 13 و 14 من سورة الزخرف.

(2) الفتوح لابن أعثم ج2 ص460 و 461 وصفين للمنقري ص132.

(3) الفتوح لابن أعثم ج2 ص461 و (ط دار صادر) ج2 ص550 وراجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص96 المختار من كلامه «عليه السلام»

قال الرضي «رحمه الله»: وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وقد قفَّاه أمير المؤمنين «عليه السلام» بأبلغ كلام، وتممه بأحسن تمام، من قوله: «ولا يجمعهما غيرك»، إلى آخر الفصل[1].

قال ابن ميثم: روي أنه «عليه السلام» دعا بهذا الدعاء عند وضعه رجله في الركاب، متوجهاً إلى حرب معاوية.

والوعثاء: المشقة. والكآبة: الحزن[2].

ابتداء المسير:

ثم سافر وسار الناس معه، حتى إذا عبر جسر الكوفة نزل فصلى ركعتين في مسجد أبي سبرة[3].

رقم46 وبحار الأنوار ج32 ص391 وج73 ص242 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص165 وراجع: نهج السعادة (ط 1) ج2 ص124 و 125 وج6 ص299 و 300 ومستدرك الوسائل ج8 ص136 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج5 ص213 وصفين للمنقري ص132 و 133 وأعلام الدين في صفات المؤمنين ص396.

(1) بحار الأنوار ج32 ص391 وج73 ص242 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص165.

(2) بحار الأنوار ج32 ص391 و 392.

(3) الفتوح لابن أعثم ج2 ص460 و 461 و (ط دار صادر) ج2 ص551.

ثم خرج، وخرج أمامه الحر بن سهم بن طريف الربعي (ربيعة تميم) وهو يقول:

يا فرسي سيري وأمي الشاما وقطعي الحزون والأعلاما
نابذي من خالف الإماما إني لأرجو إن لقينا العاما
جمع بني أمية الطغاما أن نقتل العاصي والهماما
وأن نزيل من رجال هاما

قال: وقال مالك بن حبيب ـ وهو على شرطة على ـ وهو آخذ بعنان دابته «عليه السلام»: يا أمير المؤمنين، أتخرج بالمسلمين، فيصيبوا أجر الجهاد، والقتال، وتخلفني في حشر الرجال؟!

فقال له على «عليه السلام»: إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئاً، إلا كنت شريكهم فيه، وأنت ها هنا أعظم غناء منك عنهم، لو كنت معهم.

فقال: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين.

فخرج علي حتى إذا جاز حد الكوفة صلى ركعتين(1).

روى نصر، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عبد الرحمن بن يزيد، أن علياً «عليه السلام» صلى بين القنطرة والجسر ركعتين.

---

(1) صفين للمنقري ص133 ونهج السعادة ج2 ص125 و 126 وراجع: بحار الأنوار ج88 ص381 وج97 ص455 .

وروى نصر، عن عمرو بن خالد، عن أبي الحسين زيد بن علي، عن آبائه، عن علي «عليه السلام» قال: خرج علي «عليه السلام» وهو يريد صفين، حتى إذا قطع النهر، أمر مناديه، فنادى بالصلاة.

قال: فتقدم، فصلى ركعتين، حتى إذا قضى الصلاة، أقبل علينا. فقال «عليه السلام»:

يا أيها الناس، ألا من كان مشيعاً أو مقيماً، فليتم الصلاة، فإنا قوم على سفر، ومن صحبنا، فلا يصم المفروض. والصلاة [المفروضة] ركعتان(1).

[وعند ابن أعثم: أن هذه الصلاة، والنداء، قد كانا في دير أبي موسى](2).

في دير أبي موسى:

قال: ثم رجع إلى حديث عمر بن سعد، قال: ثم خرج حتى أتى دير أبي موسى، وهو من الكوفة على فرسخين، فصلى بها العصر، فلما انصرف من الصلاة، قال: سبحان ذي الطول والنعم، سبحان ذي

---

(1) صفين للمنقري ص134 ونهج السعادة ج2 ص127 وج6 ص305 و 306 ومستدرك الوسائل ج6 ص538 وج7 ص373 وبحار الأنوار ج32 ص417 و 418 وج86 ص68 و 69 وج93 ص326 ومستدرك سفينة البحار ج6 ص413 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص167.

(2) الفتوح لابن أعثم ج2 ص460 و 461 و (ط دار صادر) ج2 ص551.

القدرة والإفضال. أسأل الله الرضا بقضائه، والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره، فإنه سميع الدعاء(1).

قال المنقري:

ثم خرج حتى نزل على شاطئ نرس، بين موضع حمام أبي بردة، وحمام عمر، فصلى بالناس المغرب، فلما انصرف، قال: الحمد لله الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، [و] الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق.

ثم أقام حتى صلى الغداة(2).

ونقول:

هناك أمور عديدة تحتاج إلى بيان. نذكر هنا بعضها، فيما يلي من مطالب.

ولا يجمعهما غيرك:

ورد في دعاء أمير المؤمنين «عليه السلام» قوله: «أنت

---

(1) صفين للمنقري ص134 ومستدرك الوسائل ج5 ص121 وبحار الأنوار ج32 ص418 وج83 ص93 ونهج السعادة ج2 ص128 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص167.

(2) صفين للمنقري ص134 وبحار الأنوار ج32 ص418 ونهج السعادة ج2 ص128 وج6 ص307 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص167 و 168.

الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، ولا يجمعهما غيرك».

والمراد بكونه تعالى صاحباً في السفر: أنه مع المسافر، يرعاه، ويكلؤه بلطفه، ويعينه على حل المشكلات، ويحل له المعضلات..

وأما خلافته تعالى للمسافر في أهله الباقين في ديارهم، فلأنه خير حافظ لهم وأفضل راع ومدبر لشؤونهم.

وقد روي عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: «ما استخلف عبد على أهله بخلافة أفضل من ركعتين يركعهما إذا أراد سفراً، ويقول: اللهم إني استودعك نفسي وأهلي ومالي، وديني ودنياي وآخرتي، وأمانتي وخواتيم عملي، إلا أعطاه الله ما سأل»(1).

وأما قوله «عليه السلام»: «ولا يجمعهما غيرك»، فقد أوضحه «عليه السلام» بقوله، لأن المستخلف والباقي عند الأهل لا يمكن أن يكون في نفس الوقت واللحظة مع المسافر في سفره. لاستحالة كون جسم واحد في مكانين مختلفين متباعدين كذلك.

---

(1) المحاسن للبرقي ج2 ص349 والكافي ج3 ص480 وج4 ص283 ومن لا يحضره الفقيه ج2 ص271 وتهذيب الأحكام ج3 ص310 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج8 ص127 و 128 وج11 ص379 و 380 و (الإسلامية) ج5 ص255 وج8 ص275 وبحار الأنوار ج73 ص244 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج3 ص253 و 254 وج9 ص220.

أما الله سبحانه، فإن السموات والأرض وكل هذا الوجود عنده سواء. قال تعالى: **(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)[1]**.

متى وأين كان دعاء السفر؟!:

قال المنقري: «لما وضع علي «عليه السلام» رجله في ركاب دابته يوم خرج من الكوفة إلى صفين قال: بسم الله..

إلى أن قال: ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر الخ..»[2].

وقال في موضع آخر: عن عبد الرحمن بن جندب: «لما أقبل علي «عليه السلام» من صفين أقبلنا معه، فقال «عليه السلام»: آئبون عائدون، لربنا حامدون. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب..» [3].

ويمكن أن يكون «عليه السلام» قد دعا بهذا الدعاء في كلا الموردين.

يضاف إلى ذلك:\ إنه حين العودة من صفين اقتصر على هذه الكلمات، وحين خرج من الكوفة إلى صفين، قال الكلمات بنحو آخر كما تقدم.. فقد اختلف ما قاله في حال العودة عما قاله في حال

---

(1) الآية 4 من سورة الحديد.

(2) صفين للمنقري ص132.

(3) صفين للمنقري ص528.

الذهاب.. فراجع، وقارن.

الحمد لله كلما وقب ليل وغسق:

تقدم عن نهج البلاغة: أن علياً «عليه السلام» قال في خطبته وقت خروجه من النخيلة إلى صفين: «الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق».

ولكن مصادر أخرى تقول: إنه «عليه السلام» قد قال ذلك على شاطئ نرس، بين حمام أبي بردة، وحمام عمر بعد صلاة المغرب.. ثم أقام حتى صلى الغداة[1].

وهذا هو الأنسب والأقرب، لأن هذه العبائر تتحدث عن اللَّيْلِ إذا غسق وأظلم، وعن النجم إذا طلع وغرب، وهذا المضمون يناسب ما بين صلاة اللَّيْلِ إلى صلاة الصبح، ولا يناسب أن يقال حين مسير الجيش في وضح النهار، أي في البردين: الصباح والمساء، حيث لا غسق ولا ليل.. والسير إنما يكون في النهار دون اللَّيْلِ. كيف! وقد نهى معقل بن قيس السير بالجيش في اللَّيْلِ[2].

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص461 و 462 و (ط دار الأضواء) ج2 ص551 وبحار الأنوار ج32 ص418 وصفين للمنقري 134 و 135 ونهج السعادة ج2 ص128 وج6 ص307 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص167.

(2) صفين المنقري ص148 و 149 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)

القوات الخاصة: فرقة إستشهادية:

تقدم: أن مالك بن حبيب كان على شرطة علي «عليه السلام»، فاقتضى ذلك الإشارة إلى بعض التوضيح عن هذه الشرطة، فنقول:

لقد أنشأ أمير المؤمنين «عليه السلام» فرقة خاصة مؤلفة من ستة آلاف رجل[1]. أو خمسة آلاف رجل[2] سماها شرطة الخميس.

والشرط ـ بفتحتين ـ الجند. وقال الجزري: شرط السلطان: نخبة أصحابه. وهم أول طائفة من الجيش تشهد الوقعة[3]، وزاد

ج1 ص324 وج32 ص428 ونهج السعادة ج2 ص137 و 138.

(1) راجع: إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص4 و (ط مؤسسة آل البيت) ج1 ص25 وبحار الأنوار ج42 ص51 عنه، والإختصاص للمفيد ص2 وبحار الأنوار ج34 ص271 وج42 ص51 عن الكشي ص4 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص390 ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص372.

(2) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص4 و (ط مؤسسة آل البيت) ج1 ص25 وبحار الأنوار ج42 ص51 عنه، ومستدرك سفينة البحار ج5 ص390 ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص372.

(3) راجع: النهاية في غريب الحديث ج2 ص213 و (ط مؤسسة إسماعيليان) ج2 ص460 وبحار الأنوار ج33 ص632 وج42 ص151 وج65 ص44 .

الفيروزآبادي قوله: وتتهيأ للموت[1].

والخميس: الجيش. سمي بذلك لأن الجيش خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب.

وقد روى المفيد «رحمه الله» بسنده عن علي بن الحكم قال: أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» الذين قال لهم: تشرَّطوا، فأنا أشارطكم على الجنة، ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة، إن نبينا «صلى الله عليه وآله» فيما مضى قال لأصحابه: تشرطوا، فإني لست أشارطكم إلا على الجنة.

وهم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وأبو ساسان، وأبو عمرو الأنصاريان، وسهل البدري، وعثمان بن حنيف الأنصاري، وجابر بن عبد الله الأنصاري الخ..[2].

وسأل رجل الأصبغ بن نباتة: كيف سميتم شرطة الخميس يا أصبغ؟!

---

(1) القاموس المحيط ج2 ص368 وبحار الأنوار ج42 ص151 وج58 ص250 وتحفة الأحوذي ج10 ص236 ولسان العرب ج7 ص330 ومجمع البحرين ج2 ص499 وتاج العروس ج10 ص307.

(2) بحار الأنوار ج34 ص271 و 272 والإختصاص ص2 و 3 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص293.

فقال: إنا ضمنا له الذبح، وضمن لنا الفتح(1).

وروى الكشي عن الأصبغ بن نباتة: تشرَّطوا، تشرَّطوا، فوالله ما اشتراطكم لذهب ولا فضة، وما اشتراطكم إلا للموت. إن قوماً من قبلكم، من بني إسرائيل تشارطوا بينهم. فما مات أحد منهم إلا كان نبي قومه، أو نبي قريته، أو نبي نفسه. وإنكم بمنزلتهم، غير أنكم لستم بأنبياء(2).

وعن بشر بن عمرو الهمداني، قال: البثوا في هذه الشرطة، فوالله لا تلي بعدهم إلا شرطة النار، إلا من عمل بمثل أعمالهم(3).

وروي: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال لعبد الله بن يحيى الحضرمي يوم الجمل: فإنك وأبوك من شرطة الخميس حقاً. لقد

---

(1) الإختصاص ص65 وبحار الأنوار ج42 ص180 و 181 عنه، ومستدرك سفينة البحار ج5 ص390 و 391 ونهج السعادة ج7 ص463 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص44 ومجمع البحرين ج2 ص499.

(2) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص3 و 4 و (ط مؤسسة آل البيت سنة 1404 هـ) ج1 ص19 و 20 وبحار الأنوار ج42 ص150 و 151 عنه، وخاتمة المستدرك ج3 ص296 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص293 و 294.

(3) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص4 و (ط مؤسسة آل البيت سنة 1404 هـ) ج1 ص23 وبحار الأنوار ج42 ص151 عنه، ومستدرك سفينة البحار ج5 ص390.

أخبرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» باسمك، واسم أبيك في شرطة الخميس. والله سماكم «شرطة الخميس» على لسان نبيه «صلى الله عليه وآله»[1].

وفي نص الاختصاص: سماكم الله به في السماء[2].

ويستفاد من هذه الروايات أمور كثيرة، مثل:

1 - أن شرطة الخميس فرقة استشهادية قوامها التعهد بالإقدام على الموت على أن لهم الجنة.. ولم يشترطوا لأنفسهم ذهباً ولا فضة.

2 - إنهم نخبة مختارة.

3 - هم أول فرقة تباشر الحرب من الجيش.

4 - يفهم من بعض ما تقدم: أن بعض الأنبياء هم أنبياء لأنفسهم.

5 - إن بعض الناس يكونون بمنزلة الأنبياء، وإن لم يكونوا منهم. فلا يصح قول من قال: إن الأنبياء أفضل من غير الأنبياء مطلقاً[3].

---

(1) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص4 و (ط مؤسسة آل البيت سنة 1404 هـ) ج1 ص24 وبحار الأنوار ج42 ص151 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص390 وخلاصة الأقوال ص191 و 192 وسماء المقال للكلباسي ج2 ص246 و 247 وقاموس الرجال للتستري ج11 ص44 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص294 ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص372.

(2) الإختصاص ص7 وبحار الأنوار ج34 ص274.

(3) كشف الغمة ج2 ص100 عن صاحب كتاب الفردوس، واللمعة البيضاء

ص96 وبيت الأحزان ص24 وحياة أمير المؤمنين لمحمديان ج1 ص107 وتفسير القمي ج2 ص338 وحياة الإمام الحسن للقرشي ج1 ص15 و 321 وتلخيص الشافي ج2 ص277 والأنوار القدسية ص36 ووسائل الشيعة ج20 ص74 وج14 ص49 ودلائل الإمامة للطبري ص80 وعلل الشرائع ج2 ص178 وأمالي الصدوق ص474 ونوادر المعجزات ج6 ص84 وتفضيل أمير المؤمنين «عليه السلام» للشيخ المفيد ص32 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص290 والفصول المهمة للحر العاملي ج1 ص408 وج3 ص411 وبحار الأنوار ج8 ص6 وج43 ص10 و 107 وإعلام الورى ج1 ص29 وتسلية المجالس وزينة المجالس ج1 ص547 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص126 و 288 والإمام علي للهمداني ص126 و 334 ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج1 ص241 وتهذيب الأحكام ج7 ص470 ح90 وص475 ح116 ومن لا يحضره الفقيه ج3 ص393 والكافي ج1 ص461 وعيون أخبار الرضا ج2 ص203 و (ط أخرى) ج1 ص225 والخصال ص414 والمختصر ص133 و 136 وبشارة المصطفى ص328 وإحقاق الحق (الملحقات) ج7 ص1 - 2 وج17 ص35 ج19 ص117 عن المصادر التالية:

مودة القربى للهمداني (ط لاهور) ص18 و57، وأهل البيت لتوفيق أبي علم ص139 ومقتل الحسين للخوارزمي (ط الغري) ص95 و (ط أخرى) ج1 ص66 والفردوس ج3 ص373 و 513 والمناقب المرتضوية لمحمد صالح الترمذي، وكنوز الحقائق للمناوي (ط بولاق ـ مصر) ص133، وينابيع المودة ج2 ص80 و 244 و

6 - إن هذه الفرقة (الشرطة) قد كانت في الأمم السالفة، ثم كانت في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أيضاً.

7 - وردت أحاديث تنهى عن الدخول في شرطة الظالمين، فمن فعل ذلك كان من أهل النار، إلا أن يعمل مثل أعمال الشرطة الذين أصبحوا أنبياء أو بمنزلتهم، وهم شرطة النبي «صلى الله عليه وآله»، وشرطة علي «عليه السلام».

8 - للشرطة مقام عظيم عند الله، بحيث إن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أخبر بأسماء شرطة أمير المؤمنين «عليه السلام».

9 - إن التسمية بالشرطة ليست من الناس، وإنما هي من الله تبارك وتعالى.

10 - إن الانخراط في الشرطة الآلهية من موجبات نيل المقامات الشريفة.

11 - ظهر مما تقدم: أن علياً «عليه السلام» قد أنشأ شرطة الخميس قبل حرب الجمل.

وسيأتي أن لشرطة الخميس دوراً هاماً في حرب صفين، وأنه «عليه السلام» كان يستدعيهم في أشد المواقع حساسية وخطورة، ليكونوا هم الذين يقهرون العدو، ويكسرون عنفوانه..

.286

12 ـ إن الأسماء التي ذكرت الروايات أنها كانت في عداد شرطة الخميس، وتقدم بعضها تدل على أن الذين كانوا ينخرطون في هذه الفرقة هم أعبد الناس، وأزهد الناس، وأعلمهم، واتقاهم، وأشجعهم، وأعقلهم، وأقربهم من النبي والإمام، وأعزهم عليه، وأكرمهم لديه..

نعمة اللَّيْلِ ونجومه:

لقد بدأ أمير المؤمنين «عليه السلام» بحمد الله كلما وقب ليل وغسق، وعلى النجم كلما طلع وخفق..

1 ـ إن من الأمور التي يحمد الله تعالى عليها وجود اللَّيْلِ الغاسق. أي المظلم، ووجود النجوم، وطلوعها وغيابها..

وحيث إن ذلك من الأمور التي يغفل عامة الناس عنها، وعن بركاتها، وآثارها عليهم وعلى الموجودات الأخرى كان لا بد لأمير المؤمنين «عليه السلام» من أن يذكّرهم بها، بهذا الحمد وتعريفهم بأن للَّيْلِ ونجومه، وطلوعها وغروبها أهمية كبيرة في حياتهم، لا ينبغي الغفلة عنها.

2 ـ لعل سبب اختيار الحمد على هذه النعمة، هو أن الحمد ثناء، على من يستحق الثناء في نفسه، أو لأجل يد أسداها اختياراً، فحمد الله تعالى لأنه فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة. ويُحمَدُ تعالى لأن له ما في السماوات والأرض، ولأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك.

وكل ذلك قد ورد في الآيات، ويُحمَدُ تعالى أيضاً على نعمه وفيوضاته، وأياديه وتفضلاته المتلاحقة والغامرة التي تتجلى في كل حياتنا، وفي علاقتنا بكل ما يحيط بنا من مخلوقات، وما يكون من تصرفات، وفي جميع الحالات، ولأجل ذلك حمد «عليه السلام» الله كلما وقب ليل وغسق.

ولنفس هذه الأسباب لا بد أن يتوالى هذا الحمد أيضاً كلما لاح نجم وخفق أيضاً.

ومن المفردات التي تقابل بها النعم الشكر الذي يقال: إنه معروف يقابل النعمة، سواء أكان باللسان، أو بالبدن أو بالقلب. وقيل: هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

والشكر لا يكون إلا ثناء ليد..

وأما الحمد، فقد تقدم: أنه يكون شكراً على يدٍ أسديت إلى الشاكر، وقد يكون ابتداءً للثناء، لأنه مستحق لذلك في نفسه.

3 - قال تعالى في بيان أهمية اللَّيْلِ بالنسبة للبشر: **(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1].

فلاحظ أولاً: أنه حين ذكر الله تعالى سرمدية اللَّيْلِ قال في آخر الآية: **(أَفَلَا تَسْمَعُونَ)**، ليشير إلى أن الإعتماد يكون في الظلام على حاسة السمع أكثر من أي حاسة أخرى..

وحين ذكر سرمدية النهار إلى يوم القيامة ذكر حاسة البصر التي هي أكثر الحواس نشاطاً في النهار بسبب وجود الضياء..

مع أن المراد في الموردين هو سمع وبصر التفكر والتأمل، لا سمع وبصر الحواس، ولكن ذلك لا يمنع من أن يُضمِّن تعالى كلامه إشارات ولطائف تغني فكر الإنسان، وتفتح عقله على مثل هذه المعاني..

ويلاحظ ثانية: أنه تعالى ذكر في الآية الثالثة والأخيرة: أن اللَّيْلِ والنهار هما من مقتضيات رحمته تعالى بعباده.

4 ـ قال العلامة المجلسي «رحمه الله» نقلاً عن العلل، لمحمد بن علي بن إبراهيم: قال: علة فضل اللَّيْلِ على النهار: أن باللَّيْلِ يكون البيات، ويرفع العذاب، وتقل المعاصي، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر[2].

وقد ذكرت فوائد أخرى للَّيْلِ والنهار، قال تعالى: **(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ**

---

(1) الآيات 71 ـ 73 من سورة القصص.

(2) بحار الأنوار ج56 ص3.

وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا)[1].

وقال تعالى: **(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)**[2].

وقال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)**[3].

وقد فُصِّلت هذه الفوائد في رواية المفضل عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وهي التالية:

نصوص من توحيد المفضل:

قال الصادق «عليه السلام»: فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروُحَه.. والأرب في طلوعها ظاهر مستغنى بظهوره عن الإطناب في ذكره، والزيادة في شرحه..

بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء

(1) الآية 12 من سورة الإسراء.

(2) الآية 33 من سورة إبراهيم.

(3) الآية 47 من سورة الفرقان.

ولا قرار، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة لسكون أبدانهم، وجموم حواسهم، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل، ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم، لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والإدخار.

ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس بضيائها، ويحمي كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتا وتغرب وقتا، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا.

فصار النور والظلمة، مع تضادهما منقادين متظاهرين ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من التدبير والمصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيهما مواد الثمار، ويتكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى.

وفي الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع

النبات، وتنور[1] الأشجار، ويهيج الحيوان للسفاد.

وفي الصيف يحتدم الهواء، فتنضج الثمار، وتتحلل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض، فتهيأ للبناء والأعمال.

وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصح الأبدان، ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه، إلى مصالح أخرى لو تقصيت لذكرها لطال فيها الكلام.

فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة، وما في ذلك من التدبير. فهو الدور الذي تصح الأزمنة الأربعة من السنة: «الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف» تستوفيها على التمام.

وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي إلى غاياتهم، ثم تعود فيستأنف النشو والنمو.. ألا ترى أن السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل.

فبالسنة وأخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم، إلى كل وقت وعصر من غابر الأيام، وبها يحسب الأعمار والأوقات المؤقتة للديون والإجارات والمعاملات، وغير ذلك من أمورهم.

وبمسير الشمس تكمل السنة، ويقوم حساب الزمان على الصحة.

أنظر إلى شروقها العالم كيف دُبِّر أن يكون؟! فإنها لو كانت تبزغ

---

(1) النور: الزهر. ونورت الشجرة: أزهرت.

في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق ما استتر عنها في أول النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها، والأرب التي قدرت له.

ولو تخلفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟! بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟!

أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة لم يكن عندهم فيها حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟!

استدل بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة، لأن دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة، ونشو الثمار وتصرمها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل، فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف.

فكر في إنارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك، فإنه مع الحاجة للظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، لأنه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل، لضيق الوقت عليهم في

بعض الأعمال في النهار، ولشدة الحر وإفراطه، فيعمل في ضوء القمر أعمالا شتى، كحرث الأرض، وضرب اللبن، وقطع الخشب، وما أشبه ذلك، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأنسا للسائرين وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها، لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار، فيهلكهم ذلك(1).

وفي توحيد المفضل أيضاً، عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك.

أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات؟!

أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك سيهلكها أجمع، ويؤديها إلى التلف.

وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى

---

(1) التوحيد للمفضل ص79 - 82 وبحار الأنوار ج3 ص112 - 114 وج55 ص175 - 177.

يجف ويحترق، وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد، كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس.

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران العالم، ويتصرفان هذا التصرف من الزيادة والنقصان والإعتدال لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما فيهما من المصالح.

ثم هما بعد دباغ الأبدان التي عليها بقاؤها وفيها صلاحها، فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت وأخوت وانتكثت.

فكر في دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل، فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أن أحدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة لضره ذلك وأسقم بدنه.

فلم جعل الله عز وجل هذا الرسل في الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة؟! ولم جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضر المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟!.

إلى أن قال: ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا، ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت، وما يرد الأرض للبذر..

أفلا ترى ما في الحر والبرد، من عظيم الغناء والمنفعة، وكلاهما

مع غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها. وفي ذلك عبرة لمن فكر، ودلالة على أنه من تدبير الحكيم، في مصلحة العالم وما فيه(1).

ومن الصحيفة السجادية:

وجاء في الصحيفة السجادية قول الإمام علي بن الحسين «عليهما السلام»:

فخلق لهم الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب، و نهضات النصب، وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه، فيكون ذلك لهم جماماً وقوة، ولينالوا به لذة وشهوة، وخلق لهم النهار مبصراً ليبتغوا فيه من فضله، وليتسببوا إلى رزقه، ويسرحوا في أرضه، طلباً لما فيه نيل العاجل من دنياهم، ودرك الآجل في أخراهم.

بكل ذلك يصلح شأنهم، ويبلو أخبارهم، وينظر كيف هم في أوقات طاعته، ومنازل فروضه، ومواقع أحكامه، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

اللهم فلك الحمد على ما فلقت لنا من الاصباح، ومتعتنا [به] من ضوء النهار، وبصَّرتنا [به] من مطالب الأقوات، ووقيتنا [فيه] من طوارق الآفات.. إلى آخر الدعاء(2).

---

(1) التوحيد للمفضل ص86 - 88 وبحار الأنوار ج3 ص118 - 119 وج55 ص174 و 175.

(2) الصحيفة السجادية (أبطحي) ص55 و (ط جماعة المدرسين 1404هـ)

النجوم مسخرات:

وقد ذكرت الآيات القرآنية النجوم وبعض أحوالها في العديد من الآيات..

قال تعالى: **(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ)[1]**.

وقال تعالى: **(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)[2]**.

وقال: **(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)[3]**.

وقال سبحانه: **(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)[4]**.

وروي أن الإمام الصادق «عليه السلام» قال للمفضل:

فكر يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج، وتفترق في مسيرها. فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين:

أحدهما: عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق، كالنملة التي تدور على الرحى، فالرحى تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال والنملة في تلك تتحرك حركتين مختلفتين:

ص47 والمصباح للكفعمي ص70 وبحار الأنوار ج55 ص199 - 200.

(1) الآية 12 من سورة النحل.

(2) الآية 1 من سورة النجم.

(3) الآية 16 من سورة النحل.

(4) الآية 6 من سورة الرحمن.

إحديهما بنفسها فتتوجه أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرحى تجذبها إلى خلفها.

فاسئل الزاعمين أن النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال من غير عمد، ولا صانع لها، ما منعها أن تكون كلها راتبة؟! أوتكون كلها منتقلة؟! فإن الإهمال معنى واحد، فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن وتقدير؟!

ففي هذا بيان أن مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير، وحكمة وتقدير، وليس بإهمال كما تزعم المعطلة.

فإن قال قائل: ولم صار بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلاً؟!

قلنا: إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي يستدل بها من تنقل المنتقلة ومسيرها في كل برج من البروج، كما قد يستدل على أشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس والنجوم في منازلها.

ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يوقف عليه، لأنه إنما يوقف بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبة، كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها.

ولو كان تنقلها بحال واحدة لاختلط نظامها وبطلت المآرب فيها، ولساغ لقائل أن يقول: إن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال من الجهة التي وصفنا، ففي اختلاف سيرها وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة أبين دليل على العمد والتدبير فيها.

فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب بعضها، كمثل الثريا والجوزاء والشعريين وسهيل، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور والجوزاء إذا طلعت، واحتجابها إذا احتجبت.

فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير وقت الآخر، لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته، وما جعلت الثريا وأشباهها تظهر حينا وتحتجب حينا إلا لضرب من المصلحة، وكذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة، وكذلك أنها لا تغيب ولا تتوارى، فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا، وصار الأمران جميعاً على اختلافهما موجهين نحو الأرب والمصلحة.

وفيهما مآرب أخرى علامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال، كالزراعة والغراس والسفر في البر والبحر، وأشياء مما يحدث في الأزمنة، من الأمطار والرياح والحر والبرد، وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل، لقطع القفار الموحشة، واللجج الهائلة، مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر، فإنها تسير أسرع السير وأحثه.

أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا، حتى يتبين

لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه، ألم تكن ستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحيانا من البروق إذا توالت واضطرمت في الجو؟! وكذلك أيضاً لو أن أناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دورانا حثيثا لحارت أبصارهم حتى يخروا لوجوههم.

فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد، لكيلا تضر في الأبصار، وتنكأ فيها، وبأسرع السرعة. لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها، وجعل فيها جزءاً يسيراً من الضوء، ليسد مسد الأضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة، كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافي في جوف الليل، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه.

فتأمل اللطف والحكمة في هذا التقدير، حين جعل للظلمة دولة ومدة لحاجة إليها، وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا(1).

قتل المتخلف عن الجهاد:

لقد طلب معقل بن قيس الرياحي من علي «عليه السلام» أن يأمر بقتل من يتخلف عنه في مسيره إلى صفين لحرب معاوية.. وقد استند

---

(1) التوحيد للمفضل ص82 - 85 وبحار الأنوار ج3 ص114 - 116 وج55 ص98 - 100.

في طلبه هذا إلى أن المتخلف عنه «عليه السلام» ظنين، أي موضع تهمة. وأنه يتربص به أن يحل به شر.

ونحن إذا رجعنا إلى النصوص، فإننا نجد: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يقتل على مجرد التهمة كما أنه لم يقتل المنافقين..

كما أنه «صلى الله عليه وآله» لم يجبر أحداً على الخروج للحرب، وكان يكتفي بالحث والوعظ، والعتاب واللوم على التقاعس عن الخروج للحرب..

يضاف إلى ذلك: أن علياً «عليه السلام» لم يفعل أكثر مما كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يفعله.

ولكن ما يلفت النظر: أننا نجد أن علياً «عليه السلام» لم ينكر على معقل ما طلبه منه.

ولم يصرح برفضه هذا الطلب منه، ولم يوجه لعامله مالك بن حبيب أي أمر جديد. كما أنه لم يصرح لهم بالأمر الذي أصدره إليه..

بل اكتفى بالإحالة على أمره السابق الذي بقي مبهماً وغائماً، فقال: «قد أمرته بأمري، وليس مقصراً في أمري إن شاء الله..».

والسبب في ذلك هو ـ فيما يبدو ـ: أنه لا مجال لإجبار أحد على المشاركة في الحرب كما أوضحناه أكثر من مرة.. بل المطلوب هو مشاركتهم فيها بصورة طوعية. لكي يتحقق معنى الجهاد والطاعة، والبذل في سبيل الله، لكي يكونوا شهداء لا مجرد قتلى. ولعله أيضاً وجد أنهم مصداق قوله تعالى: **(وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ**

اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)(1).

ولكن التصريح بهذا الأمر، في مثل هذا الوقت الحساس، قد يدعو الكثيرين إلى التراخي في اتخاذ قرار النفر معه، أو إلى العدول والتراجع عن قرار المشاركة..

واللافت هنا: أنه «عليه السلام» لم يفسح المجال للذين أرادوا أن يتكلموا، بل قطع كلامهم، فدعا بدابته ليركبها، وشرع في المسير، ربما لأنه خشي أن يخوض المتكلمون في هذا الأمر، ولو بأن يصروا على عقوبة المتخلفين، أو على معرفة طبيعة الأمر الذي أصدره لواليه مالك بن حبيب. ولم يكن «عليه السلام» يريد أن يقول أكثر مما قال.

فرس رسول الله ’:

وكان علي والأئمة «عليهم السلام» إذا رأوا أن ثمة حاجة إلى مخاطبة وجدان الناس، والتذكير بإمامتهم يظهرون بعض ما يعرف الناس أنه لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، فيركب «عليه السلام» بغلة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو يلبس عمامته، أو يتختم بخاتمه، أو يحمل رايته وغير ذلك..

---

(1) الآيتان 46 و 47 من سورة التوبة.

وهذا ما حصل في هذا المقام بالفعل، فإنه «عليه السلام» كان يحتاج هنا إلى مخاطبة وجدان الناس وضميرهم، فركوبه بغلة الرسول، ليعرفهم شدة ارتباطه به، ويذكرهم بأنه وريثه ووصيه وخليفته بحق، ويريدهم للدفاع عن دين محمد، وعن نهجه، وأن يكونوا مع وصيه..

دعاء السفر:

في دعاء السفر الذي قرأه «عليه السلام»، أمور كثيرة..

منها: أنه يتضمن إبعاداً عملياً للإنسان عن حالة الركون إلى ما يظن أنه يملكه من قدرات مادية، ومن جاه وسلطان، وجيوش، لأن استعانته بالله تبارك وتعالى تعني اللجوء إليه، ليكون هو الذي يدفع المكاره، فدل بذلك على أنه لا يرى أن سلطانه وجيوشه، وكل ما هو تحت يده من جاه ومال وسواه قادر على ذلك..

ومنها: أن هذا الدعاء قد تضمن طلب جميع الخيرات، بما في ذلك النصر على الأعداء من الله تبارك وتعالى، لأن المهزوم إنما ينقلب على حال من الكآبة، وهي من سوء المنظر أيضاً.

ومنها: أنه دعاء بتقليل الخسائر البشرية والمادية، لأن من يصاب بنفسه، أو بأهله، أو بولده يكون منقلبه كئيباً، كما أن للحرب خسائرها المادية التي توجب كآبة المنقلب..

ومنها: أن الحرب تشغل الإنسان بنفسه، وتفرض عليه التفكير

بما هو حاضر أمامه وعنده، وتصرفه عن استحضار صور ما غاب عنه.

كما أن الحرب تجعل الإنسان يفكر في قدراته، وفي كيفية التصرف فيها بنحو يجعلها قادرة على درء الأخطار عنه.. وهذا يعطيها حضوراً أكبر أيضاً لديه، ويزيد من أهميتها عنده، ويزيد من الحرص عليها، لأنه يتوهم أنها تحمل في داخلها سر النجاح والنصر..

ولكن علياً «عليه السلام» يريد بدعائه هذا: أن يلقن نفسه، ومن معه أن عليه أن يكون دائم الحضور بين يدي الله، وأنه معه في حله وترحاله، وفي سفره وفي حضره..

ومنها: أن المحارب يحمل بالدرجة الأولى همّ حفظ نفسه، وهمّ ما يجري على أهله، في غيبته، وما قد يعرض لهم من أخطار، أو ما يواجهونه بعده من مصاعب لو أصابه شيء..

وهذا الدعاء يطمئنه إلى أن الله إذا كان معه في سفره، فذلك لا يعني أنه تعالى غائب عن أهله الذين خلفهم في الحضر.. بل هو حاضر معهم أيضاً، لا حضور السامع والناظر وحسب، وإنما حضور الخليفة، والحافظ، والراعي، والمدبر.

ومنها: أن هاتين الصفتين، وهما: أن يكون مع المسافر في سفره، ومع الحاضر في حضره لا يجمعهما إلا الله تبارك وتعالى، وهذا دليل على أنه تعالى هو دون سواه الذي يستعاذ به، ويعيذ من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب..

حاجة المقاتل إلى مواصلة الدعاء والصلاة:

والمقاتل في مثل هذه الحرب المصيرية، التي تهدف إلى تقويض سلطان الحق والدين، بأمس الحاجة إلى الصلة بالله، وإلى استمرار هذه الصلة، وإلى تعميقها..

ولا يكون ذلك بإصدار الأوامر، واتخاذ القرارات، بل يكون من منطلق القناعة الفكرية، والشعور بالحاجة إلى هذه الصلة، والإندفاع الطوعي نحوها..

ومن وسائل إشعار الناس بحاجتهم هذه، وبأن الله وحده هو الملاذ: أن يكون الإمام هو الذي يبادر إلى ذلك، ويجسده للناس عملياً. وأن يدركوا أنه إنما يفعل ذلك من منطلق الوعي الصحيح وصدق الشعور، لا على سبيل التظاهر بما لا واقع له، والإكتفاء بالممارسة الشكلية التي لا تختزن أية قناعة، أو شعور حقيقي..

مفردات وشواهد:

ولم يقتصر الأمر على هذا الدعاء في بداية السفر، بل تواصلت أدعية أمير المؤمنين «عليه السلام» في المحطات المختلفة، وصلواته في العديد من المنازل.

وأما بالنسبة للصلاة نلاحظ ما يلي:

1 ـ تقدم: أنه لما عبر جسر الكوفة نزل وصلى ركعتين.

2 ـ لما جاز حد الكوفة صلى ركعتين.

3 ـ صلى بين القنطرة والجسر ركعتين.

4 ـ لما قطع النهر صلى ركعتين.

5 ـ في دير أبي موسى صلى ركعتين.

6 ـ وصلى في كربلاء ما شاء أن يصلي.

7 ـ ثم صلى فيها مرة أخرى ثمان ركعات.

8 ـ وأخيراً، فإنه قد بني في طريقه مسجداً في موضع يقال له «الأقطار» بعد هيت.

وأما بالنسبة لدعائه «عليه السلام»، فقد تقدم:

1 ـ أنه دعا حين أراد المسير بدعاء السفر.

2 ـ ودعا حين صلى صلاة العصر على بعد فرسخين من الكوفة.

3 ـ وحين صلى المغرب بين حمام أبي بردة، وحمام عمر دعا بدعاء آخر.

4 ـ وحين صلى الظهر، دعا بدعاء.

5 ـ وفي حمام عمر صلى العصر، ودعا بدعاء.

6 ـ وفي حمام عمر صلى المغرب، ودعا بدعاء.

7 ـ وحين صلى العشاء الآخرة في حمام عمر، دعا بدعاء.

حشر الرجال أعظم من القتال:

وتقدم قول مالك بن حبيب لعلي «عليه السلام»: أتخرج

بالمسلمين، فيصيبوا أجر الجهاد، وتخلفني في حشر الرجال إلخ..؟!

وتقدم جواب أمير المؤمنين «عليه السلام» له.

ونقول:

1 ـ لقد ظن مالك بن حبيب أن ميزان الفضل والتقدم في الجهاد هو ـ فقط ـ ضرب السيوف، ومواجهة الحتوف، ولعل الحديث القائل: أفضل الأعمال أحمزها، قد زاد من قناعته بهذا الأمر.. فاعتبر نفسه مغبوناً حين أمره «عليه السلام» أن يتخلف عنه، ليجمع الرجال، ويسيِّرهم إليه، بانتظام.

2 ـ ولكن علياً «عليه السلام» بيَّن له: أنه لم يكن موفقاً في هذا الإستنتاج. لأن مشاركته في القتال بالسيف في ساحة المعركة، لا تعدو كونها بذل جهد من شخص واحد، قد يقتل بعض أفراد العدو، أو يجرحهم، أو يدفعهم، وقد يكون هو الشهيد، أو الجريح، الذي تخرجه جراحته عن دائرة التأثير الإيجابي في الحرب، إن لم تجعل منه عبئاً على المقاتلين.

أما إذا تولى مهمة حشر الرجال، وإمداد المعركة بهم، فإن من يمد المقاتلين بهم، سيكونون أعظم غناءً منه، لكثرة عددهم، وتواصل مددهم. الأمر الذي يعطي للمحاربين: المزيد من القوة، والطمأنينة، والرغبة، والإندفاع، وسيزداد العدو خوفاً، وكمداً، ورهبة، وخذلاناً..

وهذا ما ألمح إليه قوله «عليه السلام»: «وأنت ها هنا أعظم غناءً منك عنهم، لو كنت معهم». وهذا هو المعيار في الفضل والأجر.

3 ـ إنه سيكون شريكاً في ثواب كل جهد وجهاد مرضي لله تعالى، يقوم به الذين هيأهم للحرب، وأرسلهم إليها.

الطاعة لله عطاء من الله:

لقد تضمن الدعاء الذي دعا به أمير المؤمنين «عليه السلام» بعد صلاته ركعتين ـ بعد أن قطع جسر الكوفة ـ أموراً مهمة، نقتصر هنا على الإشارة إلى واحدة منها، هي قوله «عليه السلام»: «اسأل الله الرضا بقضائه، والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره».

فإن المرتكز في الأذهان: أن الإنسان هو الذي يختار الطاعة، ويختار المعصية. كما أن الرضا بالقضاء فعل نفساني ينتج عن اختيار الإنسان نفسه لهذا الرضا..

وهكذا يقال بالنسبة للإنابة، والرجوع إلى الله، فإن الذي يختار المعصية، هو الذي يختار الإنابة..

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» يعلمنا هنا: أن ذلك كله، إنما يحصل عليه الإنسان بعطاء من الله تعالى. ولا يكفي أن يتكل الإنسان على نفسه فيه..

والسبب في ذلك: أن الله سبحانه هو الذي يحبب الإنسان بأعمال الخير، ويزينها له. ولو وكله إلى نفسه، لقادته تلك النفس إلى المزالق، والمهالك. لأنها تأخذ بيده إلى الشهوات، وتستأسر للغرائز، ولا تحب أن تتقيد بقيود، وأن تحد حركتها بحدود، وتحول بينها وبين ما تشتهيه

السدود..

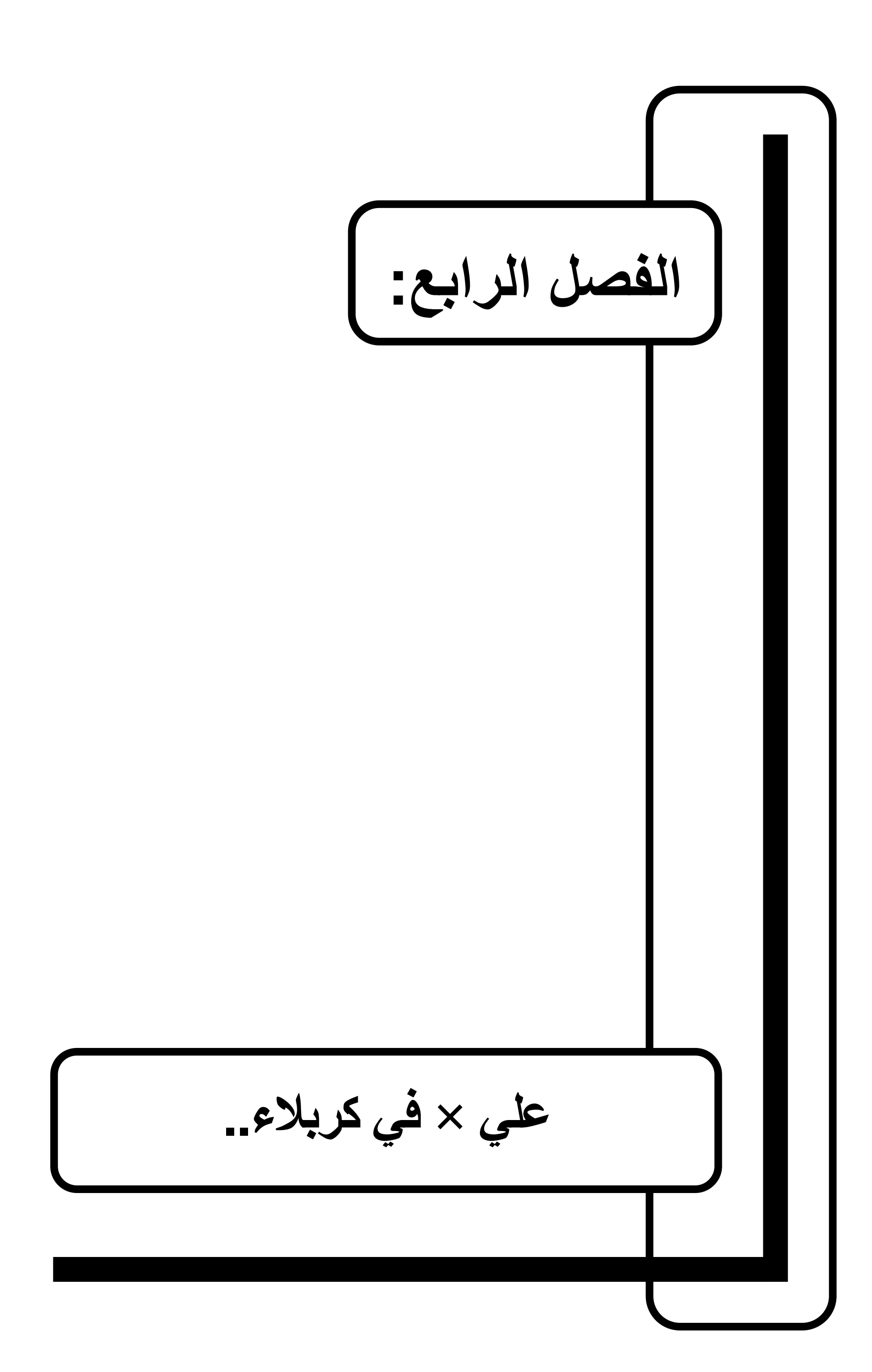
وحتى لو رضيت يوماً بالقضاء، وتابت وأنابت، وعملت يوماً بطاعة الله، فمن الذي يضمن بقاء هذا الرضا، واستمرار الطاعة والتوبة على مر الأيام والشهور، فضلاً عن السنين والدهور..

وما أروع قول أمير المؤمنين «عليه السلام» في مقام آخر: «لست بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»[1].

فللتوفيقات الإلهية، والألطاف الربانية، دور أساس في تمكين الإنسان من امتلاك قياد نفسه، وكبح جماحها، والهيمنة عليها، والثبات والاستمرار على ذلك.

---

(1) الكافي ج8 ص293 وبحار الأنوار ج27 ص253 وج41 ص154 وج74 ص358 و 359 ونهج البلاغة (ط دار التعارف بيروت) ص245 و (ط دار الذخائر سنة 1412هـ) وتفسير الآلوسي ج22 ص18 ونهج السعادة ج2 ص186 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج11 ص102.
وقد تحدثنا عن هذه الكلمة المباركة وبيَّنا مقاصده «عليه السلام» منها في بحث مستقل طبع بعنوان: «لست بفوق أن أخطئ» فراجعه.



الفصل الرابع:

علي × في كربلاء..

قبة قبين:

ثم شخص حتى بلغ قبة قبين، [و] فيها نخل طوال إلى جانب البيعة من وراء النهر.

فلما رآها، قال: **(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)**[1]. ثم أقحم دابته النهر، فعبر إلى تلك البيعة، فنزلها، فمكث بها قدر الغداة[2].

لكن ابن أعثم ذكر ذلك في سياق آخر، فذكر أنه صلى الظهر، [فلما انفتل، قال: سبحان من يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل].

إلى أن قال: فسار حتى إذا صار إلى حمام عمر نزل، فصلى هنالك العصر، فلما انفتل من صلاته، قال: سبحان الذي ذي القدرة والقدم! سبحان ذي الطول والنعم!

---

(1) الآية 10 من سورة ق.

(2) صفين للمنقري ص135 ونهج السعادة ج2 ص129.

ثم نزل هنالك بعسكره، حتى إذا حانت المغرب قام فصلاها، فلما انفتل من صلاته: قال سبحانه ذي الملك والملكوت! سبحان ذي العز والجبروت.

فلما صلى العشاء الآخرة، انفتل من صلاته، ثم قال: الحمد لله كلما أظلم الليل وغسق، والحمد لله، كلما لاح نجم وخفق[1].

قال: وبات تلك الليلة هنالك، فلما أصبح سار وسار الناس معه، فإذا هو بنخل من وراء النهر، فجعل يقول: **(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)**[2]»[3].

رد الشمس لعلي ×:

ثم أقحم فرسه النهر، فعبر إلى تلك الناحية، وسار حتى صار إلى أرض بابل حرك فرسه.

ثم قال: هذا موضع حتف، فسيروا لعلنا أن نصلي خارجاً منه.

ثم حرك، وحرك الناس معه، حتى جاز الصراة.

ثم نزل، فصلى هنالك الظهر.

---

(1) صفين للمنقري ص134.

(2) الآية 10 من سورة ق.

(3) الفتوح لابن أعثم ج2 ص460 - 462 و (ط دار الأضواء) ج2 ص550 و 551.

ثم سار، حتى نزل بدير كعب، فأقام هنالك باقي يومه، وليلته[1].

فيلاحظ هنا: أن ابن أعثم، لم يذكر رد الشمس لعلي «عليه السلام» في بابل.. لكن غيره ذكر ذلك، فقد قال نصر بن مزاحم المنقري:

روى نصر، عن عمر، عن رجل ـ يعني أبا مخنف ـ عن عمه ابن مخنف، قال: إني لأنظر إلى أبي مخنف بن سليم، وهو يساير علياً «عليه السلام» ببابل، وهو يقول. إن ببابل أرضاً قد خسف بها، فحرك دابتك لعلنا أن نصلي العصر خارجاً منها.

قال: فحرك دابته، وحرك الناس، دوابهم في أثره، فلما جاز جسر الصراة نزل، فصلى بالناس العصر.

روى نصر، عن عمر، حدثني عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفي، عن أبيه، عن عبد خير، قال: كنت مع علي «عليه السلام» أسير في أرض بابل.

قال: وحضرت الصلاة، صلاة العصر.

قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً إلا رأيناه أفيح من الآخر.

قال: حتى أتينا على مكان أحسن ما رأينا، وقد كادت الشمس أن تغيب.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص461 و 462 و (ط دار الأضواء) ج2 ص551.

قال: فنزل علي «عليه السلام» ونزلت معه.

قال: فدعا الله، فرجعت الشمس، كمقدارها من صلاة العصر.

قال: فصلينا العصر، ثم غابت الشمس(1).

رد الشمس لعلي × في بابل:

تقدم: أن الإمام «عليه السلام» لما صار في أرض بابل، لم يصل بها، بالرغم من حضور وقت الصلاة.. فلما جاز جسر الصراة نزل، فرد الله له الشمس هناك، فصلى العصر، ثم غابت الشمس.

ونقول:

1 ـ بالنسبة لرد الشمس لأمير المؤمنين «عليه السلام»:

إننا قد ذكرنا ذلك في الجزء الخامس من هذا الكتاب من ص90 حتى ص116. ولنا بحث مستقل مطبوع أفردناه لبحث هذا الموضوع، وهو بعنوان: «رد الشمس لعلي»، فلا باس بالرجوع إليه..

2 ـ هناك بقاع يحبها الله، أو يحب أن يعبد فيها كالمساجد، والكعبة، والمقامات الشريفة، ووادي طوى، أو غير ذلك مما ورد فيه

---

(1) صفين للمنقري ص135 و 136 وراجع المصادر التالية: مستدرك الوسائل ج3 ص348 و 349 وبحار الأنوار ج32 ص418 و 419 وج41 ص184 وج80 ص324 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص168 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص58.

مدح وثناء، وترغيب بزيارته، أو بالسكن فيه، والتبرك به..

وهناك أماكن مبغوضة لله سبحانه، وورد ذمها في الأحاديث، ولا يصلي الإمام فيها مثل وادي برهوت، والأرض التي ينزل عليها العذاب، أو يقع فيها الخسف..

قتل من تخلف عن الجهاد!!:

وقالوا:

وأخذ مالك بن حبيب رجلاً، وقد تخلف عن علي «عليه السلام»، فضرب عنقه، فبلغ ذلك قومه، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى مالك، فنتسقطه، لعله أن يقر لنا بقتله، فإنه رجل أهوج.

فجاؤا، فقالوا: يا مالك، قتلت الرجل؟!

قال: أخبركم أن الناقة ترأم ولدها. اخرجوا عني قبحكم الله. أخبرتكم أني قتلته[1].

ونقول:

إن هذا الحديث، لا يمكن قبوله إلا إذا فرضنا أن مالك بن حبيب قد تصرف من عند نفسه، ولم يعرف علي «عليه السلام»، بما جرى، إذ لو علم لما رضي بذلك، فقد قلنا فيما سبق: إن النبي «صلى الله

---

(1) صفين للمنقري ص140 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج12 ص287.

عليه وآله»، وعلياً، والإمام الحسن «عليهما السلام» لم يكونوا يقتلون أحداً تخلف عنهم في حروبهم.

بل وجدنا علياً «عليه السلام» لم يُكره أسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر على الخروج معه، واكتفى بقطع عطاءهم..

ولو أنه «عليه السلام» عرف بما جرى لطالب به مالك بن حبيب، ولكان قد عاقبه على رؤوس الأشهاد..

إلا إن كان ذلك الرجل قد فعل شيئاً آخر استحق به القتل، ولكن الرواة حرَّفوا وبدَّلوا لحاجة في أنفسهم.

علي × في كربلاء:

قال المنقري:

قال: حدثني مصعب بن سلام، قال أبو حيان التميمي، عن أبي عبيدة، عن هرثمة بن سليم، قال: غزونا مع علي بن أبي طالب «عليه السلام» غزوة صفين، فلما نزلنا بكربلاء، صلى بنا صلاة، فلما سلم رفع إليه من تربتها، فشمها، ثم قال: واهاً لك أيتها التربة، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب[1].

فلما رجع هرثمة من غزوته إلى امرأته ـ وهي جرداء بنت سمير، وكانت متشيعة لعلي «عليه السلام» ـ فقال لها زوجها هرثمة: ألا أعجبك

(1) صفين للمنقري ص140.

من صديقك أبي الحسن؟! لما نزلنا كربلا رفع إليه من تربتها، فشمها، وقال: واهاً لك يا تربة، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب، وما علمه بالغيب؟!

فقالت: دعنا منك أيها الرجل، فإن أمير المؤمنين «عليه السلام» لم يقل إلا حقاً(1).

فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين بن علي «عليه السلام» وأصحابه، قال: كنت فيهم في الخيل التي بعث إليهم، فلما انتهيت إلى القوم، وحسين «عليه السلام» وأصحابه، عرفت المنزل الذي نزل بنا علي «عليه السلام» فيه، والبقعة التي رفع إليه من ترابها، والقول الذي قاله، فكرهت مسيري، فأقبلت على فرسي، حتى وقفت على الحسين «عليه السلام»، فسلمت عليه، وحدثته بالذي سمعت من أبيه في هذا المنزل.

فقال الحسين: معنا أنت أو علينا؟!

فقلت: يا ابن رسول الله، لا معك ولا عليك. تركت أهلي وولدي

---

(1) صفين للمنقري ص140 و 141 والأمالي للصدوق ص199 ومدينة المعاجز ج2 ص170 وبحار الأنوار ج32 ص419 وج41 ص337 و 338 وج44 ص255 و 256 والعوالم، الإمام الحسين ص147 ونهج السعادة ج2 ص284 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص169 و 170 وقاموس الرجال للتستري ج10 ص504.

أخاف عليهم من ابن زياد.

فقال الحسين «عليه السلام»: فول هرباً، حتى لا ترى لنا مقتلاً، فوالذي نفس محمد «صلى الله عليه وآله» بيده لا يرى مقتلنا اليوم رجل، ولا يغيثنا، إلا أدخله الله النار.

قال: فأقبلت في الأرض هارباً حتى خفى علي مقتله[1].

روى نصر، عن مصعب بن سلام، قال: حدثنا الأجلح بن عبد الله الكندي، عن أبي جحيفة، قال: جاء عروة البارقي إلى سعيد بن وهب.

فسأله، وأنا أسمع، فقال: حديث حدثتنيه عن علي بن أبي طالب «عليه السلام».

قال: نعم، بعثني مخنف بن سليم، إلى علي «عليه السلام»، فأتيته بكربلاء، فوجدته يشير بيده، ويقول: هاهنا، هاهنا.

فقال له رجل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟!

قال: ثقل لآل محمد «صلى الله عليه وآله» ينزل هاهنا، فويل لهم منكم، وويل لكم منهم.

فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟!

قال «عليه السلام»: ويل لهم منكم، تقتلونهم. وويل لكم منهم،

---

(1) صفين للمنقري ص141 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج11 ص112 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص146.

يدخلكم الله بقتلهم إلى النار[1].

وقد روى المنقري هذا الكلام على وجه آخر:

أنه «عليه السلام» قال: فويل [لكم منهم، وويل] لكم عليهم.

قال الرجل: أما ويل لنا منهم، فقد عرفت (عرفناه)، وويل لنا عليهم، ما هو؟!

قال «عليه السلام»: ترونهم يقتلون، ولا تستطيعون نصرهم[2].

روى نصر، عن سعيد بن حكيم العبسي: عن الحسن بن كثير، عن أبيه: أن علياً «عليه السلام» أتى كربلاء، فوقف بها، فقيل: يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء؟!

قال «عليه السلام»: ذات كرب وبلاء.. ثم أومأ بيده إلى مكان، فقال: ها هنا موضع رحالهم، ومناخ ركابهم. وأومأ بيده إلى موضع آخر، فقال «عليه السلام»: ها هنا مهراق دمائهم[3].

---

(1) صفين للمنقري ص141 و 142 وبحار الأنوار ج32 ص420 وج41 ص338 ومناقب أهل البيت للشيرواني ص204 ونهج السعادة ج2 ص130 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص170 و 171 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص142.

(2) صفين للمنقري ص142 وبحار الأنوار ج32 ص420 وج41 ص338 ومناقب أهل البيت للشيرواني ص204 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص142.

(3) صفين للمنقري ص142 وبحار الأنوار ج32 ص420 وج41 ص339

ويقول ابن أعثم:

وأصبح «عليه السلام» سائراً، حتى نزل بكربلاء، ثم نظر إلى شاطئ الفرات، وأبصر هنالك نخيلاً.

فقال: يا بن عباس! أتعرف هذا الموضع؟!

فقال: لا يا أمير المؤمنين، ما أعرفه.

فقال «عليه السلام»: أما إنك لو عرفته كمعرفتي، لم تكن تجاوزه، حتى تبكي لبكائي.

قال: ثم بكى علي «عليه السلام» بكاء شديداً، حتى اخضلت لحيته بدموعه، وسالت الدموع على صدره.

ثم جعل يقول: أواه! ما لي، ولآل أبي سفيان!!

ثم التفت «عليه السلام» إلى الحسين «عليه السلام»، فقال: اصبر أبا عبد الله! فلقد لقي أبوك منهم مثل الذي تلقى من بعدي[1].

قال: ثم جعل علي «عليه السلام»، يجول في أرض كربلاء، كأنه يطلب شيئاً، ثم نزل ودعا بماء، فتوضأ وضوء الصلاة، ثم قام، فصلى ما شاء أن يصلي، والناس قد نزلوا هنالك من قرب نينوى إلى شاطئ

وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص171 ومناقب أهل البيت للشيرواني ص204 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص143.

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص462 و 463 و (ط دار الأضواء) ج2 ص551 و 552 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص59.

الفرات.

قال: ثم خفق برأسه خفقة، فنام وانتبه فزعاً.

فقال «عليه السلام»: يا بن عباس! ألا أحدثك بما رأيت الساعة في منامي؟!

فقال: بلى يا أمير المؤمنين!!

فقال «عليه السلام»: رأيت رجالاً بيض الوجوه، في أيديهم أعلام بيض، وهم متقلدون بسيوف لهم، فخطوا حول هذه الأرض خطة، ثم رأيت هذه النخيل، وقد ضربت بسعفها الأرض، ورأيت نهراً يجري بالدم العبيط، ورأيت ابني الحسين «عليه السلام»، وقد غرق في ذلك الدم، وهو يستغيث، فلا يغاث[1].

ثم إني رأيت أولئك الرجال البيض الوجوه، الذين نزلوا من السماء، وهم ينادون: صبراً آل الرسول صبراً! فإنكم تقتلون على أيدي أشرار الناس، وهذه الجنة مشتاقة إليك يا أبا عبد الله!

ثم تقدموا إلي فعزوني، وقالوا: أبشر يا أبا الحسن! فقد أقر الله عينك بابنك الحسين «عليه السلام» غداً يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم إني انتبهت.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص463 و (ط دار الأضواء) ج2 ص552 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص60.

فهذا ما رأيت، فوالذي نفس علي بيده! لقد حدثني الصادق المصدوق، أبو القاسم «صلى الله عليه وآله»، أني سأرى هذه الرؤيا بعينها في خروجي إلى قتال أهل البغي علينا، وهذه أرض كربلاء، التي يدفن فيها ابني الحسين «عليه السلام»، وشيعته، وجماعة من ولد فاطمة بنت محمد «صلى الله عليه وآله»، وأن هذه البقعة المعروفة في أهل السماوات، تذكر بأرض كرب وبلاء، وليحشرن منها قوم يدخلون الجنة بلا حساب(1).

ثم قال «عليه السلام»: يا بن عباس! اطلب لي حولها صيران الظباء، فطلبها ابن عباس، فوجدها.

ثم قال: يا أمير المؤمنين! قد أصبتها.

فقال علي «عليه السلام»: الله أكبر! صدق الله ورسوله.

ثم قام علي «عليه السلام»، يهرول نحوها، حتى وقف عليها، ثم أخذ قبضة من بعر الظباء، فشمها، فإذا لها لون كلون الزعفران، ورائحة كرائحة المسك، فقال علي «عليه السلام»: نعم هي هذه بعينها.

ثم قال «عليه السلام»: أتعلم ما هذه يا بن عباس؟!

قال: لا يا أمير المؤمنين!

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص463 و 464 و (ط دار الأضواء) ج2 ص552 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص60 و 61.

فقال «عليه السلام»: إن المسيح عيسى بن مريم، قد مر بهذه الأرض، ومعه الحواريون، فشم هذا البعر كما شممته، وأقبلت إليه الظباء، حتى وقفت بين يديه، فبكى عيسى، وبكى معه الحواريون، وهم لا يدرون لماذا يبكي عيسى «عليه السلام»؟!

فقالوا: يا روح الله! ما يبكيك؟! ولماذا اختلست ههنا؟!

فقال «عليه السلام» لهم: أتعلمون ما هذه الأرض؟!

قالوا: لا يا روح الله!

فقال «عليه السلام»: هذه أرض يقتل عليها فرخ الرسول أحمد المصطفى «صلى الله عليه وآله»، وفرخ ابنته الزهراء «عليها السلام»، قرينة الطاهرة البتول، مريم بنت عمران.

ثم ضرب بيده عيسى إلى بعر الظباء، فشمه، وقال: يا معشر الحواريين! هذا بعر الظباء على هذا الطيب لا [نه] كان [من] حشيش هذه الأرض.

ثم مضى عيسى ابن مريم «صلوات الله عليه»، وقد بقيت هذه البعرات إلى يومنا هذا من ذلك الدهر، حتى إنها قد اصفرت لطول الزمان عليها، فهذه أرض الكرب والبلاء.

قال: ثم بكى علي «عليه السلام»، وقال: يا رب عيسى! لا تبارك في قاتل ولدي، والعنه لعناً كثيراً!

ثم اشتد بكاء علي «عليه السلام»، وبكى الناس معه، حتى سقط

على وجهه، وغشي عليه.

ثم أفاق، فوثب، فصلى ثماني ركعات، وسلم من كل ركعتين، فكلما سلم جعل يتناول من ذلك البعر، فيشمه، ويقول: صبراً أبا عبد الله! صبراً يا ثمرة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وريحانة حبيب الله!!

ثم أخذ كفاً من ذلك البعر، فصره في ثوبه، وقال «عليه السلام»: لا يزال هذا مصروراً أبداً، أو يأتي علي أجلي.

ثم قال «عليه السلام»: يا بن عباس! إذا رأيتها من بعدي، وهي تسيل دماً عبيطاً، فاعلم أن أبا عبد الله قد قتل.

قال ابن عباس: فوالله لقد كنت أشد تحافظاً لها بعد علي بن أبي طالب، وأنا لا أحلها عن طرفي(1).

قال ابن عباس: فلما رجع علي «عليه السلام» من صفين، وفرغ من أهل النهروان، دخل عليه الأعور الهمداني(2).

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص464 و 465 و (ط دار الأضواء) ج2 ص552 و 553.

(2) هذا النص من تتمة النص السابق، وهو لا يعارضه، لأنه يتكلم عما جرى بين علي «عليه السلام» وبين الحارث الأعور على سبيل الإستطراد بذكر قصتين والربط بينهما، لأن كلاً منهما يتحدث عما يجري على الإمام الحسين «عليه السلام» في كربلاء.

فقال له علي«عليه السلام»: يا حارث! أعلمت أني منذ البارحة كئيب حزين، فزع وجل؟!

فقال الحارث: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟! أندماً منك على قتال أهل الشام، وأهل البصرة، والنهروان؟!

فقال «عليه السلام»: لا، ويحك يا حارث! وإني بذلك مسرور، ولكني رأيت في منامي أرض كربلاء، ورأيت ابني الحسين «عليه السلام» مذبوحاً مطروحاً على وجه الأرض، ورأيت الأشجار منكبة، والسماء مصدعة، والرحال متطامنة، وسمعت منادياً ينادي بين السماء والأرض، وهو يقول: أفزعتمونا يا قتلة الحسين «عليه السلام» أفزعكم الله، وقتلكم!!

ثم إني انتبهت، وأنا منه على وجل لما رأيت.

فقال له الحارث: كلا يا أمير المؤمنين! لا يكون إلا خيراً.

فقال له علي «عليه السلام»: هيهات يا حارث! سبقت كلمة الله، ونفذ قضاؤه، وقد أخبرني حبيبي محمد «عليه السلام» أن ابني يقتله يزيد ـ زاده الله في النار عذاباً ـ(1).

قال زهير بن الأرقم: فلما أصيب علي «عليه السلام» بضربة ابن ملجم، دخلت عليه، وقد ضم الحسين «عليه السلام»،

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص465 و 466 و (ط دار الأضواء) ج2 ص553 و 554.

إلى صدره، وهو يقبله، ويقول له: يا ثمرتي، وريحانتي، وثمرة نبي الله، وصفيه، وذخيرة خير العالمين محمد بن عبد الله! كأني أراك وقد ذبحت عن قليل ذبحاً.

قال: فقلت: ومن يذبحه يا أمير المؤمنين؟!

فقال: يذبحه لعين هذه الأمة، ثم لا يتوب الله عليه، ويقبضه، إذا قبضه، وهو ملآن من الخمر سكران.

قال زهير: فبكيت.

فقال لي علي «عليه السلام»: لا تبك يا زهير! فالذي قضي كائن[1].

ونقول:

لا بأس بملاحظة ما يلي:

سرور علي × بقتال الناكثين والمارقين:

وقد عبر علي «عليه السلام» لابن عباس عن سروره بقتال القاسطين والمارقين، لا لأجل أن علياً «عليه السلام» يستلذ بالقتل بما هو قتل، بل لأجل قيامه بواجبه، ولأنه أطاح بالمفهوم الخاطئ الذي يمنح الحاكم الحق في أن يفعل بالناس ما يشاء، ويسلبهم حق الإعتراض عليه، أو التصدي له. ولأنه أسقط حرمة حكومة البغاة

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص466 و (ط دار الأضواء) ج2 ص554.

والطغاة، وكرَّس في الأمة لزوم مقاومة الإنحراف في الإعتقاد والمفاهيم.. ورفض العدوان على الناس. وتكريس مفهوم لزوم التخلص من المعتدين، ورد كيدهم إلى نحورهم.

لا معك ولا عليك:

إننا في حين نجد هرثمة بن سليم يتعجب من علم أمير المؤمنين «عليه السلام» بالغيب، نجد امرأته تقول له بجزم وحزم: إنه «عليه السلام» لم يقل إلا حقاً.. فهي تؤمن بالغيب، فتكون مصداقاً لقوله تعالى: **(**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**)**[1]. وهو يجحد ما يراه ويشهده. وما لا ريب فيه. فقد بقي هرثمة حياً حتى جاء بنفسه في جيش ابن زياد إلى كربلاء، وعاين البقعة التي شمها علي «عليه السلام» بالذات، ورأى الإمام الحسين «عليه السلام». وأخبره بما رآه وسمعه من أبيه «عليه السلام».

ولكن الغريب في الأمر: أن هذا الرجل لم يرض أن يكون مع الإمام الحسين «عليه السلام»، بل قال له: لا معك ولا عليك، ثم تعلل بخوفه على أهله من ابن زياد، مع أنه يرى أن الحسين «عليه السلام» جاء بأهله إلى ساحة الحرب، ليحارب دفاعاً عن الدين وأهله، ويدافع عن المستضعفين، ويعرض أهله للقتل، أو السبي في أحسن الأحوال، فقد رغب بالدنيا وآثرها على دخول الجنة!! وهرب إلى

(1) الآية 3 من سورة البقرة.

أهله تاركاً أمر مستقبله في الآخرة في مهب الرياح..

أنموذج من جيش علي ×:

وما أكثر أمثال هذا الرجل في جيش أمير المؤمنين «عليه السلام» ممن كان «عليه السلام» يريد أن يخوض بهم حرباً مصيرية، وحرب حياة أو موت لا دفاعاً عن شخص علي «عليه السلام» ومن معه من أبنائه وغيرهم من الأخيار، بالرغم من أنهم صفوة البشر، وأركان التوحيد، وأساس الدين، وعماد أهل الإيمان، وإنما دفاعاً عن دين الله تعالى، وعن أهل الدين، والمستضعفين..

بل إن الصادقين المعتقدين بإمامة علي «عليه السلام» كانوا قلة قليلة من أهل العراق.

ويكفي أن نذكر: أن الإمام الباقر «عليه السلام» يقول: كان علي بن أبي طالب «عليه السلام» عندكم بالعراق يقاتل عدوه ومعه أصحابه، وما كان فيهم [منهم] خمسون رجلاً يعرفونه حق معرفته، وحق معرفته إمامته[1].

أي لم يكن معه من يعتقد بإمامته الإلهية حتى هذا المقدار.

ولأجل ذلك كان «عليه السلام» يكثر من إظهار دلائل إمامته في مسيره ذاك، بل كان مهتماً بذلك منذ خرج من المدينة متوجهاً إلى

---

(1) راجع: إختيار معرفة الرجال ج1 ص26 وبحار الأنوار ج42 ص152.

العراق، وطيلة مقامه هناك، وفي مختلف الحروب التي خاضها، وإلى أن استشهد..

ما فائدة الغيبيات، والكرامات؟!:

إن شم أمير المؤمنين «عليه السلام» لبعر الظباء، واستدلاله بذلك على مكان استشهاد الإمام الحسين «عليه السلام»، ثم ما رواه سعيد بن وهب عن تحديده «عليه السلام» مكان نزول آل محمد، وموضع رحالهم ومناخ ركابهم، ومهراق دمائهم. وكذلك إخباره بأن الذين معه سيتولون قتلهم.. وأن منهم طائفة سيرون أهل البيت يقتلون ولا يستطيعون نصرهم، ثم بكاؤه «عليه السلام» حتى سالت الدموع على صدره.. وتحريضه غيره على البكاء، وإخباره بأن آل أبي سفيان هم القتلة.. وغير ذلك مما تضمنته النصوص المتقدمة من تفاصيل ـ إن ذلك كله ـ كان يفترض أن يحدث تحولاً أساسياً وعميقاً في اعتقاد وفي مسار الناس الذين معه، وهم يعدون بعشرات الألوف.. ولا سيما على صعيد الإعتقاد بإمامته «عليه السلام»..

ولكن الأمر لم يجر على هذا المنوال، كما دلت عليه النصوص، ومنها النص المتقدم عن أن الذين يعتقدون بإمامته لا يزيدون على خمسين رجلاً. فما فائدة كل هذا الذي أظهره «عليه السلام» من علوم غيبية، ومن كرامات، وما أظهره من دلائل قاطعة على إمامته..

ويجاب:

بأن فائدة ذلك أمران:

الأول: إنه بهذه الدلائل يقيم الحجة على كل من سمع ورأى.

الثاني: إنها وإن لم تكن هذه الأمور قد بلغت بأولئك إلى حد الاعتقاد بإمامته «عليه السلام»، ولكنها أحدثت لدى الكثيرين منهم قدراً من الوجل والخوف من ترك نصرته. وشعروا بالحاجة إلى الإحتياط والحذر من التخلي عنها لصالح معاوية. لا سيما مع خوفهم من تسلط أهل الشام ـ المنافسين لهم ـ والأمويين الظالمين عليهم، وكانت المنافسة والعصبية قوية بينهم وبين أهل الشام.. بالإضافة إلى أن لرؤساء العشائر أثراً في قرارهم..

النار لمن لا يغيث إمامه:

وقد أمر الإمام الحسين «عليه السلام» هرثمة بن سليم: بأن يولي هرباً، لأن جزاء من يرى أهل البيت يُقْتَلُون ولا يغيثهم هو النار..

والسؤال هو: إن نصرة الإمام واجبة عقلاً، لأنه حافظ للدين، والتفريط بنصره تفريط بدين الله سبحانه، وبالإمام «عليه السلام».. فما معنى أن يأمر الإمام الحسين «عليه السلام» هذا الرجل بالهرب؟! وهل يُسْقِط أمره هذا حكمَ عقله بوجوب نصره؟!

ونجيب:

أولاً: إنه «عليه السلام» قال: لا يرى مقتلنا اليوم رجل ولا يغيثنا الخ.. والمفروض أن أمره له بالهرب لم يكن لحظة مقتله «عليه السلام». فلعل ذلك الرجل يحتمل أن تستجد أمور قبل حضور ساعة

مقتله «عليه السلام» تجعل الأمور تذهب باتجاه آخر..

ثانياً: إن ابتعاد الرجل عما جرى لحظة وقوع القتل، وصيرورته بعيداً عن ساحة القتال.. ولو لأجل حفظ أهله وولده، تجعل من إغاثته للإمام أمراً غير قابل للتحقق، والمفروض أن غيبته كانت في بدايتها لعذر مقبول..

ثالثاً: إن وجود هذا الرجل وحده مع الإمام لا يمنع القتل عنه، ولا فائدة له إلا أنه ينيله درجة الشهادة، ويوصله إلى الجنة. وإنما يكون ذلك ممكناً إذا كانت لدى الرجل نفسه نية صادقة بالجهاد، يتحقق معها قصد القربة، وبدون ذلك يكون قتيلاً لا ثواب له.

فإنه إذا لم تكن لديه نية صادقة بالجهاد، يصير أمام احتمالات:

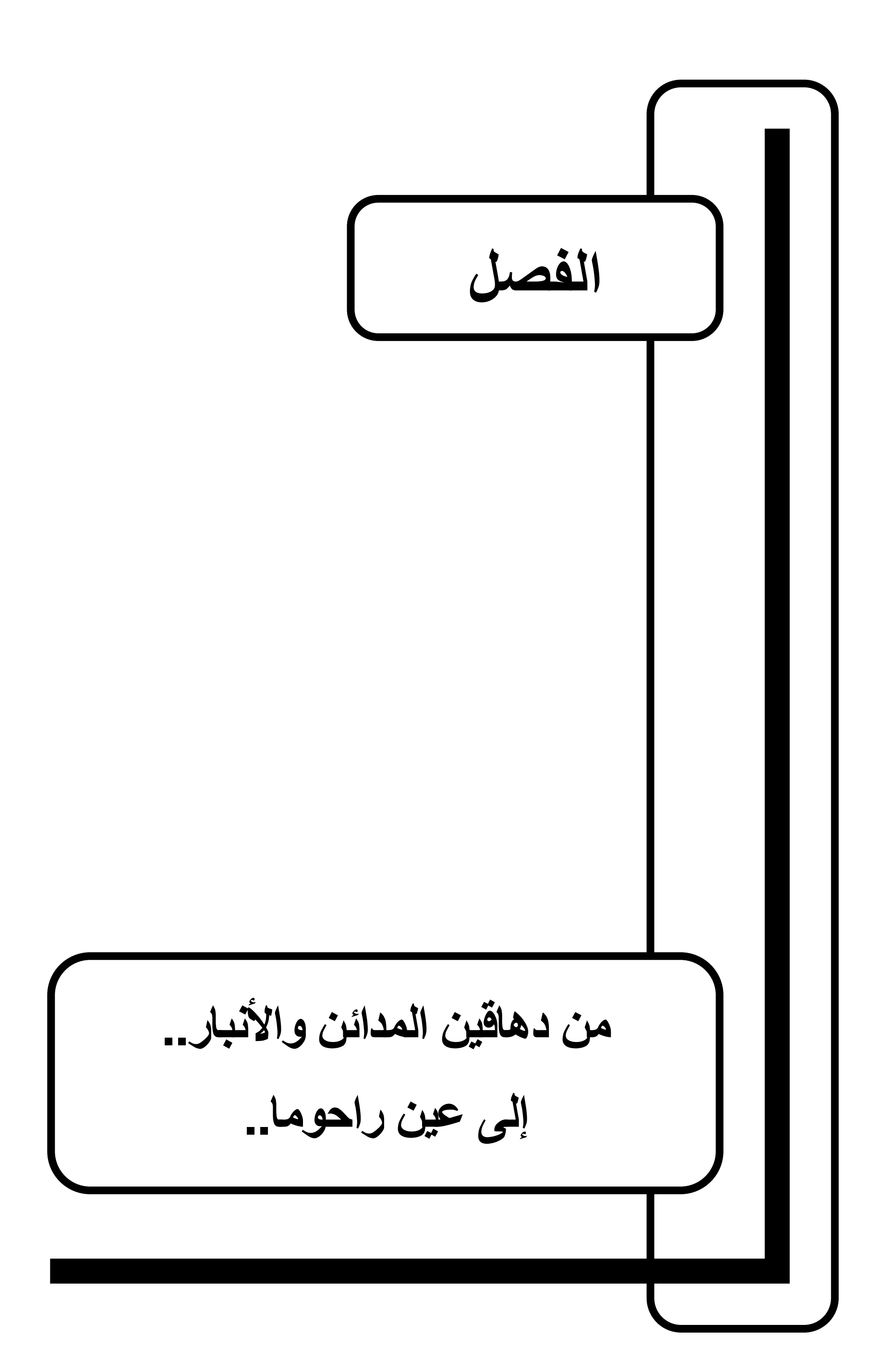
أحدها: أن يكون خاذلاً للإمام «عليه السلام»، كما إذا كان حاضراً يرى مقتله، ويسمع استغاثته. ولا يستجيب له، فهذا مصيره إلى النار.

الثاني: أن يكون بعيداً، ولا يعرف ما يجري، ثم يبلغه الخبر في وقت له يستطيع الوصول إليه لينصره، مع حضور نيته بالنصر، وتلهفه له، فهذا معذور على تخلفه، مثاب على نيته.

الثالث: أن يكون قتل الإمام محتملاً عنده، فيعمل على تعجيز نفسه عن نصرته، ولو بالإبتعاد عنه، ظناً منه أن ذلك قد يصلح عذراً له أمام الله، لأنه كان حين تفاقمت الأمور، وبلغت الحد الأقصى عاجزاً عن النصر. ولكنه غفل عن الإمتناع بالإختيار لا ينافي

الإختيار، فإن فرض أن هذا يصلح عذراً له، وهيهات، ولكنه على أي حال لا يستحق الكرامة، ولا المعونة في شيء، بل يوكل إلى نفسه ويصبح مرهوناً بعمله..

وكلما كبر احتمال الخطر على الإمام وزاد الخوف، وكبر الظن بالعدوان عليه، كلما زاد قبح هروب هذا الرجل، وبعده عن مظان التوفيق، واستحقاق إعراض الله تعالى عنه، وحجب ألطافه.



الفصل

من دهاقين المدائن والأنبار..
إلى عين راحوما..

علي × يرفض عروض الدهاقين:

قال المنقري: «ثم خرج حتى أتى دير كعب، ثم خرج منها، فبات بساباط، فأتاه دهاقينها، يعرضون عليه النزول والطعام.

فقال: لا، ليس ذلك لنا عليكم.

فلما أصبح، وهو بمظلم ساباط، قال: (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**)»[1]»[2].

ونقول:

لو أن غير علي «عليه السلام» كان هو الذي مر بأولئك الدهاقين (وهم التجار، ورؤساء الأقاليم) ثم عرضوا عليه النزول والطعام، هل كان يرفض ذلك منهم، كما رفض علي «عليه السلام»؟!

---

(1) الآية 128 من سورة الشعراء.

(2) صفين للمنقري ص136 وبحار الأنوار ج32 ص419 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص168 و 169.

أم أنه كان سيجبرهم على ما هو أكثر من تقديم الطعام، فإن لم يستجيبوا، فإنهم سيعرضون أنفسهم للتنكيل، والأذى، والحرمان، في أكثر من مجال.. لا سيما وأنهم من غير العرب، ولم يسلموا.

ويدل على ذلك: أن علياً «عليه السلام» لم يكتف بمجرد رفض قبول ما عرضه عليه الدهاقين، بل قال «عليه السلام» لهم: ليس ذلك لنا عليكم، لكي يرفع أصل الجعل، والإلزام لهم بذلك.

وهذا يشير إلى أن ثمة انطباعاً كان قائماً في الأذهان، يجعل هذا الأمر من واجباتهم.. ولعل تكريس هذا المفهوم قد حصل من خلال نهج الخلفاء، والحكام قبله «عليه السلام»، وحيث كانوا يتخذون من العراق نقطة انطلاق نحو بلاد إيران في حروب الفتوحات.

أتبنون بكل ريع آية؟!:

وقد تقدم أن أمير المؤمنين «عليه السلام»، قال في (مظلم ساباط): (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ**).

ونقول:

1 - الريع: هو الجبل المرتفع.

والساباط: الطريق النافذ بين حائطين، أو منزلين، وقد جعل له سقف.

وساباط: بلد بمدائن كسرى، قرب بغداد..

2 - يبدو من هذا النص: أنه قد كان في تلك المنطقة جبال مرتفعة، يبنى عليها صوامع، وأبراج، أو أبنية أخرى لا يستفاد منها إلا المضاهاة، والتفاخر الفارغ، والعبث الذي لا هدف له..

وقد ورد النهي عن بناء ما لا حاجة إليه، وأن من بنى ما لا يحتاج كان ما بناه وبالاً عليه.. والآية التي ذكرها أمير المؤمنين «عليه السلام» تريد أن تلوم الناس على مثل هذه الأفعال، فإن الإنسان لا يتلف عمره وجهده في أمر عبثي لا فائدة منه، لأن العمر أثمن من أن يصرف في أمثال هذه الأمور..

فما بالك إذا كان المقصود بتلك الأعمال أموراً تزيد في فساد القلب والسلوك، مثل مجرد التفاخر، والمضاهاة، والإعتزاز بالمظاهر الدنيوية، عوضاً عن الإعتزاز بالصلاح، والخير، والعطاء، والبناء للحياة، والإسهام في تناميها، ورقيها..

إن الإسلام يريد للإنسان أن يكون هادفاً، وفاعلاً، وأن لا تذهب جهوده سدى، بل يريده جهداً نافعاً ومؤثراً..

علي × في المدائن:

قال ابن أعثم:

ثم سار حتى أشرف على بنيان كسرى، [حتى انتهى إلى مدينة بهرسير] فإذا برجل من أصحابه يقال له: جرير [حر] بن سهم بن طريف التميمي، [من بني ربيعة بن مالك] قد وقف، ينظر إلى آثار

كسرى وهو يتمثل بهذا البيت [قول ابن يعفر التميمي]:

سفت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال له علي «عليه السلام»: ويحك! فلو قلت: **(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)**[1]. هؤلاء قوم كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، لم يشكروا النعمة، فحلت بهم النقمة، وسلبوا دنياهم بالمعصية، فإياكم وكفر النعمة! لا تحل بكم النقم[2].

[ثم قال: انزلوا بهذه النجوة][3].

وقال المنقري أيضاً:

---

(1) الآيات 25 ـ 29 من سورة الدخان.

(2) الفتوح لابن أعثم ج2 ص467 و (ط دار الأضواء) ج2 ص554 و 555 وصفين للمنقري ص142 و 143 ومناقب الإمام أمير المؤمنين للكوفي ج2 ص570 و 571 وبحار الأنوار ج32 ص422 و 423 وج68 ص327 وج73 ص275 و 276 وج89 ص299 و 300 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص353 والمستدرك للحاكم ج2 ص449 و 450 وتاريخ بغداد ج1 ص143 وج9 ص212 وتهذيب الكمال ج12 ص158 و 159 والمعيار والموازنة ص132 والكنى والألقاب ج3 ص170 و 171 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص61.

(3) صفين للمنقري ص143 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص61.

روى نصر، عن عمر بن سعد، حدثني مسلم الأعور، عن حبة العرني، (رجل من عرينة) قال: أمر علي بن أبي طالب «عليه السلام» الحارث الأعور، فصاح في أهل المدائن: من كان من المقاتلة، فليواف أمير المؤمنين «عليه السلام» صلاة العصر.

فوافوه في تلك الساعة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعد.. فإني قد تعجبت من تخلفكم عن دعوتكم، وانقطاعكم عن أهل مصركم في هذه المساكن الظالم أهلها، والهالك أكثر سكانها، لا معروفاً تأمرون به، ولا منكراً تنهون عنه.

قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا كنا ننتظر أمرك ورأيك، مرنا بما أحببت.

فسار «عليه السلام» وخلف عليهم عدي بن حاتم، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة.

وخلف ابنه يزيد، فلحقه في أربعمائة رجل منهم، ثم لحق علياً «عليه السلام»[1].

ونقول:

---

(1) صفين للمنقري ص143 وبحار الأنوار ج32 ص423 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج10 ص233 ونهج السعادة ج2 ص140 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص203 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص62.

قل ولا تقل:

ذكر النص المتقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» لم يرض من ذلك التميمي بأن يتمثل بشعر ابن يعفر.. لأنه وجد أنه قاصر عن إعطاء العبرة، وعن أن يثير المعاني الإيجابية المؤثرة في توجيه الإنسان بصورة صحيحة، لأن هذا البيت الذي تمثل به يشير إلى أنهم قد ماتوا، وأن الديار قد خربت، ولم يشر إلى أحوالهم، وإلى أنهم لم يكونوا بصدد نيل رضا الله سبحانه، بل كانوا في محل غضبه تعالى، فما بكت عليهم السماء والأرض، وأن ما جرى لهم سيجري على كل الناس.. وأن الله تعالى لم يمهلهم الخ..

وأنزل عليهم دون أن ينذرهم بنزوله، ولم يؤجل العذاب لهم إلى يوم القيامة، بل بدأهم به في دار الدنيا أيضاً.

فإن هذه المعاني إذا توجه إليها الإنسان في مثل هذا الموقف، ستغير حاله، وتقربه من التوبة، ومن تغيير مساره إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة..

ولذلك أرشده «عليه السلام» إلى لزوم الإستفادة من هذه المواقف، لتوجيه الإنسان إلى ما ينفعه، وينجيه من غضب الله، وينيله رضاه، ويدفع عنه نقمه..

إستنفار أهل المدائن:

1 - وقد لاحظنا: أن خطبة علي «عليه السلام» في مقاتِلَةِ أهل

المدائن لم تتضمن ما يشير إلى أي عنف في الكلام معهم، ولا ألمحت إلى الرغبة بممارسة أي إكراه لهم على الخروج إلى الحرب.. بل اقتصر الأمر على مجرد إخباره بتعجبه من تخلفهم عن دعوتهم التي هي دينهم وإسلامهم، أو عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن هذا التخلف معناه: التعرض لغضب الله، مع أنهم في مساكن الذين ظلموا وهلكوا، وقد كان يجب أن لا يعرضوا أنفسهم للهلاك الذي ابتلي به الذين كانوا قبلهم في تلك المساكن، وأن يعتبروا بما جرى لهم.

فكأنه «عليه السلام» ذكر لهم المبررات التي تلزمهم بالخروج من تلقاء أنفسهم على طريقة إطلاق الدعوى مع دليلها المحسوس، الذي هو أوقع في النفس من الأمر والزجر..

بل إنه «عليه السلام» حين قالوا له: مرنا بما أحببت. لم يأمرهم بشيء، بل تركهم وسار، وخلف عليهم عدي بن حاتم.. ومبادرته للمسير كأنها قطع للطريق عليهم، لكي لا يواصلوا أسئلتهم التي تهدف إلى استصدار أمر صريح منه لهم بالخروج للحرب.

2 - إن التأمل في كلماته «عليه السلام» لهم يعطي: أنه أفهمهم أنه يرغب في مشاركتهم في تلك الحرب، ولكن لا بالإستناد إلى نفس طاعة أمره، والإنزجار بزجره، لأنه لم يكن قد أصدر لهم أمراً، كما دل عليه قولهم: «كنا ننتظر أمرك ورأيك».. بل لأجل امتثال الأوامر والنواهي الإلهية العامة، التي خاطب الله تعالى بها جميع المكلفين،

بصورة مباشرة، والمتمثلة بتكليفهم بالأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، حيث لا تختلف عن مثيلاتها من التكاليف، كالأمر بصلة الرحم، والنهي عن الكذب، ونحو ذلك..

3 ـ ولعله «عليه السلام» كان يرى في هذا الإنتظار منهم نوعاً من عدم المبالاة بإقامة دين الله تعالى، ولم يسعوا إلى دفع أعداء الدين، ولم يبدوا أي استعداد للدفاع والجهاد بحجة أنهم ينتظرون صدور الأمر منه.. وهذا ينقص من قدرهم عنده، ومن محلهم لديه، لأن الإلتحاق بركب المجاهدين واجب إلى أن يعلم بكفاية من التحق.

كبشان ينتطحان:

قال المنقري:

روى نصر، عن عمر، عن رجل ـ وهو أبو مخنف ـ عن نمير بن وعلة، عن أبي الوداك أن علياً بعث من المدائن معقل بن قيس [الرياحي] في ثلاثة آلاف رجل، وقال له: «خذ على الموصل، ثم نصيبين، ثم القني بالرقة، فإني موافيها [اتق الله الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه]، وسكن الناس وأمنهم، ولا تقاتل إلا من قاتلك، وسر البردين، وغور بالناس، وأقم الليل، ورفه في السير، ولا تسر في الليل [أو: لا تسر الليل] فإن الله جعله سكناً، [وقدره مقاماً لا ظعناً] أرح فيه بدنك وجندك و [روِّح] ظهرك. فإذا كان

السحر أو حين ينبطح الفجر فسر [على بركة الله]»[1].

[فإذا وقفت حين ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسر على بركة الله. فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تَبَاعَدْ عنهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمري، ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم][2].

وسيأتي: أنه «عليه السلام» قال ذلك للأشتر، حين أرسله هو وشريح بن هاني، وزياد بن النضر[3].

فخرج معقل حتى أتى الحديثة، وهي إذ ذاك منزل الناس ـ إنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان ـ فإذا هم بكبشين

---

(1) صفين المنقري ص148 و 149 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج1 ص324 ونهج السعادة ج2 ص137 و 138 وبحار الأنوار ج32 ص428 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص208 و 209.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص13 و 14 الكتاب رقم 12 وبحار الأنوار ج32 ص395 و 396 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج15 ص92 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج4 ص287.

(3) صفين للمنقري ص153 و 154 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص212 و 213 وتاريخ الأمم والملوك ج3 ص564 و 565 وبحار الأنوار ج32 ص414 و 415 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص72 و 73.

ينتطحان، ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له: شداد بن أبي ربيعة، قتل بعد ذلك مع الحرورية، فأخذ يقول: إيه إيه.

فقال معقل: ما تقول؟!

قال: فجاء رجلان نحو الكبشين، فأخذ كل واحد منهما كبشاً، ثم انصرفا، فقال الخثعمي لمعقل: لا تغلبون ولا تغلبون.

قال له: من أين علمت ذلك؟!

قال: أما أبصرت الكبشين، أحدهما مشرِّق والآخر مغرِّب، التقيا فاقتتلا وانتطحا، فلم يزل كل واحد منهما من صاحبه منتصفاً حتى أتى كل واحد منهما صاحبه فانطلق به.

فقال له معقل: أويكون خيراً مما تقول يا أخا خثعم؟!

ثم مضوا حتى أتوا علياً بالرقة[1].

ونقول:

هنا أمور يحسن التوقف عندها، نذكر منها:

أيضاحات:

البردان: الغداة والعشي.

---

(1) صفين المنقري ص148 و 149 وبحار الأنوار ج32 ص428 و 429 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص208 و 209.

التغوير: القيلولة. يقال للقائلة: الغائرة.

الظعن: الإرتحال.

الظهر: الإبل يُحمَل عليها، ويُرْكَب.

انبطاح السحر: امتداده. أي أن عليه أن يفعل ذلك بعد امتداد السحر، لا في أوله.

أعذر الرجل: إذا بلغ أقصى الغاية في العذر.

لا قيمة لحديث الكبشين:

وقبل أن نلقي نظرة على وصايا أمير المؤمنين «عليه السلام» لمعقل بن قيس، نقول:

إن حديث انتطاح الكبشين، وتأويل شداد الخثعمي ـ الذي أصبح من الخوارج وقتل معهم ـ لا قيمة له. ولا أدري إن كان من الأحاديث المصنوعة بعد أن مرت أحداث صفين، والتحكيم، أم أنه مجرد كلام لا ضابطة له، جاء على طريق الصدفة. فإن كل جيشين يلتقيان، إما أن يُهْزَم أحدُهما، أو يرجعان دون أن ينتصف أحدهما من الآخر..

وصدق المصادفة في الأمر الذي يدور بين احتمالين، أمر قريب جداً، وكلما زادت الإحتمالات، كلما بعدت الصدفة، وتلاشت..

بين الوصية لمعقل، والوصية لابن النضر وابن هاني:

أولاً: إننا قد قدمنا: أن علياً «عليه السلام» أرسل من الكوفة ـ فيما

يظهر ـ مقدمة له تتألف من اثني عشر ألفاً، فجعل زياد بن النضر على سته آلاف، وشريح بن هاني على ستة آلاف، وأمرهما إذا اجتمعا أن تكون القيادة لشريح..

وأرسل إليهما كتاباً فيه وصايا هامة جداً بعضها ورد في وصيته لمعقل أيضاً..

أما معقل، فأرسله من المدائن إلى الموصل إلى نصيبين، ليكون ملتقاه به في الرقة..

ونحن نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض النقاط التي لم تذكر في الكتاب الذي كتبه «عليه السلام» لابن النضر، وابن هاني، فنقول:

سكن الناس، وأمنهم:

ويبدو لنا: أن الهدف من بعث معقل والمهمات التي أوكلها إليه يختلف عن الهدف، وعن المهمات التي كانت لزياد وشريح..

فزياد وشريح هما مقدمة جيشه «عليه السلام» إلى ساحة الحرب في صفين.. أما معقل بن قيس، فقد سيره من طريق آخر ربما لأهداف وقائية، أو غيرها. ولعل من أهمها: هو أن يفهم الناس الذين في تلك المناطق: أن الحرب التي يخوضها أمير المؤمنين «عليه السلام» لا تعني إهماله لهم، ولا السماح للأعداء بوطء بلادهم، والعدوان عليهم. كما لا تعني أنه غير قادر على نجدتهم، إن أصابهم مكروه.. ولذلك أمر «عليه السلام» معقلاً بأمرين:

أولهما: قوله: «سكن الناس»، فإن الناس في مثل هذه الأحوال يعيشون الهيجان والحماس.. وربما عمت البلبلة والفوضى بينهم، فلا بد من التسكين والتهدئة.. ليتمكن العقلاء من استنباط وجوه الصلاح والخير، وفق الحكمة، وعلى هدى من العقل والشرع..

أو لعل المراد بالتسكين: هو إعادة الطمأنينة لهم بدل الإضطراب والقلق على مصيرهم.

الثاني: أنه قال له: «وأمنهم»، لأن الخوف على المصير، والشعور بفقد النصير، يكون هو المهيمن على شعور الناس في مثل هذه المناطق النائية، التي قد يطمع بها العدو من الخارج، وينتهز فرصتها أهل الأهواء والأطماع من الداخل.

وتتأكد الحاجة إلى الشعور بالأمن في مثل هذه الحال التي يظن الناس فيها: أن الإنشغال بالحرب الكبيرة، لا يبقي مجالاً للتفكير بما يجري على أهل المناطق المنعزلة أو النائية.

لا تقاتل إلا من قاتلك:

وقد يقول قائل:

إنه «عليه السلام» أمر معقلاً، بأن لا يقاتل إلا من قاتله.. مع أنه قد يلتقي بسرية مسلحة، أو بجيش كامل العدة، صديقاً، أو معادياً، فهل يتركه يسرح ويمرح كيف يشاء؟! أم لا بد من التصدي له، ورده على أعقابه، لكي لا يغير على الآمنين، ويؤذيهم في أبشارهم وفي أموالهم،

وربما في أعراضهم أيضاً؟!

ويجاب:

أولاً: بأنه «عليه السلام» لم يقل له: اترك جيوش الأعداء يسرحون، ويمرحون، بل قال له: لا تقاتل إلا من قاتلك.. وجيش الأعداء الذي يعيث في الأرض فساداً، ويمارس العدوان على الآمنين ليس مسالماً، بل هو مقاتل لا بد من التصدي له..

ثانياً: حتى لو لم يفسد الأعداء في بلاد المسلمين، ولم يعتدوا على أحد، فلا بد من التصدي لهم أيضاً، وإخراجهم من هذه البلاد، ولكن لا بالمبادرة إلى قتالهم، بل بطلب ذلك منهم، ومحاولة إقناعهم بما يمكن إقناعهم به، فإن أبوا ذلك، فلا بد من مراجعة أمير المؤمنين «عليه السلام» في شأنهم. ولا يعاجلهم بالقتال، إلا إذا عاجلوه به، وعليه أن يحاول أن يحتج عليهم، فإن أبوا إلا القتال، دافع عن نفسه بما توفر لديه..

أوقات مسير الجيش:

ذكرنا فيما تقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد حدد في رسالته لابن النضر، وابن هاني، ضوابط لا بد من رعايتها فيما يرتبط بمسير الجيش باتجاه العدو، وقد تعرض في وصيته «عليه السلام» لمعقل لبيان بعض هذه الضوابط.. ولكنه لم يذكر هنا بعض الأمور التي ذكرها في رسالته تلك..

فلم يذكر في رسالته لمعقل مثلاً، لزوم الحذر حين مسير الجيش، وذكره هناك.

ولم يذكر هنا أيضاً، لزوم أن يكون المسير في حال تعبئة، واستعداد، وذكر ذلك هناك، وما ذلك إلا لأن مقدمة الجيش هي محط نظر العدو، وموضع رصده واهتمامه. أما الجيش الذي كان بقيادة معقل، فكان في مهمة داخلية، لا تحتاج إلى تعبئة، ولا إلى حذر، بل تطلب فيها الراحة والجمام..

واللافت أيضاً: أنه لم يطلب منه هنا بث العيون، والطلائع، ولا حدد له مواضع نزوله، ولا طلب منه أن يباشر الحراسة بنفسه إذا نزل، ولا أن يحيط جيشه بالرماح, والأترسة، والرماة، والحراس..

بالإضافة إلى خصوصيات أخرى، تختلف فيها كل وصية عن الأخرى، وتظهر بالمقارنة..

ومهما يكن من أمر، فإن الضوابط التي ذكر «عليه السلام» في وصيته لمعقل، وألزمه بمراعاتها في المسير، هي التالية:

1 - أن يكون السير في البردين، وهما وقت برودة الهواء في الصباح، ووقت برودته في المساء قبل الغروب، لكي لا يتأذى الناس من حر الشمس، لو سار في وقت الهاجرة..

2 - لزوم نزول الجيش وقت القيلولة للراحة..

3 - لزوم الإقامة وعدم السير في الليل..

4 - لزوم الترفيه في السير. أي السير بليونة، وراحة، بلا مشقة وعنف..

5 - أن لا يسير في أول الليل، فإن الله تعالى جعله سكناً، وجعله مقاماً ليس فيه ارتحال.

وخصص «عليه السلام» أول الليل بالذكر، وبالتعليل الإقناعي المستند إلى النص القرآني الشريف، لأن الناس قد يشعرون أن بقية الضوء في هذه الفترة، إنما هي من الشمس التي لم تمعن في البعد، ولم تسحب جميع خيوط النور المتدفقة منها، فكأنهم ما زالوا في بقية من النهار..

مع أن المطلوب: هو أن تكون هذه الفترة هي فترة الإستعداد والتهيؤ للسكن الذي أشارت إليه الآية..

وإذا استفيد منها في السير، أو في أي عمل آخر، فإن التمهيد، والتهيؤ للسكن، والمقام، والمنام، سيكون في جزء من الليل نفسه، مع أن المطلوب هو تكريس الليل كله، لهذه الغاية..

كما أنه حين يمتد السحر، أو يمتد الفجر، فإن الليل يبدأ بالتلاشي، وتستيقظ الأجسام، ويبدأ سعي الإنسان لمعاشه.. فلا بأس بالشروع بالسير فيه..

بماذا يهتم الإمام؟!:

وقد أظهر الإمام «عليه السلام» بقوله: «أرح فيه بدنك، وجندك

و[روح] ظهرك»: أن اهتمامه «عليه السلام» مُنْصَبٌّ على ثلاثة أمور:

الأول: أن يريح القائد نفسه.

الثاني: أن يريح جنده.

الثالث: أن يروح الدواب التي معه. أي يؤويها إلى مراحها، وهو موضع راحتها بالليل..

ويلاحظ هنا:

أولاً: أنه «عليه السلام» قد فرض على القائد هنا: أن يريح بدنه في الليل، لأنه في بلاد أمن، فلماذا يتعب القائد نفسه من دون حاجة؟!

ولكنه في رسالته لزياد بن النضر، وشريح بن هاني أمرهما أن يواصلا حراستهما للجند بنفسيهما الليل كله، ولا يناما إلا غراراً أو مضمضة، لأنهما في مواضع غير آمنة، والعدو يترصدهم ليوقع بهم..

ثانياً: إنه أمره أيضاً بأن يريح جنده.. وأن يؤوي الظهر والدواب التي معه إلى مواضع راحتها في الليل.. وهذا درس آخر في الرفق والإهتمام يعلمنا علي «عليه السلام» إياه..

فلم يشغله هنا تدبيره لجنده عن تدبير الظهر. أي الدواب التي تكون معه، حتى لا ينشغل القائد ومن معه بأنفسهم، ويستسلموا إلى الراحة عن واجباتهم تجاه هذه الدواب التي لا حول لها ولا قوة، ولا تستطيع أن تعبر عن حاجاتها، ولا أن تسعى في حل مشكلاتها..

قف من أصحابك وسطاً:

وقد حدد لنا «عليه السلام» هنا الموضع الذي يجب على القائد أن يختاره لنفسه، ليتواجد، أو ليكون مقراً لقيادته في القتال. فأمره أن يختار الموقع الوسط، فقال: «فإذا لقيت العدو، فقف من أصحابك وسطاً».

ولعل من أسباب ذلك:

أولاً: أن المكان الوسط من شأنه أن يسهل على أصحابه تحديد موقعه، والإتصال به على نحو متوازٍ، فلا يصعب على بعضهم، ويهون على البعض الآخر..

ثانياً: إن موقع القائد يمثل نقطة الإرتكاز في الشعور العام بالنسبة للجيش كله، كما أنه الموضع الذي يلتقي الجيش كله على حفظه، وتأكيد ثباته، وسلامته، ويحفظ للجيش سكينته، وتصميمه، وعزمه. فلا يعيش التشتت، والتجزئة، والتوزع في مشاعره، وفي جهده، واهتماماته.. فإن ذلك من موجبات الوهن فيه، وتضعضع قواه، وتوزع جهده، ويستبد به الضياع والحيرة، حيث لا يعرف كيف، وأين، وأي اتجاه يمحضه جهده.

ثالثاً: إنما يصب العدو كل قواه، على ضرب القيادة والقائد، فالإخلال بالوسطية في موضع القيادة والقائد، سوف يجعل ثقل الحرب، وجهد العدو ينصب على تلك الجهة التي يكون فيها، ولعلها لا تقوى على تحمل ذلك كله، إلا بمؤازرة سائر الجيش لها، فإذا كانت

بعض قطعات الجيش أبعد عن القائد والقيادة، فإن تعاطيها العملي، سيكون أكثر بطؤاً وضعفاً..

رابعاً: أن يكون القائد في المواقع المتقدمة، تجاه العدو، ليعطي مثلاً في الإقدام، والشجاعة، وعدم تهيب العدو وحشوده، فيكبت العدو بذلك، ويعطي أيضاً جرعة من الشجاعة، والإقدام والحماسة لمن هم تحت إمرة القائد، وتحت قيادته.

ولعل هذا هو السبب في أنه «عليه السلام» قال لمعقل: «فقف من أصحابك وسطاً»، ولم يقل: «قف وسط أصحابك»، لأن العبارة الثانية تعني: أن يكون قسم من أصحابه ردءاً له في وجه العدو، وأن العدو لا يستطيع أن يصل إليه، إلا بعد أن يُسقط مقاومة هذا القسم الذي يفصله عنه..

مراعاة العامل النفسي:

وقد ظهر أن على القائد أن يملك الخبرة الكافية بالمؤثرات النفسية للمواقف والممارسات، ليتمكن من ضبط حركة الممارسات المؤثرة في إنتاج الإيحاءات النفسية التي يتوخاها في سياق عمله الجهادي..

ولذلك أمر «عليه السلام» معقلاً: بأن لا يقترب في موقفه من العدو اقتراب من يريد أن ينشب الحرب، ولا يبتعد عنه ابتعاد الخائف، فيطمع عدوه بنفسه..

لا حرب إلا بأمر الإمام:

وقد ألزم الإمام «عليه السلام» قائده بعدم الدخول في الحرب إلا بأمر من الإمام، وهذا يعطي:

أولاً: إن قرار الحرب مع العدو، وحتى الإصطفاف في ميدان القتال، لا يكون بيد العاملين في الميدان، بل هو بيد من يملك جميع المعطيات التي تجب مراعاتها قي قرار من هذا القبيل.. لأن حرب الصغار لا تبقى صغيرة، بل هي تكبر وتتسع، وتفرض نفسها على الكيان العام كله.. وليس لأحد الحق في أن يفتئت على غيره في أمر كبير ومصيري، وخطير كهذا..

ثانياً: إن قرار الحرب بيد شخص واحد، وهو شخص الإمام والقائد العام..

ثالثاً: إن هذا لا يشمل صورة الدفاع عن النفس، حين يهاجمه الطرف الآخر..

رابعاً: إنه لا يحق للقائد الميداني أن يتظاهر بما يثير حفيظة العدو، ويدعوه إلى الهجوم عليه.. وقد دل على ذلك قوله «عليه السلام»: «ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب».

خامساً: ليس للقائد الميداني أن يظهر من الضعف، ما يغري العدو به، لأن هذا يوصل إلى الحرب أيضاً، ولكن بصورة مبطنة.. ولذلك نهاه أمير المؤمنين «عليه السلام» عن ذلك بقوله: «ولا تباعد

عنه تباعد من يهاب البأس».

الشنآن، لا يسقط الواجب:

وقد حذر «عليه السلام» معقلاً وأصحابه من أن يحملهم شنآن العدو لهم (أي عداوته، وبغضه وسوء خلقه) على قتاله قبل دعوته الحق، وإقامة الحجة عليه، والإعذار إليه، بالإحتجاج القوي الذي يجعل من يقاتلهم بعده معذوراً عند الله، ولا يلومه أحد.

علي × وأهل الأنبار:

قال المنقري: وجاء علي حتى مر بالأنبار، فاستقبله بنو خشنوشك، دهاقنتها.

قال سليمان: «خش: طيب. نوشك: راض. يعني بني الطيب الراضي، بالفارسية».

فلما استقبلوه نزلوا، ثم جاءوا يشتدون معه [وقد حملوا إليه الأطعمة والعلوفة، فقال لهم علي]: ما هذه الدواب التي معكم؟! وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟!

قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء.

وأما هذه البراذين فهدية لك.

وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً.

قال: أما هذا الذي زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع هذا الأمراء، وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم،

فلا تعودوا له.

وأما دوابكم هذه، فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم.

وأما طعامكم الذي صنعتم لنا، فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن.

قالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه.

قال: إذاً لا تقومونه قيمته، نحن نكتفي بما دونه.

قالوا: يا أمير المؤمنين فإن لنا من العرب موالي ومعارف، فتمنعنا أن نهدي لهم، وتمنعهم أن يقبلوا منا؟!

قال: كل العرب لكم موال، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم. وإن غصبكم أحد فأعلمونا.

قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا.

قال لهم: ويحكم، نحن أغنى منكم.

فتركهم، ثم سار[1].

---

(1) صفين للمنقري ص143 و 144 وبحار الأنوار ج32 ص424 و 425 وج72 ص356 و 357 وج100 ص55 و 56 ونهج السعادة ج2 ص141 - 143 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص203 و 204 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص62 و 63 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص537 و 538 والمعيار والموازنة ص133.

وعند ابن أعثم:

فقالوا: يا أمير المؤمنين! فإن لنا في أصحابك معارف، فأذن لنا أن نهدي لهم هذا الطعام وهذه العلوفة.

فقال: ذلك إليكم، ولست أمنعكم من الهدية، ولا أمنع أصحابي منها، ولكن إن أخذ أحد من أصحابي منكم شيئاً على طريق الغصب فأعلموني بذلك ـ والسلام[1].

ونقول:

في هذا النص دلالات على أمور عديدة، نذكر منها:

سنن سيئة ومرفوضة:

إن الحكام الذين استولوا على الخلافة، وسبقوا علياً «عليه السلام» قد سنوا في الناس أموراً كرهها علي «عليه السلام» لأجل ما لها من آثار، وما تحمله من دلالات..

ومن هذه الأمور التي كرهها ما ذكر في النص المتقدم، فإنه لم يكن هناك مبرر لحمل الناس على مثل هذا التصرف، أو لقبوله منهم ـ لو كانوا هم الذين ابتكروه، وبادروا إليه ـ لأن بيت المال كان يوفر للجيوش المدافعة ما تحتاج إليه. فلماذا يتحمل الناس أمثال هذه النفقات؟!

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص468 و (ط دار الأضواء) ج2 ص555.

ولو قبلنا أن الناس كانوا في بعض البلاد، أو في بعض المواسم في بحبوحة تسمح لهم بتقديمات كهذه، فإن غيرهم أو في مواسم أخرى لم يكونوا قادرين على مثل هذه الهدايا والعطاءات..

على أنه لا مبرر للطمع بأموال الناس، فإن ترك أموالهم لهم سوف يجعلهم أكثر تمكناً ويسراً، ويجعلهم قادرين على التوسعة على عيالهم وذويهم، وقد يمكنهم ذلك من توسعة نشاطاتهم الإنتاجية، وتصير البلاد في سعة من الرزق، وبحبوحة من العيش.

ولا ينبغي أن ننسى أن التزلف للحاكم بالأموال والعطايا. بالإضافة إلى أنه يشجع على شيوع الرشوة بينهم، يجعل الحاكم يعتاد على أمر سيء، من حيث أنه يقوي فيه غروره، ويجعله يفكر في رعيته على أنهم مجرد وسائل إنتاج للأموال، ومصدر لغنى.

ثم إن ذلك يسقط حرمة الناس عنده، إذ إنه بدل أن يفكر هو في البحث عن مصادر الغنى لهم، تنعكس القضية ليتوقع أن يكونوا هم الذين يفكرون في توفير الأموال له. وبدل أن يكون هو الذي يلتمس راحتهم ورضاهم يكونون هم الذين يلتمسون رضاه عنهم، ويسعون لشراء هذا الرضا بأموالهم، وتعبهم وعرقهم..

ويتضاءل من ثم إحساسهم بالكرامة، ويصبحون أناساً متزلفين لأشخاص لا يحترمونهم. وهم لا يحترمون أولئك الناس..

وهذا الخُلق مرفوض عند أمير المؤمنين «عليه السلام»، وهذه المقاصد مدانة، ولا بد من التخلص منها..

المقاصد والغايات:

ويرد سؤال مفاده:

إذا كان هذا هو واقع الحال، فإن المتوقع هو أن يبادر «عليه السلام» إلى رفض ما جاؤوه به، من دون حاجة إلى هذه الأسئلة التي طرحها عليهم..

ويجاب:

بأن هؤلاء الدهاقين لم يتمكنوا بحسب الظاهر من أن يعلنوا بأنفسهم للناس عن مقاصدهم وغاياتهم، لكي يبين لهم خطلها وفسادها، ويعلن رفضه لها..

ولو كانت غاياتهم ومقاصدهم سليمة وقويمة، فلماذا لا يقبلها منهم، ويرضى بها عنهم، وتكون مصدر إعجاب بهم، وتشجيع لهم؟!

أي أنهم لو جاؤوا بتلك الهدايا ولو بهدف المشاركة في دفع الظالمين والمعتدين.. فإن علياً «عليه السلام» سيكون مسروراً بذلك، ولربما قبل تلك الهدايا منهم.

ولا بد لكل قائد حكيم، غيور على مصلحة رعيته: أن يفعل ما فعله أمير المؤمنين «عليه السلام» هنا، وأن يسأل حتى حامل الهدية إليه عن غاياته من إهدائها، فإن ذلك يدخل في سياق ضبط الأمور، وتصويبها.

البحث عن الجدوى:

وبذلك نتعلم من أمير المؤمنين «عليه السلام» أن أول سؤال ينبغي أن يطرحه الإنسان على نفسه، حين يريد الإقدام على أي عمل، هو السؤال عن الجدوى والأثر، والقيمة الإنسانية، والأخلاقية والشرعية، وغيرها لكل عمل يقدم عليه..

وهذا هو ما ينبغي للحاكم أن يستنطق الناس ويسألهم عنه.

ولذلك قال «عليه السلام» لأولئك الدهاقين، وهو يفند لهم تصرفهم هذا:

«أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به الامراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء، وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له».

وقد اكتفى «عليه السلام» بذكر الحد الأدنى وهو عدم النفع، ولو أنه تجاوز ذلك إلى القول بأنه قد يضر الأمراء على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً، فلربما اشتبه عليهم الأمر في بعض وجوهه، فيتوهمون أنه سيكون مضراً للأبرار، ولغيرهم، حتى من هو كعلي، والحسن والحسين، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر وغيرهم.. مع أنهم منزهون عن الوقوع في مثل هذا الشرك الشيطاني..

الدواب في الخراج، والطعام بالثمن:

ولا شك في أن جيشاً عظيماً يذهب لمواجهة حرب كبيرة

وخطيرة قد تستمر وتتواصل شهوراً، وربما تمتد إلى سنوات، سوف يحتاج إلى الكثير من الدواب التي تحمل الأثقال، أو يستفاد منها في ساحات الحرب والقتال، ويحتاج أيضاً إلى الكثير من الطعام وهؤلاء الدهاقين جاؤوا بطعام وبراذين.

وقد رضي «عليه السلام» أن يأخذ منهم الدواب والطعام. ولكنه أورد كلامه بنحوٍ يفهم منه:

أولاً: إن الدواب والخراج لا تزال مملوكة لهم، ولذا نسبها إليهم، فقال: «دوابكم وطعامكم». ولم يقل: الدواب والطعام، مما يعني: أنه ليس لأحد أن يستبيح أخذ شيء منهما بأي عنوان كان، إلا وفق ما تفرضه أحكام الملكية.

ثانياً: إن القرار لا يزال بيد أصحاب الدواب والطعام.

ثالثاً: لم يقل لهم عن الدواب: «إن أردتم أن نأخذها منكم»، لأن الإرادة تتبلور بسبب الإضطرار إلى إعطائها، ولو حياءً، أو خوفاً من ضرر يلحق بهم، بل قال: «إن أحببتم أن نأخذها». فشرط أن تكون إرادة الإعطاء ناشئة عن حب ورغبة.

رابعاً: إنهم حتى لو أحبوا إعطاءها، فإنه لا يأخذها منهم مجاناً، بل الدواب تحسب من الخراج، والطعام يؤخذ بثمنه..

خامساً: إنه «عليه السلام» لم يرضَ بأن يكونوا هم الذين يقومون الأطعمة.. حذراً من أحد أمرين: المحاباة منهم في أثمانها. وهذا قد يكون ظلماً لصاحب الطعام حين يكون شكلياً، وقد يكون فيه إجحاف

على بيت المال. إذا زادت أثمانها عما هو مقبول ومعقول، وهو مرفوض أيضاً، لا سيما وأنه يأتي في أشد الأوقات حساسية. ويمكن الإكتفاء بما قيمته أقل من ذلك. ولذلك عرضوا عليه أن يقوموها قال: «إذاً لا تقومونه قيمته، نحن نكتفي بما دونه». أي أنكم سوف تقوّمون بأغلى من قيمته الحقيقية مراعاة لي. مع أن سد الحاجة لا يحتاج إلى ما هو بهذه الجودة العالية.

سادساً: إن الدواب التي يأخذونها منهم وتحسب من الخراج، يكون تقويمها بيد الآخذ، لأنه هو الذي يحتسب ثمنها من الخراج، من حيث إنه هو الذي سيطالبهم بما تبقَّى عليهم منه، بعد احتسابها.

سد الذرائع:

ويلاحظ هنا: أن أولئك الدهاقين قد فهموا أنه «عليه السلام» قد أوصد هذا الباب نهائياً، وأن قراره فيه حازم وحاسم، فطرقوا باباً آخر توهموا أنه يخرج علياً «عليه السلام»، وهو أن تكون الهدية إلى مواليهم وأصدقائهم في جيشه «عليه السلام»، لأنه يبدو وكأنه يتصرف على خلاف الحكمة، أو يمارس سياسة ظالمة لا يجيزها له شرع ولا عرف، ولا عادة، وربما حرك ذلك بعض أصحابه ضده أيضاً..

ولكن علياً «عليه السلام» قارعهم الحجة بالحجة، فأبطل حجتهم هذه أيضاً.

فأولاً: مواليهم لا ينحصرون في فئةٍ أو أشخاص بأعيانهم، لأن بلادهم بعد أن فتحت، وتركهم المسلمون يعملون في تلك الأرض أصبحوا مَوَالٍ لجميع المسلمين لا لشخص بعينه، فما معنى تخصصيهم الهدايا بأشخاص بأعيانهم، مع أن الفتح قد كان بهمة جميع العرب، وتعاضدهم، ومشاركتهم الفاتحين بصور مختلفة؟!

ثانياً: إنه ليس للمسلمين أن يقبلوا هديتهم، لأنها إنما جاءت على سبيل التزلف والتقرب لبعض الأعيان، رجاء تحصيل بعض المنافع والإمتيازات عن طريقهم..

نحن أغنى منكم:

وحين ألمح «عليه السلام» لهم من طرف خفي أن بالإمكان السماح بالهدية.. بشرط أن لا يكون هناك غصب وعدوان، بادروا إلى عرض هديتهم عليه أيضاً، فجاءهم الجواب القاطع بالصد، والرفض، ولكن لا على سبيل القهر والإلزام بالقرار الذي لا تعرف حيثياته أو مبرراته، بل جاء معللاً ومدعَّماً بالحجة والدليل، حيث قال لهم بحزم وزجر:

«ويحكم، نحن أغنى منكم».

فقطع بذلك دابر إصرارهم، ولكن بالحجة والدليل، لا بالتسلط والجبرية وفرض الرأي.

علاقة الحكام بالرعايا:

1 ـ وبذلك يكون «عليه السلام» قد حدد للحكام نهجاً في التعامل مع هذا النوع من التصرفات التي تكون لها غايات ومقاصد نفعية وشخصية، ومن شأنها أن تخل بالعلاقة المتكافئة والمتوازنة بين الحاكم والرعية، حيث ينجر تلقائياً إلى التمييز بين من يقدم له الهدايا وبين غيره.. وتصبح علاقته بالأفراد تحت تأثير هذه المنافع الشخصية. ولا تبقى علاقة الوالد الرحيم بأبنائه.

2 ـ وتتأكد ضرورة الإلتزام بهذا النهج العلوي القويم وإشاعته وتكريسه، ولا سيما إذا كان أصحاب هذه الهدايا هم من الموالي، الذين كانوا بسبب سياسات حكامهم السابقين يشعرون أنهم بحاجة إلى هذا النوع من التعامل بعد أن حرمهم أولئك الحكام من أبسط حقوقهم، وأن هذه الهدايا قد تفتح أبواب الأمل أمامهم بالحصول على فتات مما يسقط من موائد التخمة بالامتيازات الظالمة التي اختص الحكام بها أنفسهم وذويهم، وعشائرهم، ومحبيهم، ومن شاؤوا من قومهم.

3 ـ وهذا الموقف العلوي يعطي: أن على الحاكم والإمام أن يكون ذا نظر ثاقب. وأن يبحث عن الدوافع والغايات، والأسباب والمسببات في كل ما يواجهه من قضايا، ولا يكتفي بالظواهر البريئة التي تخفي وراءها الأسواء والأدواء، والتعب والعناء، والشقاء والبلاء..

لا ينبغي قبول هدية الدهاقين:

وحين رأى إصرار الدهاقين على تسويق هداياهم، أصدر «عليه السلام» إعلاناً يقول:

«ليس لأحد من المسلمين أن يقبل هدية أولئك الدهاقين».

ولعل السبب في ذلك هو:

أولاً: كفرهم، أو شركهم، ويريد أن يكون التعامل معهم ضمن حدود معينة، فلا تصل العلاقة إلى حد ارتفاع الكلفة بينهم وبين سائر المسلمين، والإختلاط التام الذي لا حدود له والركون إليهم، ربما لأن ذلك من موجبات تأثر ضعفاء المسلمين بهم، وبعاداتهم، والرضا، بل والأنس بكفرهم، وانحرافهم، وبما يرتكبونه من مآثم..

إلى غير ذلك من سلبيات لا يرضى الإمام الحق أن يبتلى بها الناس الذين يرعى شؤونهم، ويتحمل مسؤولية حفظهم، وتعليمهم، وتربيتهم على الفضائل والكمالات، والقيم والمثل العليا.

ثانياً: لهذه الهدايا سلبياتها على روحيات الناس، وعلى نظرتهم وتعاملهم مع غيرهم، إلى غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه..

عين راحوما والراهب:

قال المنقري: وأقام علي «عليه السلام» بالأنبار يومين، فلما كان في اليوم الثالث سار بالناس في برية ملساء، وعطش الناس واحتاجوا إلى الماء، قال: وإذا براهب في صومعته، فدنا منه علي «عليه السلام»

وصاح به، فأشرف عليه، فقال له علي «عليه السلام»: هل تعلم بالقرب منك ماء نشرب منه؟!

فقال: ما أعلم ذلك، وإن الماء ليحمل إلينا من قريب من فرسخين.

قال: فتركه علي «عليه السلام» وأقبل إلى موضع من الأرض، فطاف به، ثم أشار إلى مكان منه، فقال: احفروا ههنا.

فحفروا قليلاً، وإذا هم بصخرة صفراء كأنما طليت بالذهب، وإذا هي على سبيل الرحى، لا ينتقلها إلا مائة رجل. فقال علي «عليه السلام»: اقلبوها، فالماء من تحتها.

فاجتمع الناس عليها فلم يقدروا على قلبها.

قال: فنزل علي «عليه السلام» عن فرسه.

ثم دنا من الصخرة وحرك شفتيه بشيء لم يسمع، ثم دنا من الصخرة وقال: باسم الله، ثم حركها ورفعها، فدحاها ناحية.

قال: فإذا بعين من الماء لم تر الناس أعذب منها، ولا أصفى، ولا أبرد. فنادى في الناس: أن (هلموا إلى الماء).

قال: فورد الناس فنزلوا وشربوا، وسقوا ما معهم من الظهر، وملأوا أسقيتهم، وحملوا من الماء ما أرادوا.

ثم حمل علي الصخرة وهو يحرك شفتيه بمثل كلامه الأول حتى رد الصخرة إلى موضعها.

ثم سار حتى نزل في الماء الذي أرادوا، وإذا ماؤه متغير، فقال

علي «عليه السلام» لأصحابه: أفيكم من يعرف مكان الماء الذي بتم عليه؟!

فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فانطلقوا إليه، فطلبوا مكان الصخرة فلم يقدروا عليه، فانطلقوا إلى الراهب فصاحوا به: يا راهب!

فأشرف عليهم، فقالوا: أين هذا الماء الذي هو بالقرب من ديرك؟!

فقال الراهب: إنه ما بقربي شيء من الماء.

فقالوا: بلى! قد شربنا منه نحن وصاحبنا، وهو الذي استخرج لنا الماء، وقد شربنا منه.

فقال الراهب: والله ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء، وإن لي في هذه الصومعة منذ كذا سنة ما علمت بمكان هذا الماء. وإنها عين يقال لها: عين راحوماً، ما استخرجها إلا نبي أو وصي نبي، ولقد شرب منها سبعون نبياً، وسبعون وصياً.

قال: فرجعوا إلى علي «عليه السلام» فأخبروه بذلك، فسكت ولم يقل شيئاً[1].

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص468 و 469 و 470 و (ط دار الأضواء) ج2 ص555 و 556 وكتاب الأربعين للشيرازي ص63 و 64 والفضائل لشاذان ص286 و 287 وبحار الأنوار ج33 ص41 و 46 والأمالي للصدوق ص155 ومدينة المعاجز ج1 ص498 والإرشاد للمفيد ص176

نص المنقري:

تقول رواية ابن أعثم:

إن هذه القضية قد حصلت بعد أن ساروا ثلاثة أيام من الأنبار إلى جهة هيت.

لكن رواية المنقري تقول: إنها حصلت بظهر الكوفة..

ونظن قوياً: أن كلمة الكوفة وردت سهواً، وأن الصحيح هو كلمة الأنبار.

وقد يؤيد ذلك: أن المنقري قد أورد هذه القصة بعد أن بلغ في الحديث إلى ذكر ما جرى في الأنبار.

والنص الذي ذكره المنقري هو التالي:

روى نصر، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال أبو سعيد التيمي، المعروف بعقيصا[1]: كنا مع علي في مسيره

والخرائج والجرائح ج1 ص222 والهداية الكبرى ص148 وإعلام الورى ج1 ص346 وكشف الغمة ج1 ص279 وخصائص الأئمة للشريف الرضي ص50 والمسترشد للطبري ص664 وإثبات الهداة ج2 ص43 و 524 وإحقاق الحق ج4 ص97 عن در بحر المناقب، وج8 ص722 - 725 عن مصادر أخرى.

(1) في القاموس: «وعقيصي مقصوراً: لقب أبي سعيد التيمي التابعي».

وفي منتهى المقال 132: «دينار، يكنى أبا سعيد، ولقبه عقيصا، وإنما لقب بذلك

إلى الشام، حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد عطش الناس واحتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علي حتى أتى بنا على صخرة ضرس من الأرض، كأنها ربضة عنز، فأمرنا فاقتلعناها فخرج لنا ماء، فشرب الناس منه وارتووا.

قال: ثم أمرنا فأكفأناها عليه.

قال: وسار الناس حتى إذا مضينا قليلاً.

قال علي: منكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟!

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فانطلقوا إليه.

قال: فانطلق منا رجال ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق [إليه] حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه.

قال: فطلبناها فلم نقدر على شيء، حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب منا فسألناهم: أين الماء الذي هو عندكم؟!

قالوا: ما قربنا ماء.

قالوا: بلى، إنا شربنا منه.

لشعر قاله، فجعل اسمه «ديناراً».

في الأصل: «التميمي» تحريف. وفي نسخة ابن أبي الحديد: «حدثنا سعيد التيمي المعروف يعقيصاء»، نقص وتحريف.

قالوا: أنتم شربتم منه؟!

قلنا: نعم.

قال [صاحب الدير]: ما بنى هذا الدير إلا بذلك الماء، وما استخرجه إلا نبي أو وصي نبي. ثم رجع إلى الحديث(1).

ونقول:

الإعلام المؤثر:

قد رأينا كيف أن أمير المؤمنين «عليه السلام» ينادي بنفسه ذلك الراهب ليسأله إن كانت هناك عين ماء في تلك المنطقة، لأن الجيش أصبح بحاجة ماسة إلى الماء، فلما أخبره بعدم وجود عين هناك.. بادر «عليه السلام» إلى بقعة معينة، وطاف بها، ثم أمر من معه بالحفر هناك، فحفروا، فظهرت لهم صخرة الخ..

والسؤال هنا هو: إنه إذا كان «عليه السلام» يعرف مسبقاً مكان تلك الصخرة والعين، ألم يكن يعرف أنه لا توجد عين ماء في تلك المنطقة سواها؟! فإن كان يعرف ذلك، فلماذا سأل الراهب؟! وإن كان لا يعرف ذلك الأمر الظاهر، فكيف عرف مكان الصخرة، وما تحتها،

---

(1) راجع: صفين المنقري ص145 وبحار الأنوار ج32 ص425 و 426 وج41 ص347 و 348 والغارات للثقفي ج2 ص781 ومناقب أهل البيت\ للشيرواني ص205 وينابيع المودة ج3 ص405 و 406 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص724 وج31 ص430.

وهو أمر في غاية الخفاء.. ولا سيما على رجل لم ير تلك الأرض من قبل؟!

ويجاب:

بأن هذا السؤال والنداء كان مقصوداً له «عليه السلام»، فإنه لم يكن له أن يستفيد ابتداءً من علومه الخاصة التي تلقاها عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، عن جبرئيل، عن الله تعالى، بل كان لا بد من أن تظهر الحاجة إلى الماء، ثم لا بد من معرفة الناس أنه لا سبيل لهم إلى الماء بالوسائل العادية، فإن تم له ذلك جاز له «عليه السلام» أن يستفيد من علومه الخاصة لتحصيل الماء لهم..

ولو أنه «عليه السلام» أخبر الجيش بأنه لا يوجد ماء ولا عين بالقرب منهم، ثم استخرج لهم تلك العين، فلربما ارتاب بعضهم بصحة ما أخبرهم به.

أما إذا سمعوا ذلك من الراهب المقيم، وأخبرهم ذلك بوجود الماء في مكان بعيد، وحدد لهم موقعه، كان ذلك أوقع في نفوسهم، وأقرب إلى اقتناعهم.

الكرامة.. تزيل الشبهة:

هناك من يواجه الشبهة بوعي وتدبر، ويبحث عن الحلول والمعالجات لها، فإذا حصل عليها يقذف بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ..

وهناك من يضعف أمام الشبهات ويستأسر لها، ولا يقدر على التخلص منها، حتى لو جاءته الأدلة الواضحة، والدلائل اللائحة، فإنه قد يعجز عن الملائمة بين الشبهة وبين حلولها ويزداد حيرة وضياعاً..

وقد كانت الأمور عند كثير من العراقيين على هذا المنوال، فكان لا بد من القفز من فوق العقل، والإتصال بالوجدان مباشرة، فكانت هذه الكرامات والمعجزات والإخبارات الغيبية هي اللغة التي يفهمها كل إنسان: الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والمسلم وغير المسلم..

ولذلك حدد أمير المؤمنين موضع الصخرة، وأمرهم بحفره، وظهرت الصخرة الصفراء، وكأنها مطلية بالذهب، وعجز عشرات الأشخاص عن اقتلاعها، ويقتلعها أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوة منحه الله إياها..

لمزيد من البصيرة وتأكيد الحجة:

ولكي يزداد الناس بصيرة، وتتأكد الحجة على الكبير والصغير، والعالم والجاهل منهم، وتزول كل شبهة، أجرى أمير المؤمنين مراجعة أخرى للأحداث بإرسال فريق من الناس إلى نفس الموضع عند الصومعة، لكي يتزودوا من مائها مرة أخرى، ولكنهم لم يهتدوا إلى الصخرة، ولا إلى العين..

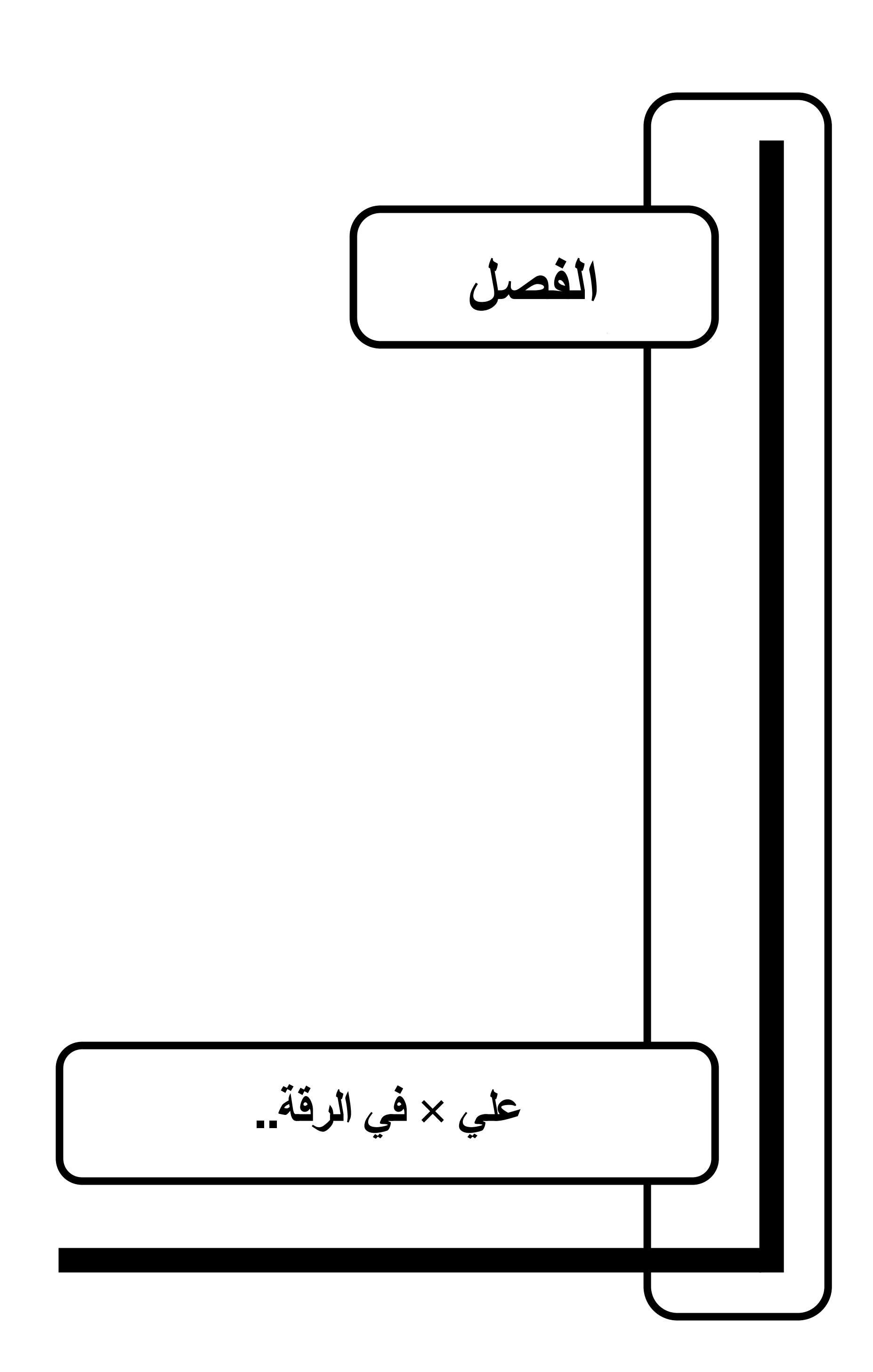
وسألوا الراهب عنها من جديد، فلم يجدوا عنده خبراً.

ولكنه استدرك في كلامه، فذكر لهم أمراً يؤكد لهم عنصر

الكرامة الإلهية لأمير المؤمنين «عليه السلام»، بصورة أوضح وأصرح، حين ذكر لهم أنه يعرف أن ثمة عيناً في ذلك المحيط اسمها «راحوما»، ولكنه لا يعرف مكانها، وأن هذه العين ما استخرجها إلا نبي أو وصي نبي. وقد شرب منها سبعون نبياً وسبعون وصياً من السابقين..

ليفهم الناس: أن علياً «عليه السلام» هو الوصي لخاتم الأنبياء والمرسلين، وقد شرب منها وسقاهم أيضاً..

وهذا أسلوب آخر منه «عليه السلام» لتأكيد الحجة عليهم، لأنه «عليه السلام» كما كشف لهم العين، وعرَّف مكانها، واقتلع الصخرة عنها بصورة إعجازية كان يستطيع أن يخبرهم بأن تلك العين قد عادت إلى الإختفاء من جديد.. ولكنه لم يفعل ذلك، بل أراد لهم أن يسلموا ذلك بأنفسهم.. فكان ما كان.


الفصل
علي × في الرقة..

علي × في الجزيرة:

قال المنقري:

ثم مضى أمير المؤمنين حتى نزل بأرض الجزيرة، فاستقبله بنو تغلب والنمر بن قاسط بالجزيرة.

قال: قال علي ليزيد ابن قيس الأرحبي: يا يزيد بن قيس.

قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: هؤلاء قومك، من طعامهم فاطعم، ومن شرابهم فاشرب.

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن الكلبي، عن الأصبغ بن نباتة، أن رجلاً سأل عليا بالمدائن عن وضوء رسول الله عليه الصلاة والسلام، فدعا بمخضب من برام قد نصفه الماء.

قال علي: من السائل عن وضوء رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!!

فقام الرجل، فتوضأ علي ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه واحدة، وقال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ.

ثم رجع إلى الحديث الأول، حديث يزيد بن قيس الأرحبي.

ثم قال: والله إني لشاهد إذ أتاه وفد بني تغلب فصالحوه على أن يقرهم على دينهم، ولا يضعوا أبناءهم في النصرانية.

قال: وقد بلغني أنهم قد تركوا ذلك، وأيم الله لئن ظهرت عليهم لأقتلن مقاتلتهم، ولأسبين ذراريهم.

فلما دخل بلادهم استقبلته مسلمة لهم كثيرة، فسر بما رأى من ذلك، وثناه عن رأيه(1).

من هيت إلى بلخ:

قال ابن أعثم:

ثم سار من منزله ذلك حتى نزل بمدينة هيت، ورحل منها حتى نزل بموضع يقال [له]: الأقطار، فبنى هنالك مسجداً، والمسجد ثابت إلى يومنا هذا.

ثم إنه عبر الفرات وشق البلاد حتى خرج إلى بلاد الجزيرة.

ثم سار يريد الرقة حتى نزل بموضع يقال له: البليخ، فنزل هنالك على شاطئ نهر البليخ(2).

---

(1) صفين المنقري ص145 و 146 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص205.

(2) الفتوح لابن أعثم ج2 ص470 و 471 و (ط دار الأضواء) ج2 ص556.

علي × في الرقة:

قال المنقري:

ثم سار أمير المؤمنين حتى أتى الرقة وجل أهلها العثمانية الذين فروا من الكوفة برأيهم وأهوائهم إلى معاوية، فغلقوا أبوابها، وتحصنوا فيها.

فنزل علي «عليه السلام» على شاطئ الفرات.

وكان أميرهم سماك بن مخرمة الأسدي في طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً في نحو من مائة رجل من بني أسد، ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق به منهم سبعمائة رجل[1].

ونقول:

علينا ملاحظة ما يلي من مطالب:

من طعامهم فاطعم:

لعل سبب توجيه هذا الخطاب ليزيد بن قيس، حيث أباح له «عليه السلام»: أن يأكل من طعام بني تغلب، ويشرب من شرابهم، هو أن يزيل الحرج عن يزيد بن قيس في ذلك، لأجل ما يقال عن عودة بني

---

(1) صفين المنقري ص146 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص205 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص187 وبحار الأنوار ج32 ص426 والفتوح لابن أعثم ج2 ص472 و 473 و (ط دار الأضواء) ج2 ص493.

تغلب إلى النصرانية..

فأراد «عليه السلام» أن يقول له: إن ظاهر أسلامهم يكفي، وأن ما يقال عن عودتهم إلى النصرانية، فهو ما عرف عن بني تغلب من ولعهم بشرب الخمر، فكانوا يتظاهرون للنصارى بما يلائم هوى نفوسهم، فشاع عنهم أنهم تنصروا مع أنهم ماكانوا يتعلقون من النصرانية إلا بشرب الخمر(1).

الوضوء ثلاثاً:

لا أرى أننا بحاجة إلى البحث حول ما زعمته الرواية المتقدمة، من أن علياً «عليه السلام» قد توضأ ثلاثاً، ومسح واحدة، ليبين لذلك الرجل وضوء رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإن مذهب علي،

---

(1) راجع: المصنف للصنعاني ج4 ص485 و 486 وج6 ص72 و 73 وج7 ص186 ومعرفة السنن والآثار ج7 ص141 والاستذكار لابن عبد البر ج3 ص251 وج5 ص258 وجامع بيان العلم وفضله ج2 ص86 وتنقيح التحقيق في أحاديث التعليق ج2 ص290 وتخريج الأحاديث والآثار ج1 ص380 وتغليق التعليق ج4 ص515 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج6 ص269 وجامع البيان ج6 ص137 و 138 وأحكام القرآن للجصاص ج2 ص406 و 407 و 411 وج3 ص121 والجامع لأحكام القرآن ج6 ص78 ودقائق التفسير لابن تيمية ج2 ص17 و 19 وراجع: السنن الكبرى للبيهقي ج9 ص284 وكتاب المسند للشافعي ص353 والمغني لابن قدامة ج10 ص596.

وأهل بيته «عليهم السلام» وما عرف عنهم، وشاع وذاع، قديماً وحديثاً، هو: أن الوضوء مرة مرة، وقد بحث العلماء هذه المسألة، وسواها، وبينوها بما لا مزيد عليه..

ولا نرى اننا بحاجة إلى البحث في هذه المسألة هنا.

غير أن من الواضح: أن نفس السؤال عن وضوء رسول الله «صلى الله عليه وآله» يدل على أن الناس كانوا يعرفون أنه قد حدث تغيير في هذا الوضوء، وهم يبحثون عن الحقيقة، ويبدو أن السبب في سؤال هذا العراقي: هو معرفته بأن المخالف لهذا التغيير للحكم الشرعي في هذه المسألة، إنما هو علي «عليه السلام»، وأهل بيته، وهم أهل بيت النبوة.

وبلاد العراق قد فتحت بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» من قبل الخلفاء، الذين استولوا على الخلافة بعد الرسول، وسبقوا علياً «عليه السلام»، وقد أخذ الناس في تلك البلاد إسلامهم من ولاتهم، ومن الجيوش التي جاءتهم، وإنما يعلمهم هؤلاء الوضوء، الذي يوافق رأي ومزاج من يضربون بسيفه، ويحكمون باسمه..

ولكن بما أن بعض أصحاب علي «عليه السلام» ومن هم على رأيه، قد تولوا لبعض الفترات بلاداً في العراق، فسلمان وحذيفة، توليا المدائن، وعمار بن ياسر، تولى الكوفة.. وكان لهم أيضاً ولغيرهم من أصحابه «عليه السلام» حضور في الجيوش التي أنجزت الفتوحات، فإن الناس قد رأوا اختلافاً في كيفية الوضوء لدى أصحاب علي

«عليه السلام» من جهة، ولدى غيرهم من جهة أخرى؛ فدعاهم ذلك إلى السؤال عن وضوء رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فكيف نتصور أن يكون علي «عليه السلام» قد علمهم وضوءاً غير الوضوء الذي يرتضيه لنفسه، ثم يقول «عليه السلام» لهم: إن هذا هو وضوء الرسول «صلى الله عليه وآله»؟!

بنو تغلب والنصرانية:

وتقدم: أن بني تغلب قد خالفوا الشرط الذي وضعه على «عليه السلام» عليهم في تنصير أبنائهم، ثم تبين له: أن الإسلام كان فاشياً فيهم، فسرَّه ذلك..

ونقول:

إن إسلام بني تغلب لم يكن ـ فيما يبدو ـ عن وعي والتزام.. كما أن نصرانيتهم أيضاً كذلك، بل كانوا على درجة من الجهل، واتباع الهوى، والبحث عن اللذات، والشهوات، حتى لقد ورد أن بني تغلب ما كانوا يتعلقون من النصرانية إلا بشرب الخمر[1].

ولكن هذا لا يمنع من أن يكون فيهم من حسن إسلامه، والتزم بأحكامه.. من أجل ذلك نقول:

ربما كانت طائفة كبيرة منهم تعلن إسلامها، ولكنها تعيش مع

(1) تقدمت مصادر ذلك.

النصارى، وكأنها منهم، في سلوكها الديني، وفي ممارساتها، فيتعاطون شرب الخمر، وقد يحضرون معهم في كنائسهم مع أولادهم. وإن لم يخرجوا من دين الإسلام من الناحية الإعتقادية..

وبذلك يظهر: أن غضب علي «عليه السلام» منهم وتوعده لهم، لما بلغه من نقضهم ما عاهدوه عليه كان في محله.. كما أن سروره برؤيته شيوع الإسلام فيه كان أيضاً في محله.

علي × يبني مسجداً:

أمَّا بناء علي «عليه السلام» مسجداً في منطقة الأقطار، وقد بقي ذلك المسجد إلى زمن ابن أعثم.. فهو أمر طبيعي، من رجل لا تشغله أمور الحرب عن القيام بسائر واجباته، فيهتم بتربية الناس روحياً وإيمانياً كاهتمامه، وربما أكثر بطعامهم وشرابهم. وذلك لأن علياً «عليه السلام» لا يضحي بشيء في سبيل شيء آخر لا ربط له به.

أهل الرقة:

بالرغم من أن أهل الرقة قد تصرفوا بقسوة مع علي «عليه السلام»، وبالرغم من حساسية الموقف، وخطورته، فإن علياً «عليه السلام» لم يعنف عليهم، ولم يؤاخذهم بما يستحقونه، مع أنه كان قادراً على ذلك، وبالرغم من أن ما اقترفوه كان هائلاً، لأنهم إنما يعبثون بمصير الإسلام وأهله، وبدمائهم.. ويمكنون أعداء الدين من قتل سيد الأوصياء، وأخي الرسول وزوج البتول «عليها السلام»،

وقتل الحسنين «عليهما السلام»، وسائر الأخيار الذين كانوا معه، وستمتد أيديهم إلى كل مؤمن تقي.

لقد كان إغلاق أهل الرقة أبوابهم في وجه علي «عليه السلام»، هو غير سديد ولا رشيد، لأنهم يعرفون أن علياً «عليه السلام» لا يكره أحداً على أن يكون معه في حربه، كما أنه لا يخالف الشرع في تعامله، لا مع أعدائه، ولا مع أصدقائه.

بل يقارعهم الحجة بالحجة، ويزجي الموعظة، ويعاملهم بالرفق والأناة، فلماذا يغلقون ابوابهم دونه، ويأبون سماع حجته. لولا أنهم يعرفون عجزهم عن مواجهة الحجة بمثلها.

راهب بليخ، وكتاب عيسى:

قال ابن أعثم، والمنقري:

ونظر إليه راهب قد كان هنالك في صومعة له، فنزل من الصومعة وأقبل إلى علي «عليه السلام»، فأسلم على يده، ثم قال: يا أمير المؤمنين! إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا، يذكرون أن عيسى ابن مريم «عليه السلام» كتبه، أفأعرضه عليك؟!

قال علي «عليه السلام»: نعم، فهاته.

فرجع الراهب إلى الصومعة، وأقبل بكتاب عتيق قد كاد أن يندرس.

فأخذه علي وقبله، ثم دفعه إلى الراهب، فقال: اقرأه علي!

فقرأه الراهب على علي «عليه السلام»، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى، وسطر فيما سطر، أنه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة، ويدلهم على سبيل الرشاد، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لا يجزي السيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

أمته الحامدون، الذين يحمدون الله على كل حال، في هبوط الأرض، وصعود الجبال. ألسنتهم مذللة بالتسبيح والتقديس، والتكبير والتهليل.

ينصر الله هذا النبي على من ناواه، فإذا توفاه الله اختلفت أمته من بعده، ثم يلبثون بذلك ما شاء الله، فيمر رجل من أمته بشاطئ هذا النهر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقضي بالحق، ولا يرتشي في الحكم.

الدنيا عليه [أهون عليه من الرماد في يوم عصفت [به] الريح، والموت أهون عليه] من شرب الماء على الظمآن، يخاف الله عز وجل في السر وينصح الله في العلانية، ولا يأخذه في الله لومة لائم.

فمن أدرك ذاك النبي فليؤمن به، فمن آمن به كان له رضوان الله والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره، فإنه وصي خاتم الأنبياء، والقتل معه شهادة.

قال: ثم إنه أقبل هذا الراهب على علي، فقال: يا أمير المؤمنين! إني صاحبك لا أفارقك أبداً حتى يصيبني ما أصابك.

قال: فبكى علي «عليه السلام» ثم قال: الحمد لله الذي [لم يجعلني عنده منسياً، الحمد لله الذي] ذكرني عنده في كتب الأبرار.

قال: ثم سار وهذا الراهب معه، فكان يتغدى ويتعشى مع علي، حتى صار إلى صفين، فقاتل فقتل.

فقال علي لأصحابه: اطلبوه!

فطلبوه، فوجدوه، فصلى عليه علي «عليه السلام» ودفنه، واستغفر له. ثم قال: هذا منا أهل البيت. [واستغفر له مراراً].

ورواه المنقري عن عمر بن سعد، عن حبة، عن علي «عليه السلام»[1].

ونقول:

علي × يقبِّل كتاب عيسى:

ولا حاجة بنا إلى التذكير بأن تقبيل علي «عليه السلام» كتاب عيسى «على نبينا وآله وعليه السلام» حجة دامغة على أولئك الذين

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص471 و 472 و (ط دار الأضواء) ج2 ص556 وصفين المنقري ص147 و 148. وبحار الأنوار ج32 ص426 وج38 ص58 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص205 و 206 وراجع: العقد النضيد والدر الفريد ص85 ـ 87 وكتاب الأربعين للشيرازي ص64 و 65 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص283 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج5 ص99.

يعتبرون ذلك حراماً، بل كفراً، أو شركاً. وقد قبَّل النبي «صلى الله عليه وآله» الحجر الأسود، وقبَّله أيضاً الصحابة بما فيهم عمر بن الخطاب.

وهذا أمير المؤمنين «عليه السلام» يقبِّل كتاباً يقول راهب أسلم للتو: إن عيسى بن مريم «عليه السلام» قد كتبه، فدل ذلك على أنه «عليه السلام» قد أخذ كلام ذلك الراهب على محمل الجد، وصدَّقه فيما ادعاه من نسبة الكتاب إلى عيسى..

وقد جاء هذا التصديق قبل أن يقرأ أو يسمع أي شيء مما في ذلك الكتاب.. فهل كان «عليه السلام» يعلم بصدقه بطريق غير عادي أيضاً، كما كان يعلم بموضع العين التي شرب منها جيشه، وهي عين (راحوما)؟! ربما كان هذا هو الصحيح..

مضمون كتاب عيسى:

1 - لقد ذكرت الصحيفة العيسوية صفات أمة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأنهم يحمدون الله على كل حال، وأن ألسنتهم مذللة بالتسبيح، والتقديس إلخ..

ومن الواضح: أن الصفات المذكورة لا تنطبق على كثير من الناس في هذه الأمة، فهل هم ليسوا من أمته «صلى الله عليه وآله»؟! أم أن المقصود هو بيان حال أكثر الناس، والصفة الغالبة عليهم، والشائعة فيهم؟!

إننا مهما كان جوابنا على هذه الأسئلة نعلم: أن من يحارب إمامه، ومن يرتكب جريمة قتل سبطا الرسول، وأهل بيته «عليهم السلام» وأصحابه في كربلاء، ومن يبغض علياً وأهل بيته «عليهم السلام»، ويضطهد من يتشيع لهم، ويلتزم بنهجهم، لا يكون من أمته «صلى الله عليه وآله»..

ولعل المقصود بالأمة هو أهل البيت وشيعتهم.. وهم أهل الحق، والملتزمون بما ذكر في كتاب عيسى.. فيكون هذا التعبير منسماً مع مضمون الآية الكريمة: **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ)**[1].

2 - إن ما ذكرته هذه الصحيفة عن وصي محمد «صلى الله عليه وآله» الذي يمر بذلك المكان، وعن صفاته وحالاته، كان يكفي لتغيير مسار أمة بأسرها، وحملها على التزام الحق، والإستماتة في الدفاع عن أهله، ولكن الأمور لم تسر في هذا الإتجاه. ولا سيما مع ما رأيناه من موقف الألوف الكثيرة التي كانت في جيش علي «عليه السلام» من موضوع رفع المصاحف، وفرض التحكيم على أمير المؤمنين «عليه السلام»، وإجباره على القبول بأبي موسى الأشعري حكماً، ثم تكفيرهم أمير المؤمنين، لأنه قبل التحكيم، وقبل بالأشعري، ثم خروجهم عليه في حروب النهروان..

فيا ساعد الله قلبك يا أمير المؤمنين، كيف تحملت كل هذه البلايا

---

(1) الآية 120 من سورة النحل.

منهم، وكم لاقيت من الأذايا والمصائب معهم، حتى قلت لهم: «لقد ملأتم قلبي قيحاً».

رسائل ذكرها ابن أعثم هنا:

ثم ذكر ابن أعثم هنا: أن مكاتبات كثيرة جرت بين علي «عليه السلام» ومعاوية..

لكن المنقري ذكر: أن هذه المكاتبات قد جرت حين كان علي «عليه السلام» بالكوفة. وقد ذكرناها في فصل سابق، وذكرنا بعض ما يرتبط بها، وذكرنا الفقرات المهمة التي اختلفت فيها رواية المنقري مع رواية ابن أعثم..

فأغنى ذلك عن ذكرها.

علي × يكتب إلى معاوية من الرقة:

قال المنقري

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن رجل، عن أبي الوداك: أن طائفة من أصحاب علي قالوا له: اكتب إلى معاوية وإلى من قبله من قومك بكتاب تدعوهم فيه إليك، وتأمرهم بترك ما هم فيه من الخطأ، فإن الحجة لن تزداد عليهم بذلك إلا عظماً.

فكتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى معاوية، وإلى من قبله من

قريش..

سلام عليكم، فإني أحمد الله إليكم، الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد.. فإن لله عباداً آمنوا بالتنزيل، وعرفوا التأويل، وفقهوا في الدين، وبيَّن الله فضلهم في القرآن الحكيم، وأنتم في ذلك الزمان أعداء لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، تكذبون بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين، من ثقفتم منهم حبستموه، أو عذبتموه، أو قتلتموه.

حتى أراد الله إعزاز دينه، وإظهار رسوله، ودخلت العرب في دينه أفواجاً، وأسلمت [له] هذه الأمة طوعاً وكرهاً، وكنتم ممن دخل في هذا الدين إما رغبة وإما رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وفاز المهاجرون الأولون بفضلهم.

فلا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين، ولا فضائلهم في الإسلام أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به، فيحوب بظلم.

ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره، ولا أن يعدو طوره، ولا أن يشقي نفسه بالتماس ما ليس له.

ثم إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعاً.

فاتقوا الله الذي إليه ترجعون، **(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)**[1]»[2].

زاد الطوسي «رحمه الله» هنا قوله:

واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلاً.

ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه «صلى الله عليه وآله» [وسلم]، وحقن دماء هذه الأمة، فإن قبلتم أصبتم رشدكم، وهديتم (واهتديتم) لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة لن تزدادوا من الله إلا بعداً، ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطاً.. والسلام.

قال: فكتب إليه معاوية:

أما بعد.. فإنه:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وحز الرقاب

(1) الآية 42 من سورة البقرة.

(2) صفين للمنقري ص149 - 151 وبحار الأنوار ج32 ص429 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص209 و 210 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص69 و 70 وقريب منه في الفتوح لابن أعثم ج2 ص473 و (ط دار الأضواء) ج2 ص557 و 558 والأمالي للطوسي ص183 ح308 مع بعض الإختلاف بين رواية الطوسي وغيره، وراجع: الإمامة والسياسة ج1 ص68 وأنساب الأشراف ج3 ص80.

فلما وقف أمير المؤمنين «عليه السلام» على جوابه بذلك قال: **(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)**[1] »[2].

ثم ذكر ابن أعثم هنا رسائل عديدة تبودلت بين علي «عليه السلام» ومعاوية.. وقد ذكرناها في الجزء السادس والثلاثين من هذا الكتاب، فلا حاجة إلى ذكرها هنا.

ونقول:

لا بأس بالإشارة إلى ما يلي:

إن هذه الرسالة في غاية الأهمية، لأنها وضعت الإصبع على الجرح بصورة مباشرة.. وتزداد أهميتها وضوحاً، بالإضافة إلى دقة وحساسية الأمر الذي عالجته أنها قد أخذت بنظر الإعتبار حيثيات، ونظرت إلى خصوصيات لها ارتباط بالعوامل والحالات النفسية للناس.. وربما يتضح بعض ما نرمي إليه بملاحظة ما نذكره فيما يلي من عناوين ومطالب..

الإنتباه والحذر من التضليل:

تضمنت الرسالة تحذيراً من الوقوع تحت وطأة التضليل المتعمد.. ومن شأن تحذير كهذا:

---

(1) الآية 56 من سورة القصص.

(2) الأمالي للطوسي ص183 ح308.

1 ـ أن يثير الريبة والشك لدى الناس الذين يطلعون عليه، ويدعوهم للحذر، والتريث في اتخاذ القرار بالدخول فيما يقدمون عليه.

2 ـ أن يدفع المعنيين به إلى العودة إلى أنفسهم لمراجعة واقعهم، وتلمسه وتحسسه بانتباه شديد، والنظر في تفاصيله، والقيام بمقارنات أعمق وأدق.

3 ـ إنه «عليه السلام» قد حذر المخاطبين بكتابه وغيرهم من الوقوع تحت تأثير لبس الحق بالباطل.. وهذا يدعوهم جميعاً إلى تمييز الحق من الباطل، والبحث في المعايير والوسائل التي تمكنهم من ذلك.

4 ـ إذا كان لبس الحق بالباطل متعمداً، فهذا يدعو الناس أيضاً للتعرف على الذين يفعلون هذا الفعل الشنيع، ليحذروهم، وليكون على حذر في سائر الموارد.

ويخرجهم ذلك من دائرة السذاجة، والإستسلام لما يلقى إليهم. ويجرؤهم على الإعتراض، وعلى النقاش في كل ما يعرض عليهم مما يراد تسويقه، أو يراد جعله مرتكزاً لانطلاقة مشاريع شخصية من خلال استغلال جهد وتضحيات الآخرين.

وهو أيضاً يرفع مستوى الوعي، ويفسح المجال أمام التساؤلات والإعتراضات، والإستفهامات..

ويستعيد الناس حقهم بإعادة النظر في مواقعهم، والحق في اتخاذ القرار وفق ما يظهر لهم، لا وفق ما يقرره لهم الآخرون. ولا سيما

أولئك الذين أصبحوا في دائرة الشبهة والريب، والإتهام في نواياهم ومشاريعهم..

كما أنه يخرجهم، أو فقل يرتفع بهم عن مستوى الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق.

إلى قريش ومعاوية:

هذا.. وقد تقدم: أن أصحابه «عليه السلام» قد طلبوا منه أن يكتب إلى أهل الشام.. فأجابهم إلى ما طلبوه، ولكنه كتب إلى معاوية ومن كان من قريش في ذلك المحيط، لأنهم هم المهيمنون على الأمور، وبيدهم القرار، وليس للناس معهم أي دور إلا الطاعة ولا خيار لهم سوى المضي في إنفاذ أوامر هؤلاء، وتحقيق مآربهم.

ولعله «عليه السلام» أراد أيضاً أن لا يتفرد معاوية بالقرار، فلعل بين بني أمية من يرفع صوته بكلمة حق أمام سلطان الجائرين والمبطلين..

ولعل مضمون هذه الرسالة يتناهى إلى أسماع آخرين من الناس القريبين منهم، والذين يعيشون على موائدهم!!

أعظم وسائل المبطلين:

وغني عن البيان: أن أهم وأعظم الوسائل التي يستفيد منها أهل الباطل هي لبس الحق بالباطل. وذلك بخلط باطلهم ببعض الحق، ثم يقدم إلى الناس البسطاء على أنه هو الحق الذي لا محيص عنه.

ثم يتبعونه بإثارة زوبعة حماسية تصم الأسماع، وتعشي الأبصار، مع كثير من البهرجات، والشعارات الطنانة والرنانة، والغائمة.. والضرب على وتر العصبيات، وإثارة الغرائز والتجييشات العاطفية، والترغيب والترهيب، والدبدبة والكبكبة، والضجيج والعجيج، وما إلى ذلك.

يصاحب ذلك كمَّ أفواه أهل العقل والدين، إما بالإغراء بالمال أو بالجاه، فإن لم ينفع ذلك، فبالبطش بهم إن أحسوا منهم أنهم يريدون أن ينبسوا ببنت شفة تسهم ببيان الحق للناس، وتوقظهم من غفلتهم تلك.

وهذا هو ما أراد أمير المؤمنين «عليه السلام» لفت نظر الناس إليه، وإيقافهم عليه بكتابه هذا..

فن السلبية والرفض:

وقد تجد بعض الناس يرفض الباطل وأهله، ولكنه رفضه هذا يبقى في دائرة التشنيع والتشهير والإدانة..

غير أن من الواضح: أن الإقتصار على هذا لا يكفي في دفع الباطل، بل قد يكون الإقتصار عليه مضراً ومسيئاً إلى الحق وأهله..

فإن السلبية بهذا المستوى ليست هي الغاية والنهاية، ولا هي مطلوبة بذاتها على كل حال.. وإنما هي وسيلة وذريعة وأداة لدحض الباطل، فإذا فقدت هذه الخصوصية، فلا معنى ولا مبرر للإستفادة

منها..

أما إذا أصبحت السلبية من وسائل تقوية الباطل، وترسيخه، فلا بد من التخلي عنها، واعتماد غيرها من وسائل الجهاد والنضال..

وبعبارة أخرى: إن السلبية ليست سوى فن من فنون الحرب ضد الباطل، إنما يستفاد منها في مواقع تأثيرها في إضعافه، أو في تحقيق النصر عليه، وفي غير هذه الصورة لا بد من التخلي عنها.

وبعدما تقدم نقول:

أولاً: إذا كانت أساليب الرفض من شأنها أن تعطي الإنطباع عن أهل الحق بأنهم مجرد سبابين وشتامين. وأنهم جهلة ومعقدون نفسياً، وأنهم ظلاميون وحاقدون، فإنها تفقد معناها ومغزاها، وتفقد تأثيرها في دحض الباطل وإضعافه، فلا بد من التخلي عنها واعتماد ما هو أجدى وأنفع في ذلك، ولكن من دون التخلي عن مبدأ الرفض نفسه.

ثانياً: إنك إذا رفضت أمراً، فلا بد من أن تقدم البديل الصحيح عنه، وأن تثبت أن رفضك ليس مجرد وسيلة للهدم، وإنما هو مقدمة للبناء القوي والصحيح والسليم، فلا يمكن أن تنحصر وظيفتك في أن تقول للناس هذا غلط، وذاك غلط.. وتتركهم حيارى لا يعرفون البديل الصحيح والنافع..

التطبيق والبيان:

أما ما صنعه «عليه السلام» هنا، فهو كما يلي:

ألف: إنه «عليه السلام» أثار الموضوع بطريقة تبعده عن أن يكون هو الذي يتولى حسم الأمر، والحكم عليهم بالضلال، والوقوع تحت تأثير لبس الحق بالباطل، حيث إنه «عليه السلام» أشار إلى هذا التأثر بطريقة احتمالية، وكأنه يريد منهم ومن كل أحد أن يعرف أن هناك من يفعل ذلك، فلا ينبغي أن يغفلوا عن هذا الأمر، ويستسلموا لكل ما يقال.

ب: إنه «عليه السلام» لم يرد للناس أن يجهدوا أنفسهم باستحضار العناصر التي يحتم عليهم الإستفادة منها لتكوين تصور دقيق عن مسار الأمور.

وقدم لهم نموذجاً من الحقائق عن تاريخ الفئة التي يتعاملون معها، ويسيرون في ركابها، لكي يستفيدوا من تلك الحقائق في تحديد صفات وسمات وطبيعة أولئك الأشخاص الذين يمسكون بزمام الأمور، ولهم الأثر والدور الكبير في توجيه الأنظار وتحديد المسار، وفي صنع القرار، واتخاذ المواقف من المخالف والمؤالف..

ج: إنه «عليه السلام» قدم لهم النظير أيضاً والنقيض لهذه الفئة، ليتضح لهم: أن تاريخها يتناقض مع تاريخ تلك الفئة، في مسارها وفي أفكارها، وفي سماتها وصفاتها، وفي تاريخها ومواقفها، وفي أهدافها وغاياتها..

وإنما فعل ذلك ليعرف الناس أن إمكانية لبس الحق بالباطل كامنة في الفئة الأخرى التي تقف في وجههم، ثم ترك لهم هم أن يقرروا

ويختاروا على قاعدة: **(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)**[1].

د: إنه «عليه السلام» قد راعى في حديثه عن الفريق المناوئ له جانب الدقة والإنصاف، وتحاشى الإشارة إلى أي أمر يثير حفيظتهم، مع أنه مقدم على حرب طاحنة معهم.. فلم يعطهم أي مبرر لادعاء أنه قد أغضبهم، وتسبب بإخراج الأمور عن طورها..

ولكنه لم يرقق لهم الكلام إلى حد يطمعهم فيه، ويشعرهم بضعفه، وقوتهم.. حتى لا يطغى بهم شعورهم بالقوة، فيصدهم عن قبول الحق..

هـ: إنه قد صرح لهم بالحقيقة كلها. ومن دون مواربة، لأنه يريد لهم أن يكونوا على بصيرة من أمرهم.. فأشار إلى سابق كفرهم، وتكذيبهم لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإجماعهم على حربه، وذكَّرهم بما فعلوه بالمسلمين من حبس، وتعذيب وقتل، ولكنه لم يُغفل الإشارة إلى إسلامهم في جملة من أسلم.. مصرحاً لهم بحقيقة أن منهم من أسلم رغبة، ومنهم من أسلم رهبة.. إلا أنه لم يحدد الأشخاص بأسمائهم، وترك أمر ذلك إليهم..

ثم أشار إلى أن هناك فئة أخرى قد سبقت إلى الإسلام، وسبقت إلى الهجرة أيضاً..

---

(1) الآية 3 من سورة الإنسان.

وهذا المقدار من البيان لا يمكن لأحد أن يماري فيه، أو أن يكذبه، أو أن يدعي أنه يثير حفيظة أحد من الناس، وهو محكي ومتداول بين الناس كلهم، حتى بين هؤلاء الذين كتب إليهم، وأتباعهم وأشياعهم..

و: ثم أخذ بأيديهم وأوقفهم أمام مسلمات وضوابط لا يمكن لأحد أن يماري فيها أيضاً. لأنها مما تتوافق عليه العقول. ويخضع لها الوجدان. وترضاها الفطرة.

ز: إنه تحاشى الإستدلال بالآيات، وبالنصوص عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وتحاشى ذكر الأسماء أيضاً، فلم يذكر اسم أحد، لا ممن سبق إلى الإسلام والهجرة، ولا في جانب من كذب وحارب وآذى، ولم يؤمن بعد ذلك إلا رغباً أو رهباً.

ولعل السبب في ذلك:

أولاً: أنه لم يرد أن يفسح المجال للتأويلات، والتخريجات التي ربما تثير جدالاً يبعد الأذهان عن الحقائق، ويدخلهم في متاهات يصعب على الناس العاديين الخروج منها..

ثانياً: قد يلجأ بعض أهل الباطل إلى إنكار الحقائق، وتكذيب الثوابت..

ثالثاً: قد يتخذ البعض من هذه النصوص ومن الأحداث التي جرت ذريعة لإثارة العصبيات للناس الذين ينتسبون للأشخاص الذين خالفوا تلك النصوص، بادعاء أنه ينسب إليهم ما يسيء إلى مقامهم..

رابعاً: قد يلجأ بعضهم أيضاً إلى اختراع نصوص أخرى ينسبها

إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو إلى ابتداع مواقف وأحداث لا واقع لها، ليقابل بها ما أحرجه فأخرجه عن دائرة الصدق والأمانة، وصار في أجواء الإفتراء والتجني والخيانة..

ح: أما المسلمات الفطرية والعقلية، والوجدانية التي ذكرها «عليه السلام» فهي التالية:

1 - إن السابقين إلى الإسلام والإيمان قد تحقق لهم الفوز بسبقهم، وفاز المهاجرون، بحصولهم على الفضل بسبب هجرتهم..

2 - إن هذا الفوز كان نتيجة فعلٍ أقدموا عليه، وجهدٍ بذلوه باختيارهم وبمبادرتهم وسبقهم..

وهذا يعطي: أن للعمل الإختياري نفسه أثراً في الفوز، وأنه لا مجال لتفويت ذلك عليهم وإبطاله.. فإن هذا خلاف العدل.. قال تعالى: **(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)**(1).

وقال سبحانه: **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)**(2)..

فلا يصح قولهم: إنه تعالى يُكرِه العبد على المعصية، ثم يعذبه عليها -

(1) الآية 195 من سورة آل عمران.

(2) الآيتان 7 و 8 من سورة الزلزلة.

كما قال جهم بن صفوان[1]. بل اختيار الإنسان ومبادرته، وسبقه إلى الفعل هو الذي يأتي بالثواب.. أما إذا حصل إكراه وإجبار، فلا يبقى معنى للمثوبة ولا للعقوبة حينئذٍ.

3 - إن على الإنسان العاقل أن يعرف قدر نفسه.. فلا يدَّعي لنفسه قدراً ليس لها.

4 - إن عليه أن لا يعدو طوره ولا يتجاوز حدوده فيما يطلبه ويسعى إليه، لأن ذلك يجلب له الشقاء، والعناء في الدنيا والآخرة.. لأنه سيعجز عن القيام بما يجب، وسيفسد الأمور ولا يصلحها، إما لأجل التسبب في إعاقتها عن بلوغ ما ينبغي لها أن تبلغه، أو لأنه يتجاوز بها تلك الحدود التي ينبغي أن تقف عندها ولا تتخطاها.

نتائج تلك المقدمات:

وبعد ذلك كله، فإن المقدمات لا بد أن تفضي إلى نتائجها وفق ما قرره «عليه السلام».. ولأنه «عليه السلام» قد ساق الأمور، وبلغ بها الغايات على النحو التالي:

1 - إنه اعتمد الصراحة التامة في بيان ما أراد، فلا مواربة، ولا محاباة، ولا إبهام، ولا إيهام، ولا تحكم، ولا فرض رأي على الإطلاق.

---

(1) راجع: أوائل المقالات ص61.

2 ـ إنه لم يشر إلى أي شيء يمكن لأولئك الناس أن يتشبثوا به لرفض كلامه، أو النقاش، أو الخدشة فيه، من أي نوع كانت.

3 ـ لقد ابتعد «عليه السلام» عن كل ما يفسح المجال لأهل الريب للتأويل، أو الإحتمال، أو يدعو إلى اختلاق المبررات، أو اختلاق الفضائل، أو التحريف في الأحداث، أو في النصوص.

4 ـ إنه لم يخدش في الأشخاص، ولا أثار إلى أي شيء يثير الغضب، أو يحرك المشاعر، أو يوجب الإنتقاص لأي شخص، أو أي فريق كان..

5 ـ إنه اعتمد الإستدلال العقلي، والفطري، والوجداني، الذي يرضاه الناس كلهم، حتى لو كانوا من غير المسلمين..

6 ـ إن برهانه «عليه السلام» كان سهلاً وواضحاً قريب المأخذ، يفهمه الكبير والصغير، والعالم والجاهل، ولا يفسح المجال لخلط حقه بباطلهم..

7 ـ لقد قدَّم دعواه «عليه السلام»، وهي تتقلب في أحضان أدلتها الصريحة والواضحة، معتمداً على البداهة والوضوح والصراحة، فإن قريشاً إن كانت تدَّعي لنفسها حقاً في الخلافة، فإنها إن كانت تدعي ذلك بقرباها من رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

فهذه القربى بأي معنى أريد منها تسوق الأمر إليه «عليه السلام»، لأنه «عليه السلام» أقرب من كل أحد في الأمة منه «صلى الله عليه وآله»، فهو أخوه، وابن عمه، وصهره، والذي رباه، وكان

يتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع له كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمره بالإقتداء به، وكان إذا سأله أجابه، وإذا سكت ابتدأه.

وهو وارث علمه، وناصره، والمحامي عنه، والمجاهد بين يديه.. والمدافع عن دينه.. والعارف بكل أمره.

في حين كان غيره «عليه السلام» يحارب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وينابذه، ويبغي له الغوائل، ويصد الناس عنه، ويجهد في طمس دينه وما جاء به، ويتهمه بالسحر والجنون.. و.. و.. الخ..

وإن كان المعيار هو العلم بما جاء به «صلى الله عليه وآله»، والفقه في الدين والسابقة، فهو «عليه السلام» باب مدينة علمه، والأعلم بكتابه، والأفقه في الدين، وهو أول الناس إيماناً، وأفضلهم جهاداً، وأشد الأمة اضطلاعاً بأمور الرعية..

8 - وذكر «عليه السلام» مُسلَّمة أخرى تقول: إن خيار عباد الله، هم الذين يعلمون ما يفعلون.

لأن هناك من قد يُدَّعي له العلم.. ولكنه يستفيد من علمه هذا في غير ما يرضى الله سبحانه..

وقد يدعي بعض آخر: أن المطلوب ليس هو كثرة العلم، بل المطلوب هو حسن السياسة للعباد مثلاً، أو أن الأولى هو تقديم من يكون أكثر مالاً، باعتبار أن كثرة ماله قد تمنعه من العدوان على أموال الناس.. أو الأكبر قبيلة، لأن الملك يصان بالعصبيات القبلية، وما إلى ذلك..

فجاء الجواب منه «عليه السلام» ببطلان كل هذه الدعاوى، وما هو على شاكلتها.. لأن الصحيح هو: أن المعيار في الحاكم هو الأعلمية بالله، وبأحكامه بشرط أن يكون العالم عاملاً بعلمه، مهتماً بالاستفادة منه في إصلاح نفسه، أو محيطه، وكل ما يتصل به أو يعنيه من قريب أو من بعيد..

أما المال، فقد يكون من أسباب الإفساد.

كما أن حسن السياسة، لا يعطي الأمن من الخيانة في الأموال، ولا يضمن صحة قضائه بين الناس، ولا سلامة طريقته في تربيتهم، وتعليمهم، وحل مشاكلهم.. ولا.. ولا..

أما العصبية العشائرية، فهي الأشر والأضر، وقد كان الحكم الأموي شديداً في الإنتصار للعصبيات العشائرية، ولأنه كان في غاية السوء، وفي أحط الدرجات من النواحي الأخلاقية، والقضائية، والسياسية، والمالية، وسواها..

يدعوهم إلى الكتاب والسنة:

وحيث لا بد من مرجعية ينتهي إليها الناس في ما كانوا يختلفون فيه أو عليه، فإن بعض الحكام يجعل نفسه ورأيه، وقراراته ومصالحه هي المرجعية في كل شيء، فيكون المعيار في القبول والرد هو قوله، وفعله، وما يقرره، ويتوافق مع مصالحه..

أما أمير المؤمنين «عليه السلام» فقد نقض ذلك كله، وقرر أن

المرجعية له وللناس هي: كتاب الله، وسنة نبيه «صلى الله عليه وآله»، ولا يستطيع أحد أن يرد هذا، وأن يتردد فيه..

حقن الدماء:

ثم إنه «عليه السلام» دعاهم أيضاً: إلى أمر تميل إليه جميع النفوس، ويتمناه جميع الناس لأنفسهم، ولكل من يعز عليهم، وهو حقن دماء الأمة..

ما هو البديل؟!:

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» جعل من خَاطَبهم برسالته المشار إليها أمام خيارين:

الأول: أن يرضوا بالعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه «صلى الله عليه وآله»، وحقن دماء الأمة..

فتكون النتيجة هي: أنهم يصيبون رشدهم، ويهتدون إلى حظهم..

الثاني: أن يرفضوا هذا العرض، وأن يصروا على شق عصا الأمة، وعلى الفرقة.. فتكون النتيجة سيئة عليهم من جهتين:

أولاهما: أنهم سوف لا يزدادون من الله إلا بعداً..

الثانية: وكأنها نتيجة لسابقتها، وهي أن الله تعالى سوف لا يزداد عليهم إلا سخطاً..

ولكنه لم يذكر لهم الحرب، ولا هددهم بها..

من الذي هدد بالحرب؟!:

قلنا: إنه «عليه السلام» لم يذكر الحرب إلى من أرسل إليهم ذلك الكتاب، ولا أشار إليهم بشيء، بالرغم من أن ما عرضه عليهم هو من البداهة والوضوح بمكان.. ولو أنه «عليه السلام» هددهم بالحرب، إن رفضوا هذا العرض البديهي الصلاح لهم ـ في دنياهم وفي آخرتهم.. لما لامه أحد..

ولكنه «عليه السلام» عزف عن التلويح بها ولو من بعيد.. وترك الخيار والأمر كله بيدهم من هذه الجهة.. لكي لا يتوهم متوهم منهم: أن التهديد بالحرب يجعل لهم الحق في رفض عرضه هذا.. لأن لهم الحق أن يأنفوا من الإنصياع للتهديد..

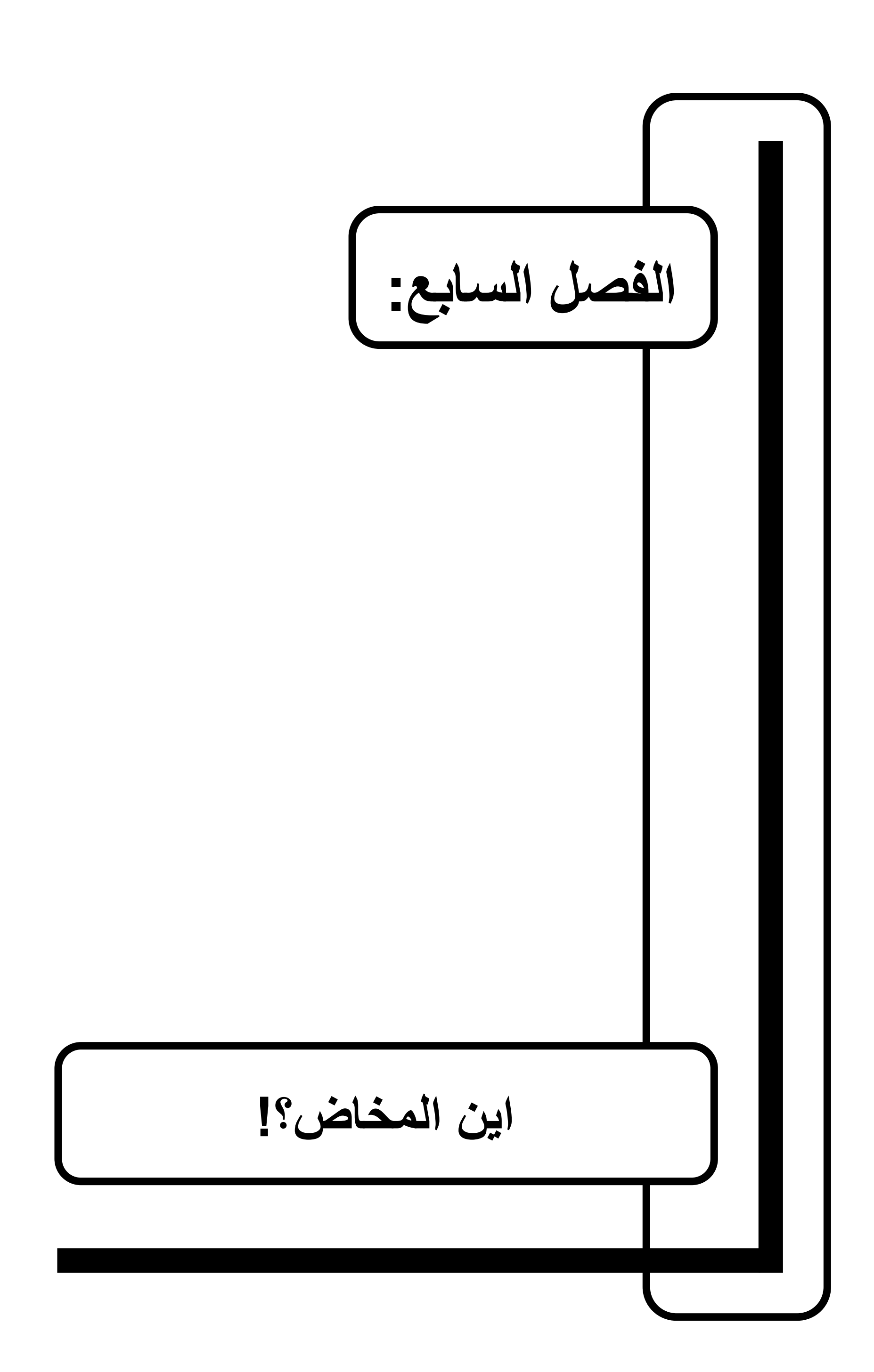
فجاءه الجواب الصريح والفاضح.. الذي لم يقتصر على مجرد التهديد بالحرب، وإنما يحمل إليه من خلال أميرهم معاوية قرارهم الحازم والحاسم بها، وهو قرار العاجز عن مواجهة البديهيات بغير التعنت، والإصرار غير المنطقي، ولا المفهوم، فقد كتبوا إليه:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

وقد ختم أمير المؤمنين «عليه السلام» هذا الفصل الغريب والعجيب منهم بقوله تعالى: (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي**

مَنْ يَشَاءُ)[1].

(1) الآية 56 من سورة القصص.



الفصل السابع:

اين المخاض؟!

يا جلند، أين المخاض؟!:

قال المجلسي:

بالإسناد يرفعه إلى عمار بن ياسر «عليه السلام» قال: لما سار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» إلى صفين وقف بالفرات وقال لأصحابه: أين المخاض؟!

فقالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين.

فقال لبعض أصحابه: امض إلى هذا التل وناد: يا جلند أين المخاض؟!

قال: فصار حتى وصل إلى تل، ونادى: يا جلند.

فأجابه من تحت الأرض خلق كثير!!

قال: فبهت، ولم يعلم ما يصنع، فأتى إلى الإمام وقال: يا مولاي جاوبني خلق كثير.

فقال: يا قنبر امض وقل: يا جلند بن كركر، أين المخاض؟!

قال: فكلمه واحد وقال: ويلكم، من عرف اسمي واسم أبي، وأنا

في هذا المكان وقد بقي قحف رأسي، عظم نخر، رميم، ولي ثلاثة آلاف سنة، ما يعلم المخاض؟!

هو والله أعلم مني، يا ويلكم، ما أعمى قلوبكم، وأضعف نفوسكم، ويلكم، امضوا إليه واتبعوه؛ فأين خاض خوضوا معه، فإنه أشرف الخلق بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»(1).

ومخاض الماء: الموضع الذي يعبر الناس فيه الماء، مشاة وركباناً.

ونقول:

لا بأس بملاحظة ما يلي:

يكلم الموتى ولا يعرف المخاض؟!:

تضمنت هذه الرواية مفارقة ظاهرة. والمراقب للأمر لا بد أن يدرك أن أمير المؤمنين «عليه السلام» الذي رأى الناس منه العجائب، حيث كان يخبرهم بالغيوب، ويريهم الغرائب بصورة تكاد تكون متواصلة منذ دخل بلاد العراق، وطيلة أحداث البصرة وحرب

---

(1) بحار الأنوار ج33 ص45 وج41 ص211 والفضائل لشاذان بن جبرئيل (ط النجف) ص140 و (ط سنة 1422 هـ) ص394 و 395 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص336 ومدينة المعاجز ج1 ص252 عن البرسي، وإحقاق الحق (الملحقات) ج8 ص728 عن در بحر المناقب لابن حسنويه، وعن كتاب الفضائل لابن بابويه، وعن الروضة.

الجمل.. لا يمكن أن يكون غير عالم بموضع المخاض..

وقد تأكدت هذه الحقيقة لهم، حين أظهر لهم المعجزة بالنداء الذي أمر بعض أصحابه بأن يطلقه على تل قريب، حيث أجابه بعض الأموات، حين سأله عن موضع المخاض..

وهذا يفسر لنا قول أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» له جواباً على سؤاله المشار إليه: «أنت أعلم يا أمير المؤمنين..».

فإن هذا الجواب يدل على أن أصحابه أو كثير منهم قد أصبحوا على قناعة تامة بأنه «عليه السلام» يملك قدرات غير عادية، اختصه الله تعالى بها دون سائر الناس..

ومن المعلوم: أن هذه القدرات لم تأته على سبيل الصدفة، أو بلا هدف وغاية. كما أنها لم تكن عطاءات لا تعنيهم، لأنها لم تكن مجرد أمور شخصية محضة، بل هي تعنيهم قبل غيرهم، إن لم نقل: إنها ألطاف وعنايات إلهية بهم، من حيث هي دلالات لهم على إمامته «عليه السلام»، ويراد بها إخضاع عقولهم، وإزالة الريب من نفوسهم، بأن الله تعالى هو الذي نصبه، وأوجب عليهم الإنقياد له، وفرض عليهم طاعته، والإنتهاء إلى أوامره وزواجره، والأخذ منه، واعتباره المرجعية لهم والملاذ في كل ما ينوبهم..

فهذه الدلائل تهدف إلى تسهيل أمر الإيمان لهم، وإيصالهم إليه وحصولهم عليه من أيسر السبل، ربما لأنهم كانوا غير مؤهلين لبلوغ المراد عن طريق الدلائل والبراهين الإقناعية، لأسباب متفاوتة. لعل

منها ما كان يشيعه ويبثه شياطين الإنس والجن فيهم من شبهات وأضاليل وترهات وأباطيل. وما يطلقونه من شائعات. وما أخذوه من غيره «عليه السلام» من مفاهيم خاطئة، وعادات سيئة، وطرائق ملتوية، وما يعتلج نفوسهم من رغائب وطموحات، تهفوا إليه قلوبهم من زينة الحياة الدنيا، ويهيمن على عقولهم، وفكرهم من اهتمامات سقيمة وباطلة.. ولا نريد أن نقول أكثر من هذا..

تكرار المحاولة:

وقد لاحظنا: أنه «عليه السلام» أمر مناديه بأن ينادي باسم «جلند» وحده، فأجابه من تحت الأرض خلق كثير.. فبهت ولم يدر ما يصنع..

فأرسل شخصاً آخر وهو قنبر، بعد أن أتم له مضمون النداء بذكر اسم الأب، وأن ينادي يا جلند بن كركر.. فلماذا لم يزود الشخص الأول بالنداء الكافي والوافي، لكي لا يواجه هذا الجواب الذي أوقعه في الحيرة؟!

بل لماذا لم يُرجع نفس الشخص الذي أرسله أولاً لينادي بالنداء التام ويأتي بالجواب؟!

ونجيب بما يلي:

أولاً: لا شك في أن علياً «عليه السلام» لم يخطئ في إرسال الشخص الأول، ولم يخطئ، ولم ينسَ أيضاً حين أمره بالنداء الذي

سمع فيه الجواب من ذلك الخلق الكثير أن يذكر له اسم أبيه. بل تعمد ذلك، ربما ليفهم أصحابه كثرة الخلق الذين ماتوا أو دفنوا في ذلك الموضع، حتى إن الاسم الواحد كان قد سمي به هذا المقدار من الخلق في مثل هذا المحيط المحدود.

ثانياً: إنه «عليه السلام» كان يريد للمحاولة أن تتكرر ليعرف الناس أن الأمر لم يكن مجرد تخيلات عرضت لشخص وقع تحت تأثير أجواء معينة. وكان لا بد من استبداله بآخر لكي لا يظن أحد أنه كان لا يزال متأثراً بما جرى له في المرة الأولى..

ثالثاً: قد يدور بخلد البعض: أن من وقع تحت تأثير الأوهام في المرة الأولى يصبح في معرض الوقوع تحت تأثيرها مرة أخرى.. ولكن مع تعدد المحاولة من قبل أكثر من شخص، فإن هذا الاحتمال يتضاءل يفقد حيويته، وواقعيته، حتى لو اتفقت الأحوال في الموردين. ولذلك أرسل في المرة الثانية رجلاً آخر، أصبح أكثر استعداداً لتحمل وطأة المشهد، حيث استبدل عنصر المفاجأة بعنصر التوقع، وتوطين النفس على التحمل..

جواب جلند بن كركر:

وقد رأينا أن جلند بن كركر لم يحدد لمناديه موضع المخاض، بل أرشده إلى العالم بها بطريقة استدلالية، باعتبار أن من عرف اسمه واسم أبيه، وعرف أنه مدفون في ذلك المكان، مع أنه قد مات قبل ثلاثة آلاف عام، ألا يعلم أين المخاض؟!

فيكون الجلند قد أرجع الناس إلى أنفسهم ليتفكروا في الأمر، ليكونوا هم الذين يجيبون أنفسهم على هذا السؤال، وليروا كيف أنهم يعيشون في متاهة، لا يرضاها أي كان من الناس لنفسه..

ماذا عن سند الرواية؟!:

إننا لم نطَّلع على سند لهذه الرواية يمكن الإعتماد عليه في الحكم بصحتها.. ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نعرض عنها ونتجاهلها، لأننا لا نملك دليلاً على كذبها.

لا سيما وأننا لم نجد فيها ما يخالف الأصول، والضوابط والمسلمات العامة وما استقر عليه المذهب. ورضيه وقبله أساطينه، وعلماؤه.

فإذا ألقينا نظرة على مضامين هذا النوع من النصوص، واستفدنا منها بعض اللطائف والإشارات إلى مفاهيم أو إلى معان أخلاقية أو سلوك اجتماعي معين، فلا نرى مانعاً من الأخذ بهذه الإستفادات على أساس أنها لا تصادم المسلمات، ولا سيما مع اعتماد قاعدة التسامح وعدم التدقيق في الأسانيد في غير الأحكام الإلزامية..

على أن تصرف الإمام «عليه السلام» قد لا يتعدى في بعض الأحيان دائرة التدبير للشؤون العامة، ويبقى في دائرة ما هو مباح، وراجح، من حيث جدواه في تحقيق الغرض الأقصى الذي يكون هو الموضوع للحكم التكليفي الشرعي.

وبعد أن ظهرت هذه المعجزة له «عليه السلام»، وتأكد أنه هو الإمام المنصوب من قبل الله.. انصرف إلى تدبير الأمر وفق مقتضيات السنن العادية التي يقدر عليها عامة الناس، فكانت قضية الأشتر التالية.

تهديد الأشتر لأهل الرقة:

قال ابن أعثم، والمنقري:

ثم دعا علي «عليه السلام» أهل الرقة، فقال: اعقدوا لي جسراً على هذا الفرات حتى أعبر عليه أنا وأصحابي إلى قتال معاوية.

فأبوا ذلك، [وقد كانوا ضموا السفن عندهم]، وعلم علي «عليه السلام» هوى أهل الرقة في معاوية، فتركهم ونادى في أصحابه: نمضي لكي نعبر على جسر منبج [وخلف عليه الأشتر].

قال: فخرج الأشتر إلى أهل الرقة مغضباً وقال: والله يا أهل الرقة! لئن لم تعقدوا لأمير المؤمنين جسراً لأجردن فيكم السيف، ولأقتلن الرجال، ولأحوين الأموال، [ولأخربن أرضكم، ولآخذن أموالكم].

فلما سمع أهل الرقة ذلك قال بعضهم لبعض: إن الأشتر والله يوفي بما يقول [وإن علياً خلَّفه علينا ليأتينا منه الشر].

ثم إنهم ركبوا خلف علي بن أبي طالب فردوه وقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين! فإننا عاقدون لك جسراً.

قال: فرجع علي إلى الرقة، وعقدوا له جسراً على الفرات، ونادى في أصحابه أن اركبوا!

فركبت الناس وعبرت الأثقال كلها، وعبر الناس بأجمعهم وعلي واقف في ألف فارس من أصحابه. [في ثلاثة آلاف فارس]، ثم عبر آخر الناس [رجلاً][(1)].

وقالوا أيضاً:

إن الخيل حين عبرت زحم بعضهم بعضاً، فسقطت قلنسوة عبد الله بن أبي الحصين الأزدي، فنزل، فأخذها ثم ركب.

فسقطت قلنسوة عبد الله بن الحجاج الأزدي، فنزل، فأخذها، ثم ركب، وقال لصاحبه:

فإن يك ظن الزاجري الطير صادقاً كما زعموا أقتل وشيكاً وتقتل

فقال له عبد الله بن أبي الحصين: ما من شيء أوتاه أحب إلي مما ذكرت.

---

(1) صفين للمنقري ص151 و 152 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج2 ص487 و 488 و (ط دار الأضواء) ج2 ص564 و 565 وتاريخ الأمم والملوك ج4 ص565 و 566 و (ط الأعلمي) ج3 ص563 والكامل في التاريخ ج3 ص281 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص68 وبحار الأنوار ج32 ص430 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص211 .

فقتلا جميعاً في صفين(1).

ونقول:

حسابات أهل الرقة:

1 - لقد أخطأ أهل الرقة في حساباتهم، وما فعلوه مع علي «عليه السلام» كان في غاية السوء، وهو حماقة ما بعدها حماقة.. ولو أن غير علي «عليه السلام» واجه منهم هذا الأمر لهدم حصنهم على رؤوسهم، ولانتقم منهم شر انتقام..

ولا ندري إن كان ما عرفوه من حلم علي «عليه السلام»، وطول أناته، وسياسته الرضية هو الذي جرأهم على هذا الموقف، أم أن الذي جرأهم عليه هو قصر نظرهم، وحمقهم، وسوء تقديرهم للأمور، أو الإثنان معاً؟!

فإن علياً «عليه السلام» هو الخليفة الشرعي الذي بايعه المهاجرون والأنصار، ومحاربة معاوية له تدين معاوية، وهي وصمة عار له، ولا تبطل خلافة علي «عليه السلام»..

هذا فضلاً عن أن البيعة لعلي «عليه السلام» يوم الغدير كانت

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج4 ص566 و (ط الأعلمي) ج3 ص564 والكامل في التاريخ ج3 ص281 وراجع: بحار الأنوار ج32 ص430 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص211 وصفين للمنقري ص152.

تكفي لإفهام كل أحد وجوب طاعته، أو صحة إقامته.. ونكث الناس للبيعة بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يبطلها..

2 ـ لن يعذر أهل الرقة بمخالفتهم له «عليه السلام».. ولا سيما بعد أن نزل «عليه السلام» بساحتهم، فكان يمكنهم أن يرسلوا من شاؤوا من عقلائهم، ليسمعوا ويعرفوا ما أبهم عليهم، ثم يقرروا على ضوء ذلك إن كان يسعهم مناوأته، أم تجب عليهم نصرته ومشايعته..

3 ـ إن ما فعلوه قد عرضهم للعقوبة الشرعية.. لا سيما إذا تأكد أن فعلهم هذا قد يحمل معه أخطاراً حقيقية على الإسلام وأهله، ولو بأن يؤدي إلى إضعاف أمر الإمام الشرعي، وإلى طغيان بعض الناس عليه، واستسهالهم مخالفته، ويجرؤهم على مناوأته، أو على الأقل التخلي عن نصرته..

هذا إن لم يوجب طمع أعدائه به، واستبسالهم في قتاله، وسقوط ضحايا أكثر مما كان يتوقع أو يفترض..

4 ـ وبعد أن صفح «عليه السلام» عنهم، ولم يروا منه إلا جميلاً.. كان ينبغي لهم أن يراجعوا أنفسهم، وضمائرهم، ويبادروا إلى تصحيح الخطأ الذي وقعوا فيه..

ولكنهم لم يفعلوا ذلك أيضاً حتى سمعوا من الأشتر ما سمعوا..

لماذا ترك الأشتر؟!:

وقد يتوهم متوهم: أن علياً «عليه السلام» هو الذي أمر الأشتر

بأن يتهدد أهل الرقة، بما تقدم ذكره..

ونحن وإن كنا نرى أنهم يستحقون أكثر من التهديد.. ولكننا نقول:

إن هذا يبقى مجرد تهمة لا شاهد لها ولا دليل عليها.. والذي نراه أنه «عليه السلام» لم يكن بحاجة إلى أن يأمر الأشتر بأي شيء من هذا القبيل، بل كان المطلوب هو أن يتركه على رسله، يتصرف بما يمليه عليه ضميره ووجدانه، وبحسب ما علمه من أحكام الشرع والدين في حق من يكون له موقف كهذا تجاه الخليفة الشرعي الذي بايعه المهاجرون والأنصار، ويعرض الدين وأهله للخطر، وللضرر المعنوي والمادي..

وهذا ما حصل بالفعل، فقد يعطي أهل الرقة درساً عملياً أفهمهم: أن حلمه «عليه السلام» عنهم لا يعفيهم من المسؤولية عند الله وعند الناس، وأن الناس سيعاملونهم بعده «عليه السلام» بغير هذه المعاملة التي تلقوها منه «عليه السلام»..

بل إن أي سوء يلحق بأي كان من أصحاب علي «عليه السلام»، وأي تعب أو نصب ينالهم، سوف يترك في نفوسهم أثراً سلبياً تجاه أهل الرقة لا تمحوه الأيام، لأنهم سيرون أن أهل الرقة شركاء في كل ما يصيبه «عليه السلام» ويصيب أصحابه..

فإذا كان هو «عليه السلام» يحلم عنهم، فإن غيره لا يفعل ذلك.

كيف لا يقيم علي × حدود الله؟!:

ويبقى هنا سؤال: وهو أنه إذا كانت عقوبة هذا الفعل مقررة شرعاً، ويعرفها الناس كلهم، فكيف جاز لعلي «عليه السلام» صرف النظر عنها؟! وهل يجوز له «عليه السلام» تعطيل أحكام الله؟!

ونجيب:

أولاً: إن ثبوت هذه العقوبة، لا ينافي أن يكون للإمام العادل الحق في رفع اليد عنها.. لمصلحة أخرى أكبر وأهم منها، وهي أن عليه أن يسوسهم سياسة هادية لهم إلى طريق الحق والخير، وأن يعلمهم ما يجهلونه، ويتألفهم على الحق، ويصحح انطباعاتهم، وفهمهم للدين وأحكامه، وهذا بالذات هو ما فعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين عفا عن أهل مكة يوم الفتح، وقال: اذهبوا، فأنتم الطلقاء.. وهذه كانت سياساته «صلى الله عليه وآله» في التعامل مع المنافقين، ومع المؤلفة قلوبهم، ومع غيرهم من الخطائين من أصحابه..

ثانياً: قد يقال: إن هذه العقوبة إنما تثبت عليهم لو أنهم مضوا على ما هم عليه، ولم يتراجعوا، ولم يخضعوا للحق.. انسياقاً مع أهوائهم، وعصبياتهم، وجحوداً منهم للحق، وطغياناً منهم على الإمام..

أما إذا كان ذلك عن غفلة، أو عن شبهة، ثم تنبهوا من الغفلة، أو زالت عنهم الشبهة، أو تراجعوا عن طاعة أهوائهم وعصبياتهم، وعن جحودهم، وعن طغيانهم، وكان هذا التراجع بسبب حكمة الإمام ـ

وإعمال هذه الحكمة، والدعوة إلى الحق والخير بالموعظة الحسنة من أظهر وظائفه «عليه السلام» ـ فإن موضوع العقوبة ينتفي من أساسه، ولا يبقى له مبرر ولا موجب..

القيادة والقائد:

وقد أعطى «عليه السلام» درساً بليغاً في عمل القائد الحكيم الذي يضحي بنفسه في سبيل جيشه، فإنه «عليه السلام» بوقوفه مع ألف أو ثلاثة آلاف فارس يرقب عبور جيشه للجسر قد أعطى درساً بليغاً للتدبير الحربي الدقيق والصائب..

ونوضح ما نرمي إليه ضمن النقاط التالية:

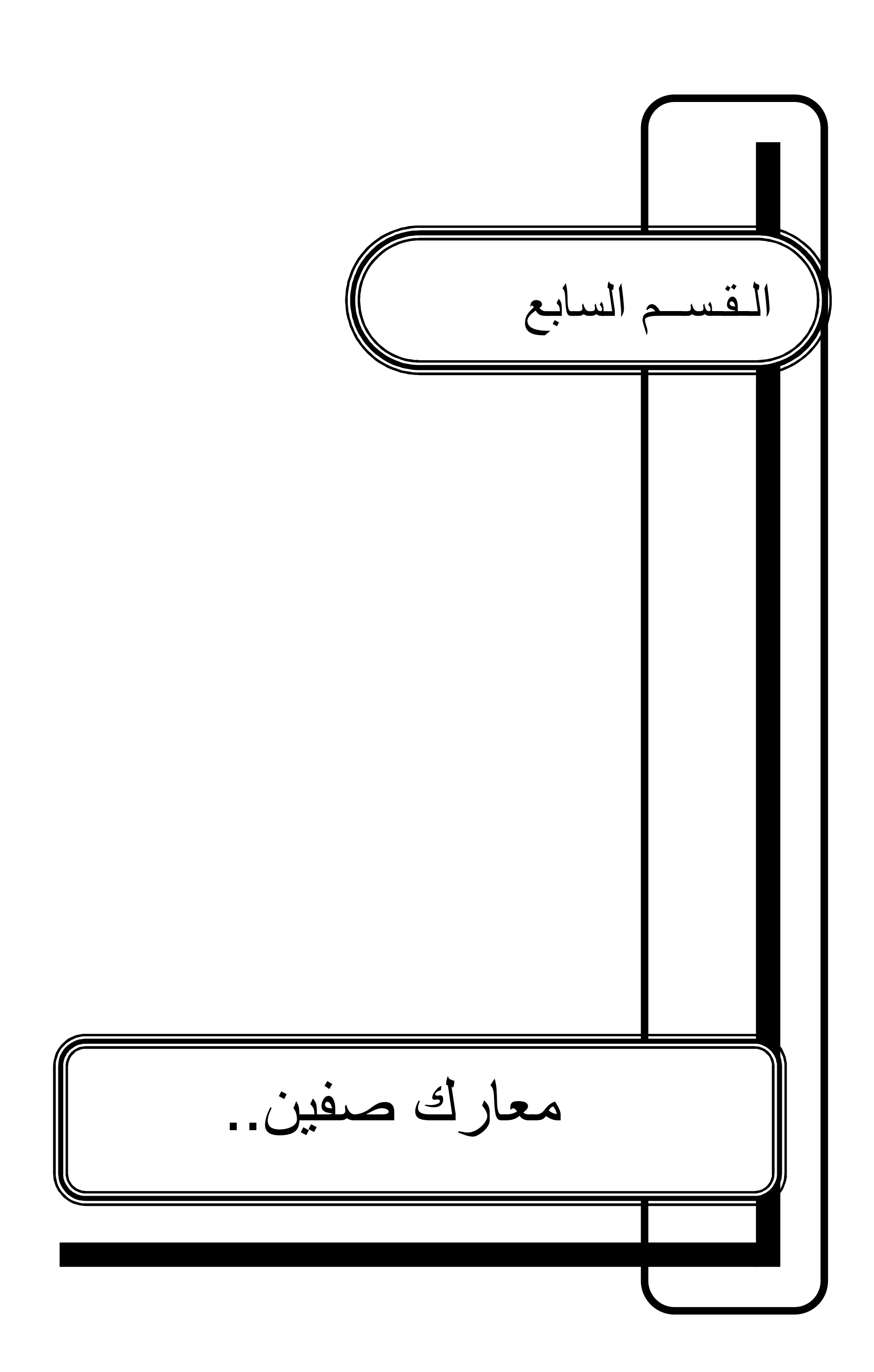
1 ـ إنه «عليه السلام» حين وقف ليراقب لم يقف وحده، بل استعان بثلة قادرة على الدفاع عن نفسها لو أراد أهل الرقة استفرادها والغدر بها.. بل هي قادرة على فرض هيمنتها على الموقف، والإمساك بزمام المبادرة.

2 ـ إنه «عليه السلام» لم يبادر إلى العبور في أول الجيش، ووقف في الجهة الأخرى ينتظر أصحابه، بل أراد أن يشرف على عبورهم بنفسه، فلعل بعضهم تعرض لانتكاسة، واحتاج إلى معونة، فإن الناس قد ينشغلون عنه بأنفسهم، أما هو «عليه السلام» فيكون قادراً على مد يد العون له، والأمر بنجدته، وأمره سيكون مطاعاً، بخلاف ما لو جاء الأمر من غيره..

3 ـ إنه «عليه السلام» يعلم: أنه ليس جميع أفراد الجيش في مرتبة واحدة من القوة والنشاط، بل في الجيش القوي والضعيف، وثقيل الهمة وخفيفها، والضعيف الثقيل قد يضطره الزحام إلى التأخر في عبور الجسر إلى آخر الناس.

وقد يكثر عدد هؤلاء حتى يصيروا جماعة، فإذا لاحظ أهل الرقة أو غيرهم ممن هم على مثل رأيهم، حال هؤلاء، فيمكنهم بعد أن يتأكدوا من عبور أكثر الجيش، أن يبادروا إلى قطع الجسر، ثم يتكاثرون على أولئك الضعفاء، ويلحقون بهم أعظم الأذى، ثم يعيدون تفكيك الجسر الذي نصبوه، ويدخلون قطعة إلى حصنهم، لأن الجسر يعقد من السفن بضم بعضها إلى بعض الآخر، وقد لا يستطيع علي «عليه السلام»، وكل من معه أن يفعلوا شيئاً بحسب الوضع الطبيعي العام..

وإذا أراد «عليه السلام» أن يعود إلى أهل الرقة ليعاقبهم، فلا بد أن يسير بجيشه إلى جسر منبج، ويعود منه إلى الرقة ليتمكن من ذلك، ومن إنقاذ من تبقى من هذه الجماعة من الأذى والجوع والضياع، فإن أهل الرقة سيتدبرون أمرهم بعد أن يكونوا قد ضربوا ضربتهم، ولعلهم يغلقون باب حصنهم، أو يتفرقون في البلاد، أو يلتحقون بمعاوية. ولا يتمكن علي «عليه السلام» من مجازاتهم على فعلتهم..



القسم السابع
معارك صفين..

الباب الأول:

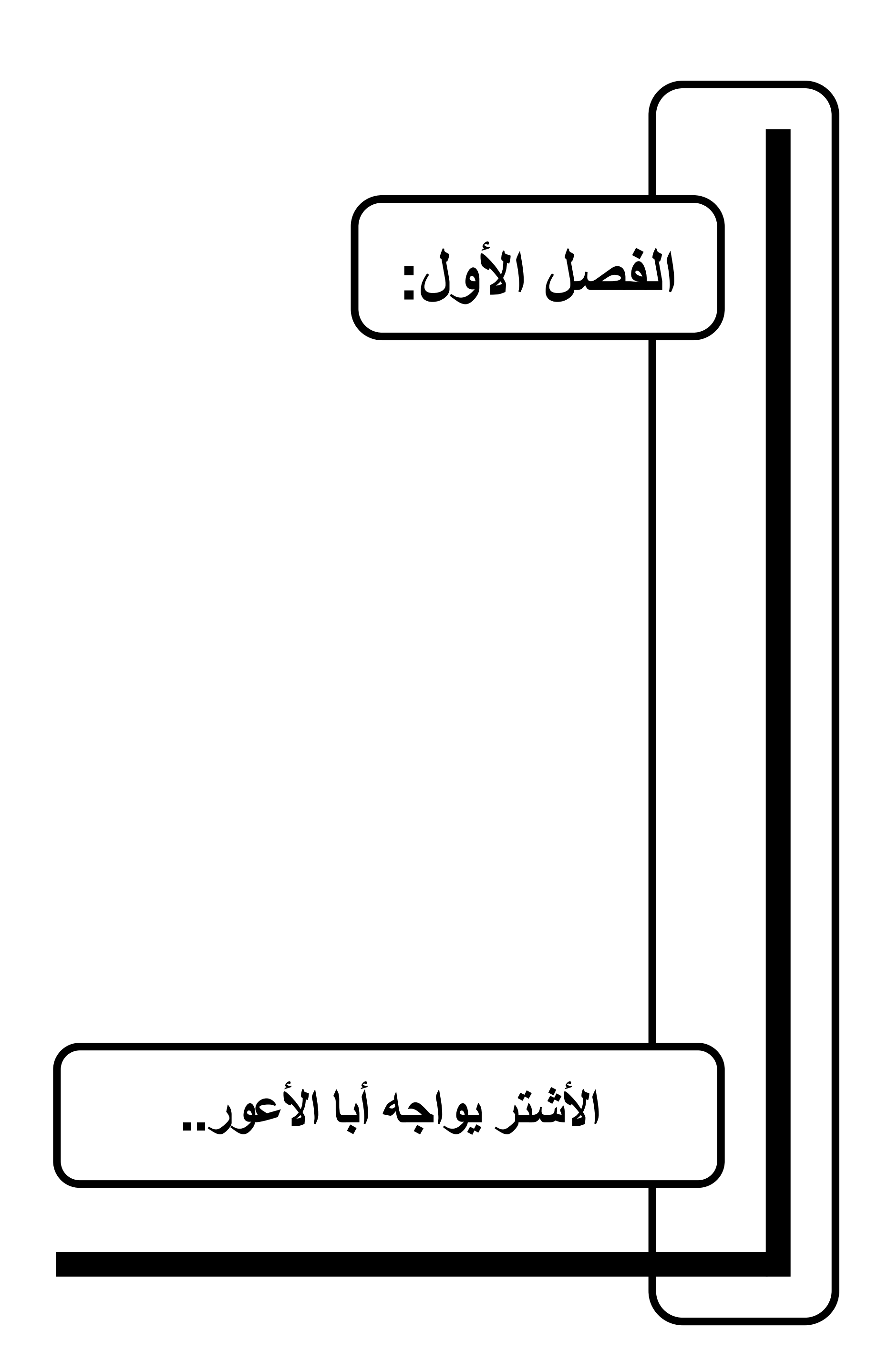
قبل المعارك الكبرى..

الفصل الأول: الأشتر يواجه أبا الأعور..

الفصل الثاني: الجيشان في المواجهة..

الفصل الثالث: الحرب على الماء: نصوص وآثار..

الفصل الرابع: الحرب على الماء معالجة نصوص..



الفصل الأول:

الأشتر يواجه أبا الأعور..

تحريض معاوية على القتال:

قال ابن أعثم:

وبلغ ذلك معاوية، فنادى في أهل الشام، فجمعهم ثم قال:

أيها الناس! هل تعلمون من قد وافاكم؟! وافاكم والله الأسد الأسود، والشجاع المطرق، علي بن أبي طالب! ومعه أفاعي أهل العراق، من ذي شرف يحامي عن شرفه، وذي دين يحامي عن دينه، وذي كَلَبٍ يؤمل فيكم الغارة.

أتاكم والله من درعه الأنصار، وسيفه همدان، ورمحه عبد القيس، وسنانه أخلاط العرب، فإن كنتم تريدون الصبر، فهذا وقت الصبر.

قال: فوثب نبهان بن الحكم، فقال: يا معاوية! والله لقد جهدت يوم الجمل أن أموت فلم أمت، وأبت المقادير ذلك، ووالله لئن رأيت علياً لأجهدن في قتله أو أموت.

دعوتنا إليه فجعلونا بينك وبينهم، وقد جعلها بيننا وبين الله عز

وجل، فأمرنا بما تحب، وانهنا عما تكره.

قال: ثم وثب حوشب ذو الظليم، فقال: يا معاوية! والله ما إياك ننصر، ولا لك نغضب، ولا عليك نحامي إلا على الشام، فكف الخيل بالخيل، والرجال بالرجال، ولا يهولنك علي ومن معه، فإن ما له ولأصحابه عندي [إلا] حملة واحدة، فأفرق جمعهم، وأبدد شملهم.

قال: ثم وثب أبو الأعور السلمي فقال: يا معاوية! إننا لو شهدنا مقتل عثمان، وعرفنا من قتله بأعيانهم لما دخلنا في ذلك الشك، ولكنا نصدقك على ما غاب.. والسلام.

قال: ثم وثب شاعر أهل الشام فجعل يحرض على القتال وهو يقول:

إن بالشام يا معاوي قوما يبذلون النفوس والأموالا
يخضبون الرماح من ثغر القوم وبيضاً يقرب الآجالا
واضعيها على العواتق قدما ليس يدرون كيف قيل وقالا
كيزيد وشرحبيل بن سمط ثم شيخ الكلاع ينعى الرجالا
تتراءى له الجميع من النا س كما يبصر الحجيج حلالا
وحضينا ومالكاً ورجالا لم يكونوا رعاتنا أنكالا
فلئن أنت هجت حرب علي إن في حربه لداءً عضالا
إن من معك لو رميت به القو م جبال الحجاز هد الجبالا[1]

---

(1) راجع: الفتوح لابن أعثم ج2 ص488 و 489 و (ط دار الأضواء) ج2

ونقول:

لماذا هذه الشهادة؟! ولماذا الخوف؟!:

1 ـ يفهم من كلام ابن أعثم: أن هذا الكلام قد جرى حين بلغ معاوية وصول علي«عليه السلام» إلى الرقة.. ولا نريد أن ندَّعي أن مسحة من الرعب قد هيمنت على معاوية، ودعته إلى موقفه هذا، ولكننا نقول بالإضافة إلى ذلك:

لعل معاوية أراد بخطابه هذا أن يوهم أهل الشام أنهم أمام خيارين لا ثالث لهما، وهما: الموت، أو القتال دفاعاً عن أنفسهم ووجودهم..

فهذا علي «عليه السلام» قد قصدهم إلى ديارهم، ولن يرجع عنهم إلا مغلوباً، أو منتصراً.. وانتصاره معناه: أن يكون قد فتك بهم وقضى عليهم.. والغلبة عليه، وإن كانت بالغة الصعوبة، ولكن لا بد منها.

فما على أهل الشام ـ إن أرادوا البقاء ـ إلا أن يبذلوا أقصى جهدهم في القتال.. وأن يجمعوا كل ما لديهم من رجال، ويهيئوا كل ما يقع تحت يدهم من عتاد ووسائل، وأن يبذلوا كل ما يملكون من مال..

وقد فهم أصحابه ما أراد، فأجابوه بما أرضاه..

ص565.

2 ـ إن معاوية قد دلس على أهل الشام، فقد كان هناك خيار ثالث، وهو أن يكف معاوية عن بغيه وعدوانه، وينقاد لحكم الله سبحانه، ولن يجد هو وأهل الشام عند علي «عليه السلام» في هذه الحال إلا السلام والسلامة..

وهذا بالذات ما كان «عليه السلام» يعرضه عليهم في كل وقت وحين، ولا يكل ولا يمل من تكراره على مسامعهم، ولكن لا حياة لمن تنادي..

مكره أخاك لا بطل:

وقد تضمنت كلمات معاوية أموراً مهمة يجدر الوقوف عندها، وهي:

الأول: وصفه لعلي «عليه السلام» بما لو خلي معاوية وطبعه، لما اعترف به أبداً.. فقد أقسم بالله أنه «عليه السلام»: الأسد الأسود، والشجاع المطرق..

الثاني: اعتراف معاوية بأن الأنصار كانوا مع أمير المؤمنين «عليه السلام» أيضاً..

الثالث: إنه قَسَّم أهل العراق إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ أهل شرف.

2 ـ وأهل دين.

3 ـ وأهل أطماع.

والرابع: إنه اعترف بأن في أصحاب علي «عليه السلام» قسم كان يحامي عن دينه. وهذا يعني أن معاوية كان حرباً على الدين..

واعتراف معاوية بما قلناه إنما كان بالرغم عنه، وليس رغبة منه به، فهو على قاعدة: «مكره أخاك لا بطل»..

نقول هذا، لأننا لم نر معاوية إلا في موقع المدعي للأباطيل، والمتشبث بالأضاليل، ولم نره إلا باغياً ومعتدياً وظالماً، ولم نره منصفاً قوالاً بالحق، إلا إذا أكره على ذلك..

مقدمتي تأتي من خلفي؟!:

قلنا فيما سبق: أن علياً «عليه السلام» بعث من الكوفة شريح بن هاني، وزياد بن النضر مقدمة له.. وكانا في اثني عشر ألفاً..

قال نصر بن مزاحم:

وقد كانا حين سرحهما من الكوفة [مقدمة له] أخذا على شاطئ الفرات، من قبل البر مما يلي الكوفة، حتى بلغا عانات، فبلغهما أخذ علي على طريق الجزيرة، وبلغهما أن معاوية أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقبال علي، فقالا:

لا والله، ما هذا لنا برأي: أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر.. ما لنا خير[1] أن نلقى جموع أهل الشام بقلة من عددنا منقطعين

---

(1) أي لا خير لنا في أن نفعل هذا، ونحن بهذه الحالة.

من العدد والمدد.

فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهل عانات، وحبسوا عندهم السفن، فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت، ثم لحقوا علياً بقرية دون قرقيسيا، وقد أرادوا أهل عانات، فتحصنوا منهم.

فلما لحقت المقدمة علياً قال: مقدمتي تأتي [من] ورائي؟!

فتقدم إليه زياد وشريح فأخبراه [بالرأي] الذي رأيا.

فقال: قد أصبتما رشدكما(1).

ونقول:

إن ما صنعه شريح وزياد كان عين الصواب، لأنه إذا كان علي «عليه السلام» في جهة من الفرات، وكانوا هم في الجهة الأخرى، فإن ذلك سيكون مضراً من جهتين:

إحداهما: أن المقدمة التي يتوليان قيادتها لن تكون قادرة على الوصول إليه «عليه السلام» لو احتاج إليها، ولن يكون علي «عليه السلام» قادراً على نجدتها لو احتاجت إليه..

الثانية: إن معاوية حين يأتي إلى الحرب إنما يأتي من الجهة التي يكون فيها علي «عليه السلام»، وإذا كانت مقدمة علي «عليه السلام»

---

(1) صفين للمنقري ص152 و 153 وبحار الأنوار ج32 ص431 ونهج السعادة ج2 ص144 و 145 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص212 وتاريخ الأمم والملوك ج4 ص566.

في الجهة الأخرى من النهر، فإنها لا تستطيع الوصول إلى المحيط الذي يتحرك فيه معاوية، لتقوم بمهماتها الإستطلاعية وغيرها، ولن تكون مفيدة في شيء، وتفقد بذلك معناها، والهدف من إرسالها، ولا يصح تسميتها بالمقدمة من الأساس.

وإن التقت بمعاوية وحاول معاوية اغتنام الفرصة للبطش بها، وإبادتها وهي قوة قليلة العدد، ولا تستطيع مقاومة ما لديه من قوة ضاربة ومستعدة للحرب كأفضل ما يكون.. لا سيما وأن الكثرة ـ كما يقولون ـ تغلب الشجاعة.

وبذلك يكون «عليه السلام» قد خسر قوة ذات قيمة كبيرة ومؤثرة.. وقد يكون لها دور حاسم في الحرب.. فلا معنى للتفريط بها، وتقديمها طعمة لسيوف جيش الشام.. هذا عدا كون حلول الكارثة بها سيجرئ أهل الشام، ويعطيهم نفحة شجاعة، ويكبت أهل العراق، وربما أوجب هزيمتهم روحياً.

والخلاصة: أن المفروض هو أن تكون المقدمة أمام الجيش لتكون هي أول من يواجه العدو، وتراقب حركته، وتحد من حريته، وتوحي له بأنه مراقب ومرصود، لا يمكنه إرسال سراياه، وزرع الكمائن، والقيام بالمناورات كما يحلو له.

ولن يستطيع أن يأخذ جيش علي «عليه الصلاة والسلام» على حين غرَّة.

ونعود، فنقول:

إن وجود جيش علي «عليه السلام» في الجهة الأخرى من الفرات، قد جعل المقدمة غير قادرة على الإقتراب من جيش معاوية بحيث تحقق الأهداف المرجوة منها، لأنها تعرف أن علياً «عليه السلام» غير قادر على حماية ظهرها، ولن تستطيع طلب النجدة منه.

كما أن معاوية إذا أدرك هذا الأمر، فسيبادر لمهاجمتها، والتخلص منها.. وهذا يدل على أنها أصبحت مضطرة للإنضمام إلى جيش علي «عليه السلام»، فحاولت ذلك فلم تتمكن منه، بسبب امتناع أهل عانات عن مساعدتهم في عبور النهر، فاضطرهم ذلك إلى الرجوع إلى هيت، والعبور منها، واللحاق بأمير المؤمنين «عليه السلام».

وكان هذا هو الصواب.

مقدمة علي × في مواجهة مقدمة معاوية:

قال ابن أعثم:

ونزل علي على شاطئ الفرات حذاء مدينة الرقة، وبلغ ذلك معاوية، فدعا بأبي الأعور السلمي، فضم إليه جيشاً كثيفاً من أهل الشام، ثم قال: سر بهذا الجيش نحو علي، فلعلك أن تواقعه وقعة قبل مصيره إلينا.

قال: فسار أبو الأعور في جند من أهل الشام يريد علياً، وبلغ ذلك علياً، فدعا زياد بن النضر وشريح بن هانئ، فضم إليهما جيشاً،

وقدمهم بين يديه نحو أبي الأعور.

[قال المنقري: فلما قطع علي الفرات دعا زياد بن النضر، وشريح بن هانئ، فسرحهما أمامه نحو معاوية على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة، في اثني عشر ألفاً].

قال: فساروا حتى إذا بلغوا إلى الموضع الذي فيه أهل الشام نظروا إلى جيش عظيم، فلم يقاتلوا، وبعثوا إلى علي فأخبروه بذلك(1).

وقال المنقري:

فلما انتهوا إلى معاوية لقيهم أبو الأعور [السلمي] في جند أهل الشام، فدعوهم إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين، فأبوا، فبعثوا إلى علي: إنا قد لقينا أبا الأعور السلمي بسور الروم في جند من أهل الشام، فدعوناه وأصحابه إلى الدخول في طاعتك، فأبوا علينا، فمرنا بأمرك.

فأرسل علي إلى الأشتر فقال: «يا مال، إن زياداً وشريحاً أرسلا إلي يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم فنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين.

فالنجاء إلى أصحابك، النجاء.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص490 و (ط دار الأضواء) ج2 ص566 وراجع: صفين للمنقري ص152 وتاريخ الأمم والملوك ج4 ص566 و 567.

فإذا أتيتهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال، إلا أن يبدؤوك، حتى تلقاهم وتسمع منهم، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم، مرة بعد مرة.

[قال ابن أعثم: فإن أجابوك، إلى ما تريد فالحمد لله على ذلك، وإن أبوا إلا القتال فاستعن بالله عز وجل عليهم. فالقهم بحد وجد، وابعث إلي بخبرك، وما يكون منك ومن أمرك إن شاء الله].

ثم قال المنقري:

«واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً، وقف بين أصحابك وسطاً، ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تَبَاعد منهم تباعد من يهاب البأس، حتى أقدم عليك، فإني حثيث السير إليك إن شاء الله».

وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفي.

وكتب إليهما:

«أما بعد، فإني قد أمرت عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا أمره، فإنه ممن لا يخاف رهقه، ولا سقاطه، ولا بطؤه عن ما الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل.

وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما: ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم، فيدعوهم، ويعذر إليهم [إن شاء الله]».

فخرج الأشتر [في جيش خشن، ومعه يومئذ هاشم بن عتبة بن أبي وقاص] حتى قدم على القوم، فاتبع ما أمره به علي،

وكف عن القتال.

فلم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي، فثبتوا [له] واضطربوا ساعة.

[وعند ابن أعثم: فلما نظر أبو الأعور إلى جند أهل العراق قد وافوا صاح بأصحابه: احملوا على هؤلاء الكلاب! الخ..].

ثم إن أهل الشام انصرفوا، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عدتها وعددها، وخرج إليهم أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، فصبر القوم بعضهم لبعض، ثم انصرفوا.

وبكَّر عليهم الأشتر، فقتل منهم عبد الله بن المنذر التنوخي، قتله ظبيان بن عمارة التميمي، وما هو يومئذ إلا فتى حديث السن.

وإن كان الشامي لفارس أهل الشام.

وأخذ الأشتر يقول: ويحكم، أروني أبا الأعور [هذا الذي بدأنا به معاوية حتى أنظر إليه.

فقالوا: هو الواقف على التل، صاحب الفرس الأشقر.

فقال الأشتر لرجل من أصحابه، يقال له: سنان بن مالك [النخعي]: اذهب إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة الخ..]

ثم إن أبا الأعور دعا الناس فرجعوا نحوه، فوقف على تل من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشتر حتى صف

أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة.

فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة.

فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك؟!

فقال: إلى مبارزتي.

فقال الأشتر: [أو] لو أمرتك بمبارزته فعلت؟!

قال: نعم، والذي لا إله إلا هو لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي فعلته حتى أضربه بالسيف.

فقال: يا ابن أخي، أطال الله بقاءك، وقد والله ازددت فيك رغبة، لا، ما أمرتك بمبارزته، إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي، لأنه لا يبارز ـ إن كان ذلك من شأنه ـ إلا ذوي الأسنان، والكفاءة، والشرف، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف، ولكنك حديث السن، [و] ليس يبارز الأحداث، فاذهب فادعه إلى مبارزتي.

فأتاهم فقال: أمنوني فإني رسول.

فأمنوه حتى انتهى إلى أبي الأعور.

روى نصر، عم عمر بن سعد، رجل، عن أبي زهير العبسي، عن صالح بن سنان بن مالك، عن أبيه قال: قلت له: إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته.

فسكت عني طويلاً ثم قال: إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو الذي

دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من العراق، وافترائه عليه يقبح محاسنه، ويجهل حقه، ويظهر عداوته.

ومن خفة الأشتر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان في داره وقراره، فقتله فيمن قتله، فأصبح مبتغى بدمه. لا حاجة لي في مبارزته.

قال: قلت له: قد تكلمت فاستمع مني حتى أخبرك.

قال: فقال: لا حاجة لي في جوابك، ولا الاستماع منك. اذهب عني.

وصاح بي أصحابه، فانصرفت عنه. ولو سمع مني لأخبرته بعذر صاحبي وحجته.

فرجعت إلى الأشتر، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة، فقال: لنفسه نظر.

قال: فتواقفنا حتى حجز بيننا وبينهم الليل، وبتنا متحارسين.

فلما أن أصبحنا نظرنا فإذا هم قد انصرفوا. وصبحنا علي غدوة، فسار نحو معاوية[1].

لكن ابن أعثم يقول:

---

(1) صفين للمنقري ص153 - 156 والفتوح لابن أعثم ج2 ص490 - 493 و (ط دار الأضواء) ج2 ص566 و 567 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص566 و 567.

إن الأشتر قال:

إنه نظر لنفسه، ولو بارزني لبريت يديه، ولكن احملوا عليهم!

قال: فحملت أهل العراق على أهل الشام، واقتتلوا [قتالاً عظيماً] يوم ذلك إلى الليل.

فلما كان وجه السحر انهزم أبو الأعور في أصحابه، حتى سار إلى معاوية فأخبره بما كان من أمره.

فقال معاوية: فكيف رأيت حرب القوم؟!

فقال: يا معاوية! لا تسأل عن شيء، فإن الخطر عظيم، ثم جعل يرتجز ويقول:

[و] إن للحرب عراماً شررا وإن فيهم فارساً عَشَنزرا

ينصف من أحجم أو تنمرا إذا ونى برمية تعسرا[1]

ولكن المنقري يقول: إن هذين البيتين هما لعلي «عليه السلام»، كتب بهما إلى معاوية[2].

ونقول:

تذوّق الحرب:

لقد أرسل معاوية أبا لأعور السلمي في جيش كثيف، لكي يذوق

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص493 و 494 و (ط دار الأضواء) ج2 ص568.

(2) صفين للمنقري ص159.

أهل الشام أهلَ العراق في الحرب، ليعرفوا منحاهم، وأسلوبهم فيها، وعلى أي الفرق الحربية يكون اعتمادهم:

هل يعتمدون على الخيالة؟! أم على الرجالة؟! أم على الرماة؟! وهل يعتمدون أسلوب المبارزة، أم الحملات الشاملة؟! أو غير ذلك من الأحوال والشؤون التي تحدد طرائق التصدي في ساحات الصراع والتحدي؟! وليعرفوا مدى صبرهم، وإقدامهم، وحدود شدتهم في الحرب؟!

ويريدون أيضاً إيراد ضربة قوية بهم تنهكهم، وتؤثر على معنوياتهم، لأن مشاق السفر قد أرهقتهم، وأفقدتهم الكثير من فعاليتهم الحربية..

غير أننا نقول:

إن هذا التدبير إنما يكون صحيحاً فيما إذا كان بالنسبة لجيش يحارب اعتماداً على قدراته الذاتية، مع كون الجيش الآخر يحمل نفس المواصفات، ويتبع ذات الأساليب، ويتشارك معه في المحفزات والدوافع، والغايات، وينطلق في رؤيته للأمور، ونظرته لشؤون الحياة من نفس المنطلقات، وإن تعاكست في مجالات توظيفها، وتنافس الأشخاص للوصول إلى الغاية المتوخاة منها..

ولكن معاوية قد غفل عن أن الأمر في هذه الحرب، وبين هذين الجيشين مختلف تماماً في أمور أساسية وحساسة، وهو بسبب ذلك غير قابل للنجاح، حتى وإن نجح في سائر الموارد، وذلك لسببين:

أولهما: أن معاوية وإن جمع ما قد يزيد على المئة وعشرين ألف مقاتل، مع أن الجيش الذي جاء به علي «عليه السلام» قد لا يصل إلى ثلثي هذا العدد.. إلا أن من الواضح: أن أهل الشام لم يكن لديهم الخبرة الحربية التي كانت لدى أهل العراق.. فإن العراق، وخصوصاً الكوفة والبصرة كان قد أخذ على عاتقه محاربة أهل فارس، وفتح بلادهم، وإسقاط إمبراطوريتهم، وكان العراقيون في معاناة ومكابدة مستمرة للحرب في مختلف الأقطار في شرق البلاد الإسلامية.. وقد استمروا على هذا الحال سنوات طويلة في عهد عمر وعثمان..

أما أهل الشام، فإنهم وإن كانوا ربما واجهوا بعض المتاعب مع بلاد الروم، ولكنها كانت قليلة، ولا تكاد تقاس بما كان يواجهه العراقيون..

الثاني: إن أهل العراق كانت لهم قيادة تؤمن بالغيب، وتعيش مع الله، وتجاهد أعداء الله ورسوله من منطلق إيماني واعتقادي راسخ، ولا تبتغي من وراء ذلك جاهاً ولا مقاماً ولا أي شيء من حطام الدنيا.. ولديها قيم، ومبادئ، وأخلاق، وتلتزم بحدود الشريعة. وترى القتل في سبيل الله فوزاً ونجاحاً.

وكان «عليه السلام» يسعى لهداية جيشه إلى نفس هذا السبيل، ويهتم بالقيام بواجب الهداية والرعاية، والتربية، بكل ما أوتي من قوة وحول..

وقد نجح «عليه السلام» في متابعة هذه الجهود التي بدأها

الرسول «صلى الله عليه وآله».. وتكونت لديه ثلة تسير على منهاجه، وتهتدي بهديه، وتقتدي به ما وجدت إلى ذلك سبيلاً..

وهذه الثلة هي التي تقرر مصير الحرب سواء قل عدد الجيش الذي تكون فيه أو كثر.. ولم يكن في جيش معاوية ما يشبه هذه الثلة في شيء، لا من قريب ولا من بعيد..

ويشهد لما نقول:

أن المسلمين في حرب خيبر، وقريظة انهزموا شر هزيمة ثلاث مرات، ولكن حين أوكل النبي «صلى الله عليه وآله» الأمر إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» جاء بالنصر المؤزر، واقتلع باب خيبر. وهكذا جرى في حنين، وفي أحد، وبدر، والأحزاب وذات السلاسل، وغير ذلك..

بل إن ضربة علي «عليه السلام» يوم الخندق كانت تعدل عبادة الثقلين: الجن والإنس إلى يوم القيامة، ولم يكن لضربات غيره، وهي تعد بالمئات، بل الآلاف قيمة.. وإن كانت لها قيمة فهي محدودة جداً.

كما أن من المسلمين من فقدوا أيديهم، أو أرجلهم، أو فقئت أعينهم وغيرها.. ولم تعط لهم الأوسمة، ولكن حين قطعت يدا جعفر بن أبي طالب في حرب مؤتة عوضه الله عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة..

وقد استشهد كثيرون في سبيل الله تعالى، ونالوا ثواب الشهادة، ولكن حمزة بن عبد المطلب كان سيد هؤلاء الشهداء..

وعلى هذه فقس ما سواها..

لا تبدأ أحداً بقتال:

وكانت أول وصية أسداها «عليه السلام» للأشتر هي: أن لا يبدأ جيش أهل الشام بقيادة أبي الأعور بقتال حتى يبدأوه.. مع أن من حقه أن يبادر إلى محاربتهم، لا سيما بعد أن كاتبهم، وكرر محاولات إقناع قياداتهم بالعدول عن الحرب، فأبوا ذلك، وعقدوا العزم على حربه، وتفريق كلمة الأمة، وأبطل بالحجج القاطعة كل ما تذرعوا به، وبين خطله وفساده في رسائله إليهم وفي خطبه التي كانت أنباؤها تتناهى إلى مسامعهم، وفي احتجاجات أصحابه عليهم، وفي النصائح التي كان يسديها إليهم، كلما سنحت له الفرصة، وواتاه الظرف..

ولعل من أهداف هذه الوصية:

أولاً: أنه «عليه السلام» وإن كان يائساً من قبول معاوية ومن حوله من قريش ومن القادة وأهل النفوذ، ولكنه كان يريد أيضاً أن يقيم الحجة على كل فرد فرد من أولئك الناس الذين سيجعل منهم معاوية وقوداً لحربه الظالمة على الإسلام وأهله، ويتخذهم سلماً لأطماعه، فلعل بعضهم يثوب إلى رشده، وتنقشع الغشاوة عن عينيه..

أما من يصر ويولي مستكبراً، ويرفض الحق وأهله، فلا ضير في أن تلفحه بعض رياح الحرب بعد إقامة الحجة عليه، وأن يكتوي بجمر الغضب الإلهي، وتلتهمه نار نقمته تعالى في الدنيا والآخرة، فإنه سيكون جديراً بهذا كله، وأكثر منه، وتكون تلك

النار الحامية أيضاً جديرة بأن تتلذذ بما تلتهمه منه، مسرورة بطاعتها لله تعالى فيه، وهي تكويه بجمرها، وتحرقه بلهبها، وتقلبه ذات اليمين تارة، وذات الشمال أخرى..

ولا ضير أيضاً في أن يبير أمير المؤمنين «عليه السلام» كيدهم، ويستأصل شأفتهم. ويكون مسروراً بقتل من يقتل منهم، حتى لو بلغوا خمسة وأربعين أو خمسين ألفاً كما ورد في النصوص حول عدد المقتولين من جيش معاوية الطاغي والباغي على الحق وأهله.. فإن قتل هذا النوع من الناس عبادة، والإستشهاد في جهاد هؤلاء فوز وسعادة..

ثانياً: إن هذا القرار بعدم بدء القتال يظهر للناس: أن معاوية لم يكن صادقاً حين كان يقدم لهم علياً «عليه السلام» على أنه سفاك دماء، وأنه يريد أن يستأصلهم.

وحين كان يدعي أنه «عليه السلام» ظالم وحاقد، ومعتد عليهم، وساع في إذلالهم، ولا نجاة ولا خلاص لهم منه إلا بقتاله.

ثالثاً: إن الكف عن القتال له حالات مختلفة، ولم يترك «عليه السلام» لقائده أن يختار أي حالة يشاء، بل حدد له الحالة التي قصدها، وألزمه بالوقوف عندها والإقتصار عليها.. فإن الكف عن القتال قد يكون لمجرد الكف من دون إظهار شيء يوحي للطرف الآخر بسلم أو بحرب، أو بلامبالاة، أو بأي شيء آخر..

وقد يصاحب الكف حركات عدائية، أو مشوبة بالتحدي

والتهديد، أو تحرشات استفزازية استعراضية تثير حماس الطرف الآخر، أو غضبه.

وقد تصاحبه حركات توحي بالرغبة في الحوار، ولكن على طريقة فرض الرأي والإكراه عليه، وبخشونة ورعونة.

وقد يصاحبه ما يوحي بالميل إلى المسالمة والرغبة بالتفاهم، عن طريق الحوار الإقناعي الهادئ والرصين.. واستدراج الطرف الآخر إلى البوح بما يعتلج في صدره لوضعه على طاولة البحث والتمحيص من موقع الرغبة في إحقاق الحق، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

وهذا هو المطلوب، ولذلك قال «عليه السلام» للأشتر: «وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدأوك حتى تلقاهم وتسمع منهم».

فقوله «عليه السلام»: حتى تلقاهم وتسمع منهم يشير إلى ما قلناه.

الإعذار المتكرر:

لقد حذر «عليه السلام» قائده مالك الأشتر من الدخول في الحرب مع العدو إلا بشروط:

الأول: أن يهاجمه العدو، فيضطر للدفاع عن نفسه.

الثاني: أنه قد منع قائده من مباشرة جميع أنواع القتال، كما دل عليه تنوين التنكير حيث قال: «بقتالٍ» الدال على المنع من القتال بجميع أنواعه، ولم يقل: «بالقتال»، ليقال: إنه يقصد به هذا القتال

المعروف، والمتداول..

الثالث: أن لا يقاتلهم قبل أن يلقاهم ويسمع منهم مباشرة، وأن يدعوهم إلى الحق، وإلى السلم، ولا يأخذ بالشائعات، ولا بظاهر حالهم، ولا يكتفي بنقل الناس.. فلعلهم حين يلتقون به تتغير نظرتهم، ويبدلون من لهجتهم، أو لعل حجته تقنعهم، وإيضاحاته لبعض الأمور تزيل الشبهة عنهم..

ولعل أموراً قد قيلت لهم على غير وجهها الصحيح، أو أن أحداً قد اختلق لهم ما لا أساس له.. ولعل.. ولعل..

الرابع: أن لا يتأثر القائد بأجواء التشنج المحيطة به، فيقدم على الحرب انطلاقاً من انفعالاته، وتنفيساً عن غيظه، بسبب ما يسمعه منهم من شنآن وعيب وانتقاص.. فإن عليه أن يضبط نفسه، ويكفها عن الاندفاع بداعي الإنتقام ممن أغضبه، بل عليه أن يتريث، ويداري الأمر بالحكمة والصبر والأناة..

الخامس: أن لا يكون عرضه الحق عليهم لمجرد التماس السبيل عليهم.. بل لا بد أن يكون بهدف التماس السبل لإقناعهم، حتى لو استلزم ذلك تكرار العرض مرة بعد أخرى، ولو بلغ ذلك إلى ما شاء الله، ما دام الباب مفتوحاً، والمجال مفسوحاً لذلك.. وإلى أن يستنفد العقل البشري طاقاته، ويعجز عن إيجاد السبل المشروعة لإقناعهم بالحق، وإسقاط المشاريع الشيطانية والعدوانية لأهل الباطل..

قاتلهم بحد وجد:

وقد رسم «عليه السلام» لقائده الأشتر خريطة عمليات تفصيلية، وقرر أن قرار الحرب والسلم لا بد أن يأتي من قبل العدو.. ليصبح قرار أهل الحق بالدفاع والتصدي، والاستفادة من الوسائل الحربية تابعاً لقرارهم، ومستنداً إليه، وحيث يفرض العدو الحرب عليهم.. فإن أي تسويف، أو تراخ فيها سيؤدي إلى نكسات ونكبات، وخسائر كبيرة وخطيرة..

من أجل ذلك أمر «عليه السلام» قائده بمراعاة أمرين:

أولهما: أن يقاتلهم ـ إذا اختاروا الحرب ـ بحد وحزم وحسم، لأنك إن لم تحسم الحرب مع عدوك بالسرعة الممكنة تكون قد أعطيته الفرصة ليكون هو الذي يحسمها معك وعلى حسابك..

وهذا تفريط ربما يصنف في دائرة الخيانة للأمانة، بل قد يبلغ حد الإلقاء بالنفس، وبالأهل، والمال، والدين وأهل الدين إلى التهلكة..

الثاني: الجد في الحرب الذي يعني بذل الوسع، وعدم ادِّخار أية قوة يمكن أن تفيد في النكاية بالعدو.. إذ لا معنى للإحتفاظ بالقوة في موقع الحاجة إليها. إلا إن كان ذلك ضمن خطة عملية، مؤثرة في ضمان النصر بأقل الخسائر، بعد استنزاف قوة العدو..

وهذا هو ما أشار إليه «عليه السلام» بقوله: «قاتلهم بحد وجد».

الإرتبط المستمر بالقيادة العليا:

والقيادة العليا الحكيمة حريصة على حفظ الصلة بينها وبين القائد الميداني للعمليات الحربية، ولذلك أصدر «عليه السلام» أمره للأشتر بأن لا يشغله ما هو فيه عن وضع القائد الأعلى في صورة ما جرى ويجري له مع عدوه، ويوقفه على التفاصيل.

ويدل على ذلك: أنه «عليه السلام» لم يكتف في وصيته لقائده بقوله: «وابعث إليَّ بخبرك». بل قال له: « وابعث إلي بخبرك، وما يكون منك ومن أمرك إن شاء الله».

ونقول:

1 ـ قوله «عليه السلام»: «ابعث إلي بخبرك» يتضمن طلب إخباره بالنتيجة الكلية والعامة، ولو بأن يقول له: لقيناهم، فهزمناهم، مثلاً.

2 ـ وقوله: «وما يكون منك» يتضمن طلب الإخبار بتفاصيل تصرفات القائد نفسه، ربما ليدرسها، ويعرف أين أخطأ وأين أصاب. ويقف على مدى انسجامها مع المعايير والضوابط، ومع الحكمة.

كما أنها تدل على كيفية إدارته للأمور، وعلى ما يملكه من مهارات، وخبرات، ومدى التزامه بالتوجيهات والأوامر الصادرة إليه، وغير ذلك.

3 ـ وقوله «عليه السلام»: «ومن أمرك» يتضمن طلب معرفة

النتائج والآثار للتصرفات وللسياسات عل أرض الواقع، فإن رصد آثار ونتائج الأقوال والأفعال، والتصرفات، والسياسات، وأحجام وخصوصيات تلك الاثار والنتائج مهم جداً، وأخذ العبر منها مؤثر جداً في رسم السياسات، ووضع الخطط، وتوقع ما يكون منها، وما ينشأ عنها في حركة الواقع.

4 ـ أما قوله «عليه السلام»: «إن شاء الله» في هذا الموقع بالذات، فإنما هو للإشارة إلى أن القائد لا يضمن، بل لا يملك إنجاز كل ما يحلو له أو يرغب في إنجازه.. لأن هناك عوامل ومؤثرات أخرى قد تحول بينه وبين ما يريد.. فلا بد له من أن يجعل لهذا الأمر أيضاً حيزاً في توقعاته، وفي رسم سياساته، وفي تدبير الأمور، وفي البناء عليها..

فمثلاً: إن علياً «عليه السلام» وكذلك الأشتر وغيره لا يستطيع أن يضمن حتى أن يصل إلى علي «عليه السلام» خبر ما يجري لمقدمته مع أبي الأعور وجيشه، فلعل الأشتر نفسه يصاب في تلك الحرب، أو لعل حامل الرسالة إليه يتعرض وهو في طريقه إليه لمانع يمنعه، أو لمعتد أثيم يبطش به أو غير ذلك، أو يأتيه أجله بصورة عادية..

فعلى علي «عليه السلام» وكذلك على الأشتر أن يحسب الحساب، ويقوم بالتدبير المناسب لهذه الحالة الطارئة..

تعيين قادة الميدان ومواضعهم:

وحين لا بد من الحرب، ويحضر الجيشان إلى الميدان، فلا بد من توزيع الجيش إلى كتائب، وألوية، وفيالق، ثم تعيين القادة الميدانيين لكل فيلق، ولواء وكتيبة وكردوس، وما إلى ذلك، كما لا بد من وضع كل فرقة أو كتيبة أو.. في موقعها المناسب..

يضاف إلى ذلك: ضرورة تحديد مواضع القادة، وتحديد المراكز التي يتعين عليهم التواجد وإدارة الأمور منها وفيها..

والذي رأيناه هنا: أنه «عليه السلام» وهو القائد الأعلى لم يوكل أمر هذه التوزيعات والتعيينات، وتحديد المركز إلى قائد فيلقه، وهو الأشتر «رحمه الله»، بالرغم من عظيم ثقته به، واعتماده عليه..

بل حدد له القادة بأسمائهم، وحدد أيضاً له ولهم أيضاً الأقسام التي يتولاها كل فرد منهم، ففلان على الميسرة وفلان على الميمنة..

ثم إنه «عليه السلام» لم يترك إليه أمر اختيار الموضع الذي يكون فيه، ويدير ويدبر الأمور منه، بل كان هو الذي حدده له، فأمره أن يكون وسط أصحابه..

ثم أمره أيضاً: أن يختار لنفسه ولمن معه موضعاً تتوفر فيه خصوصية ينتج عنها أمران:

أولهما: أن لا يكون قريباً من العدو بحيث يوحي بالرغبة في إنشاب القتال معه، لأن المطلوب في البداية الحوار والتواصل..

والذي يتخذ موقعاً يوحي بالرغبة في إنشاب القتال يجعل الإتفاق على بدء حوار صعباً، أو متعذراً، ولربما أفلت زمام الأمور ونشب القتال لسبب أو لآخر..

الثاني: أن لا يتباعد منهم في الموقع الذي يختاره تباعد الخائف، لأن ذلك أيضاً يصعِّب الإتفاق على بدء الحوار، من حيث أنه يطمع عدوه باستغلال هذا الفشل الروحي الذي توهمه، وحسم الأمر بالقتال. فإنه سيظن أنه الوسيلة الأيسر، والأكثر نفعاً له..

وقد تحدثنا عن هذه النقاط في بعض الفصول السابقة..

القائد للقادة:

وقد كتب «عليه السلام» إلى شريح بن هاني، وزياد بن النضر يخبرهما بتأمير الأشتر عليهما، ويأمرهما بأن يسمعا له ويطيعا أمره، فلاحظ:

أولاً: إنه لم يضمِّن كلامه أية إشارة إلى عزلهما عن مقامهما.

ثانياً: إنه «عليه السلام» لم يلغ الأوامر التي أصدرها لهما، بل اكتفى بإخبارهما أنه قد أمره بمثل ما أمرهما به..

ثالثاً: إنه لم يصرح لهما بأن الجيش الذي معهما قد أصبح بأمرة الأشتر، أو أنه لا زال بإمرتهما..

رابعاً: إن غاية ما فعله «عليه السلام» هو أنه أمره عليهما فقط..

ويفهم هذا أمور كثيرة مثل:

1 - أن بالإمكان أن يكون هناك قائد مباشر لعناصر الجيش، وقائد أعلى لقادة عناصر الجيش، فهو يوجه القادة، ويأمرهم وينهاهم، ويحل مشكلاتهم..

2 - إن هذا القائد الأعلى يحدد لقائد العناصر محيط عمله، ومهماته الميدانية.

3 - إن الأوامر التي يصدرها القائد العام الذي هو الإمام نفسه للقائد، كالأشتر، وللقادة الذين معه، كزياد بن النضر، وشريح بن هاني تبقى سارية ونافذة المفعول.

الأشتر قائد ميداني فذ:

وقد أسبغ «عليه السلام» على مالك الأشتر «رحمه الله» أوصافاً أربعة تدل على أنه قائد ميداني فذ، ولا نظير له. والمواصفات التي ذكرها هي التالية:

1 - إنه «رحمه الله» ممن لا يخاف رهقه، فلا تفاجئه الأحداث بشيء لم يكن قد حسب حسابه، وأعدّ واستعد له..

وهذا يعطي: أن لديه تجربة كافية، وخبرة واسعة في الأمور، وأنه قادر على تخيل ما يفكر به الآخرون، وتوقع ما ينتهون إليه في تفكيرهم وتدبيرهم.

كما أنه قادر على توقع ما يدبرونه من مصائد ومكائد في الحرب. والخروج منها بكيد أعظم، وأشد، وأغيظ للعدو..

2 ـ إنه «رحمه الله» ممن لا يخاف سقاطه، أي أنه لا يقع بالأخطاء والهفوات والسقطات، فهو على درجة عالية من الضبط، والإلتفات لنفسه، ولكل ما ومن يهمه أمره..

فلا يتهاون في أموره، ولا يغفل عما يجب أن يتنبه له..

3 ـ إنه «رحمه الله» يعمل بما هو أحزم، لأنه ممن لا يخاف بطؤه عما الإسراع إليه أحزم.. مما يعني:

ألف: أن قدرته التمييزية عالية.. وتمتاز بالدقة في المقارنة، وتلمس لطائف الأمور.

ب: إنه يحسن الإختيار، ولا يتخلى عن اختياراته هذه تحت وطأة أي من المثبطات والعوائق والإعتبارات، إلا إذا أوجبت تبدلاً أساسياً في متن الواقع، بحيث تتغير به المعادلة، فيتبدل الإختيار تبعاً لها..

ج: إنه ليس من أهل التسويف والتباطؤ في القيام بواجباته طلباً للراحة، أو لأجل عدم المبالاة، لأن شعوره بالمسؤولية، والتزامه الديني والأخلاقي، والقيم الإنسانية يأبى له ذلك..

4 ـ إنه «رحمه الله» لا يخاف منه الإسراع إلى ما البطؤ عنه أمثل.. مما يعني أنه:

ألف: يملك القدرة على التمييز أيضاً بين ما هو أمثل وأقرب إلى الإعتماد، فيما يرتبط بالأمور التي يتصدى لإنجازها..

ب: إنه لا يندفع إلى فعل يكون البطؤ عنه أولى وأصوب، وأقرب

إلى إدراك الغرض المتوخى منه، مما يعني: أنه يضع الأمور في مواضعها..

أبو الأعور السلمي المغرور الجبان:

1 ـ وتقدم: أن أبا الأعور السلمي يأنف من مبارزة سنان بن مالك لأنه حدث السن، وهو لا يبارز إلا ذوي الأسنان والكفاءة والشرف غروراً منه بنفسه، واعتداداً بشرفه، ولكنه يجبن عن مبارزة الأشتر النخعي، وهو من ذوي الأسنان، وكفؤ كريم، يقر له بذلك العدو والصديق، والوضيع والرفيع، والقريب والبعيد. فإذا كان يجبن عن مبارزة ذوي الكفاءة والشرف والسن، ويأنف من مبارزة من عداهم فمن يبارز إذن. ولماذا يصر على نسبة نفسه إلى مقامات ليست لها؟!

إلا إن كان يبحث عن الضعفاء والجبناء لينزل بهم ضربته، وينال بذلك الشهرة، ويفوز بالأوسمة الكبيرة..

2 ـ إن اعتماد هذه المفاهيم التي يلتزم بها أبو الأعور إن دل على شيء، فهو يدل على أنهم لا يحاربون دفاعاً عن قضية، ولا نصرة لحق، أو دفاعاً عن مظلوم.. كما أنه يدل على أنهم ليسوا على استعداد للتضحية بأنفسهم.. وأن همهم هو الوصول إلى أغراضهم شرط أن يكون المصاب والقتيل من غيرهم، وليس منهم..

3 ـ والأغرب من ذلك: أننا رأينا أبا الأعور يمهد لرفضه مبارزة الأشتر بأمور ليس فقط لا ربط لها بالموضوع، وإنما هي لو دقق أبو

الأعور النظر لعرف أنها من دلائل لزوم مبارزته للأشتر، لا من أدلة انصرافه عنها والتلهي بالقشور التي لا معنى لها.. لأنه إذا كان الأشتر مذنباً بارتكابه لما عدده عليه أبو الأعور، فيجب أن يكون أبو الأعور الذي جاء ليحق الحق، ويرجع الأمور إلى نصابها، ويأخذ بثأر عثمان من قتلته هو المبادر إلى مبارزة الأشتر وقتله، وإراحة الناس من شره بحسب زعمه، ولا ينتظر من الأشتر أن يطلب منه ذلك..

4 ـ إذا كان لا حاجة لأبي الأعور في مبارزة الأشتر، فلماذا جاء إلى الحرب؟! ولماذا يقود هذا الجيش الذي جاء به. ومن يريد أن يحارب إذا لم يحارب قاتل عثمان ـ بحسب زعمه ـ والذي أخرج عماله من العراق.. والذي افترى عليه، وقبح محاسنه، وجهل حقه، وأظهر عداوته؟! على حد تعابير أبي الأعور.

وليت شعري بعد ذلك كله.. ما هي المحاسن التي لعثمان، وقد قبحها مالك الأشتر «رضوان الله تعالى عليه»؟! إن أبا الأعور لم يوضحها لنا، ولا أشار إلى شيء منها.

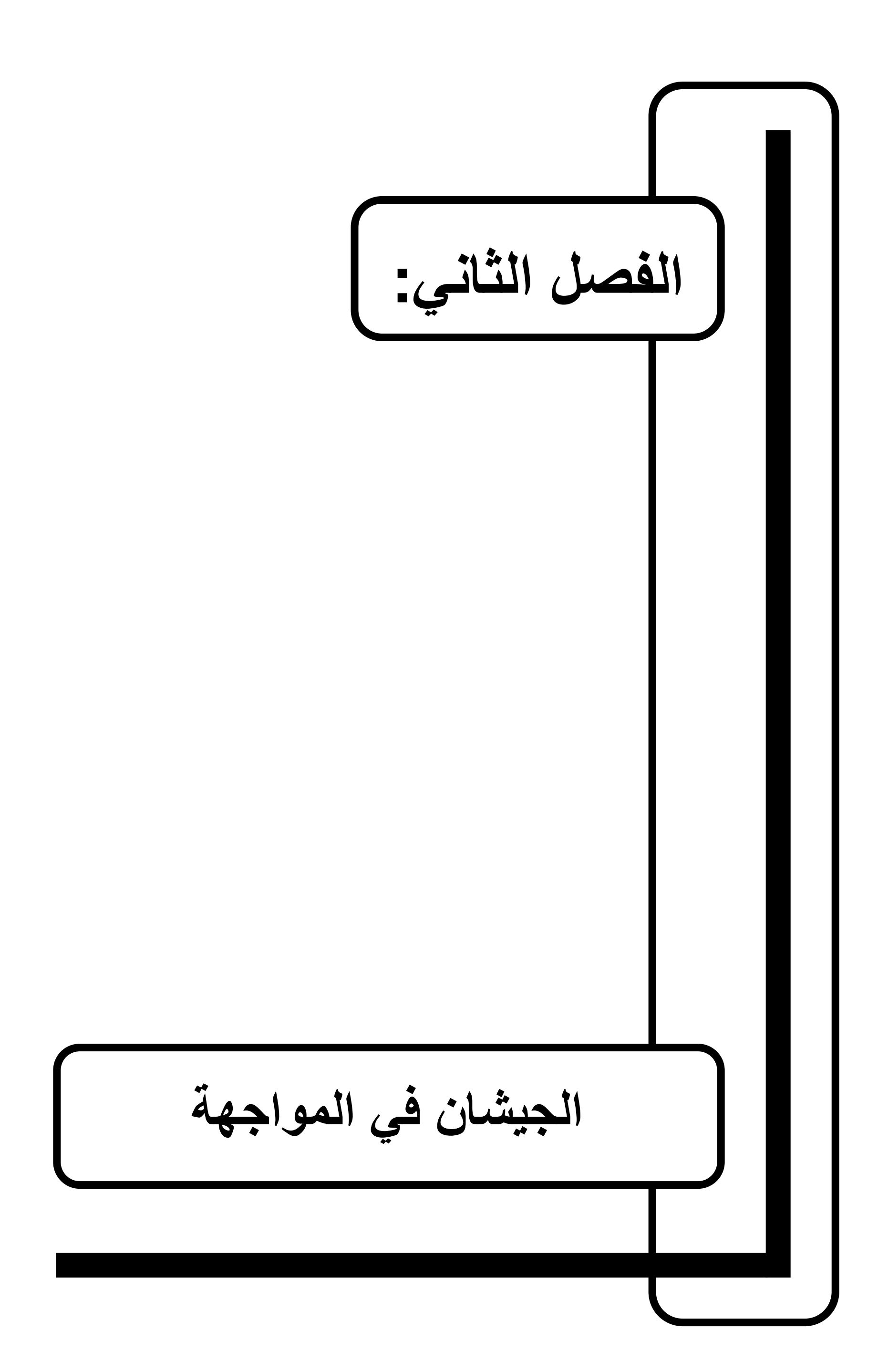
الخطر العظيم:

وقد رفض أبو الأعور أن يخبر معاوية برأيه في حرب الذين حاربهم من أهل العراق، حيث رفض مبارزة الأشتر، وتقهقر من موضعه مرة بعد أخرى، ورأى بأم عينيه طرفاً من قتال أهل العراق، فهرب تحت جنح الظلام، واكتفى بقوله لمعاوية: «يا معاوية، لا تسأل

عن شيء، فإن الأمر عظيم».

وهذا يؤكد ما ذكرناه فيما سبق من أن معاوية لم يحسن تقدير الأمور، ومني بالغرور حين بعث أبا الأعور لجسّ النبض، ومحاولة خوض معركة مع علي «عليه السلام» قبل أن يصل إليه، ظناً منه أنه سيربح المعركة مع جيش أنهكه السفر.

وقد أخفق مرة أخرى، وأخفق معه أبو الأعور السلمي نفسه حين لم يقنعهما هذا الفشل الذريع الذي حاق بهما.. وبقيا مصممين على الحرب والقتال، وكان ما كان مما سنرى ـ إن شاء الله ـ بعض فصوله في هذا الكتاب.



الفصل الثاني:

الجيشان في المواجهة

نزول الجيشين في صفين:

قال ابن أعثم:

وسار علي «عليه السلام» من موضعه ذلك وبين يديه جرير بن سهم التميمي وهو يقول:

يـا فرسي سيـري وأمي الشـامـا واقطعـي الأحقـاف والأعلامـا

وقـاتـلي مـن خـالـف الإمـامـا إنـي لأرجـو إن لقينـا العامـا

[جـمـع بنـي أميـة الطـغـامـا أن نقتـل العاصـي وذا الأجراما][1]

وقال العسقلاني وغيره:

«جرير بن سهم التميمي كان في جيش علي حين سار إلى صفين.. حكى عنه سنان بن يزيد الرهاوي أنه كان أمامهم يقول:

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص493 و 494 و (ط دار الأضواء) ج2 ص567 و 568.

يا فرسي سيري وأمي الشاما [وقطعي الأجفار والأعلاما]»(1).

قال ابن أعثم:

وأشرف عساكر علي وأصحابه على أهل الشام، فلما نظر معاوية إلى إبل مجنبة بالخيل أقبل على عمرو بن العاص، فقال:

أبا عبد الله! أما أبو الحسن فقد وفى لك بما قال، إنه يجنب الخيل بالقلاص.

فقال عمرو بن العاص: صدقت يا معاوية! ولكن اشدد حيازيمك لملاقاته، فإنك تعلم ما قد وافاك، والله من لو لقي أهل الشام بأجمعهم وهو وحيد لم يخالجه خوف ولا رهبة!

فقال معاوية: صدقت، ولكن معه رجال ومعنا رجال.

قال: ثم جعل معاوية يرتجز ويقول:

أتاكم الكاشر عن أنيابه ليث العرين جاء في أصحابه
كالسيف إذ ينزع من قرابه فليأتنا الدهر بما أتى به

قال: ونزل علي «عليه السلام» بالعساكر والأثقال، وذلك في النصف من المحرم سنة ثمان وثلاثين.

وأمر معاوية أصحابه فنزلوا على شاطئ الفرات، وحالوا بين

---

(1) تهذيب التهذيب ج2 ص73 وتهذيب الكمال ج4 ص532 و 533 وج12 ص158 و 159.

علي وأصحابه وبين الماء.

وأرسل أصحاب علي بالعبيد والأحرار ليستقوا الماء من الفرات، فإذا هم بأبي الأعور وقد صف خيله على شاطئ الفرات، وحال بينهم وبين الماء.

قال: فرجع العبيد إلى مواليهم يخبرونهم بذلك، ووثب الناس إلى علي يخبرونه بذلك[1].

وقال المنقري:

قال: وصبحنا علي غدوة، فسار نحو معاوية، فإذا أبو الأعور السلمي قد سبق إلى سهولة الأرض، وسعة المنزل، وشريعة الماء، مكان أفيح، وكان على مقدمة معاوية.

روى نصر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن محمد بن علي، وزيد بن حسن، ومحمد ـ يعني ابن المطلب ـ قالوا: استعمل علي «عليه السلام»، على مقدمته الأشتر بن الحارث النخعي، وسار علي في خمسين ومائة ألف من أهل العراق وقد خنست طائفة من أصحاب علي، وسار معاوية في نحو من ذلك من أهل الشام، واستعمل معاوية على مقدمته سفيان بن عمرو: أبا الأعور السلمي.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج2 ص494 و 495 و (ط دار الأضواء) ج2 ص568 و 569 وراجع: بحار الأنوار ج32 ص572 ومناقب آل أبي طالب (ط المكتبة الحيدرية) ج2 ص351.

فلما بلغ معاوية أن علياً يتجهز أمر أصحابه بالتهيؤ. فلما استتب لعلي أمره سار بأصحابه، فلما بلغ معاوية مسيره إليه سار بقضه وقضيضه نحو علي «عليه السلام»، واستعمل على مقدمته سفيان بن عمرو، وعلى ساقته ابن أرطاة العامري ـ يعني بسراً ـ [أضاف المعتزلي هنا قوله: وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى رجالته من الميمنة يزيد بن زحر الضبي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الرجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائي، وعلى خيل دمشق الضحاك بن قيس الفهري، وعلى رجالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كرز البجلي، وعلى أهل حمص ذا الكلاع، وعلى أهل فلسطين مسلمة بن مخلد][1]. فساروا حتى توافوا جميعا بقناصرين إلى جنب صفين.

فأتى الأشتر صاحب مقدمة معاوية، وقد سبقه إلى المعسكر على الماء، وكان الأشتر في أربعة آلاف من متبصري أهل العراق، فأزالوا أبا الأعور عن معسكره، وأقبل معاوية في جميع الفيلق [بقضه وقضيضه]، فلما رأى ذلك الأشتر انحاز إلى علي «عليه السلام» وغلب معاوية على الماء، وحال بين أهل العراق وبينه، وأقبل علي «عليه السلام» حتى إذا أراد المعسكر إذا القوم قد حالوا بينه وبين

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص215.

الماء.

ثم إن علياً «عليه السلام» طلب موضعاً لعسكره، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم، وهم مائة ألف أو يزيدون.

فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علي «عليه السلام» على خيلهم إلى معاوية ـ وكانوا في ثلاثين ومائة ـ ولم ينزل بعد معاوية، فناوشوهم القتال واقتتلوا هويا.

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: كتب معاوية إلى علي «عليه السلام»: «عافانا الله وإياك.

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل وأقبح الطيش ثم النفش في الرجل

[وكتب بعده]:

اربط حمارك لا ينزع سويته إذا يرد وقيد العير مكروب
ليست ترى السيد زيدا في نفوسهم كما تراه بنو كوز ومرهوب
إن تسألوا الحق يعطي الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب
أو تأنفون فإنا معشر أنف لا نطعم الضيم إن السم مشروب»

قال: وأمر علي «عليه السلام» الناس، فوزعوا عن القتال حتى تأخذ أهل المصاف مصافهم.

ثم قال: أيها الناس، هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة،

ومن فلج فيه فلج يوم القيامة(1).

ونقول:

لاحظ ما يلي:

لا تناقض ولا اختلاف:

قد يقال: إن الكلام المتقدم يوهم: أن علياً «عليه السلام» هو الذي بادر بالمسير للحرب، وليس معاوية، مع أننا ذكرنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب: أن معاوية قد تجهز، وتوجه نحو صفين قبل علي «عليه السلام»، فلما بلغ علياً ذلك أمر بالإستعداد، وسار هو الآخر أيضاً.

ويجاب:

بأن كلا الكلامين صحيح، فإن معاوية لم يقصد صفين بالذات، بل بدأ مسيره نحو العراق، متوخياً أن يكون مسيره في المسالك التي تتوفر فيها المياه التي يحتاج إليها جيش بهذه الكثرة.. ولم يكن يواصل السير، بل كان يتنقل من منزل إلى منزل، لأنه يخشى أن يوغل في أرض العراق، وتطبق عليه البلاد والعباد، فيقع في ورطة، فهو في ظاهر أمره يسير نحو العراق، ولكنه يحاول أن يجر علياً «عليه السلام» إلى محيطه الذي يظن أنه سيوفر له قدراً من الحماية والأمن

---

(1) صفين للمنقري ص156 - 159 وبحار الأنوار ج32 ص434 و 435 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص313 و 314.

الطبيعي..

وقد جاءه علي «عليه السلام» بجيشه من العراق، فلما بلغ «عليه السلام» المناطق التي يعلم أنها تدين لمعاوية بالولاء، مثل الرقة وعانات صار يراقب مسيره «عليه السلام» بواسطة عيونه وطلائعه، ومن يهتم بإيصال الأخبار إليه، فيسير إذا سار، ويتوقف إذا توقف.

فالحديث هنا عن هذه المرحلة، والحديث هناك عن بدء المسير حين إعلان المنابذة، وأخذ القرار بالحرب.

أبو الحسن وفى لابن العاص:

وتقدم: أن معاوية حين أشرف على جيش علي «عليه السلام» ورأى أن الإبل مجنبة بالخيل قال لعمرو بن العاص: أما أبو الحسن فقد وفى لك بما قال.. إنه يجنب الخيل بالقلاص. أي أن الجيش إذا سار في الصحراء مسافات طويلة، فإنه يستفيد من الإبل، ويريح الخيل، فيربطون الخيل بالإبل لتجرها خلفها.. وإنما يكون ذلك في المسافات الطويلة.

وقد قصد معاوية بكلامه هذا: قول علي «عليه السلام»:

لأوردن العاصي ابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي
مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص
أسود غيل حين لا مناص

وهذا تهديد منه «عليه السلام» لعمرو بن العاص، وانه سيلاحقه

في الصحارى والقفار مهما طالت المسافات، ولن تحول هذه المسافات بينه وبينه.. وسيربط الخيل بجنب الإبل في مسيره ذاك الطويل..

خنست طائفة من أصحاب علي ×:

وذكر النص المتقدم: أن الذين ساروا مع علي «عليه السلام» كانوا مئة وخمسين ألفاً، وقد خنست طائفة منهم..

ونقول:

إن العبارة الأخيرة التي ذكرت أن طائفة من أصحاب علي «عليه السلام» قد خنست ربما تساعدنا على فهم سبب بعض الإختلاف في عدد جيش أمير المؤمنين «عليه السلام»، لأن بعض النصوص تذكر أرقاماً عالية كهذا النص، وبعضها تذكر أرقاماً متفاوتة ومنخفضة مع أن أكثر المؤرخين يصرّون على أن جيشه «عليه السلام» كان يقل عن جيش معاوية بعشرات الألوف.

وقد تقدم قوله لعمرو بن العاص: بأنه سوف يواجه ابن العاص بسبعين ألفاً.. مما يعني: أن الطائفة التي خنست، ولم تسر معه «عليه السلام» إلى حرب معاوية كانت أكثر من نصف الجيش، لأن هذا النص قد بيَّن: أن الجيش الذي كان يفترض أن يصل إلى الشام هو مئة وخمسون ألفاً، ولكن طائفة منه قد خنست. أي أنها انقبضت وأخفت نفسها، وتأخرت عن المشاركة ورجعت..

وهذا قد يعطي أيضاً: أن المسجلين في عداد المقاتلين في الأقطار التي كانت تحت حكم علي «عليه السلام» كانوا أكثر من مئة وخمسين ألفاً..

أو أن الذين اجتمعوا إليه في النخيلة ليخرجوا معه قد بلغوا هذا العدد، ولكن لما بدأ الجيش مسيره نحو الشام بقيت طائفة منه، ولم تتحرك من مواضعها، فسار الجيش وتركها، ولم يحدث بسبب ذلك أي ضوضاء أو جلبة.

ولعل بعض الجماعات كانت تتخلف عن المسير في الطريق، وتتفرق في البلاد، وترجع من حيث أتت.

وهذا هو السبب في أن الذين وصلوا إلى صفين كانوا سبعين، أو تسعين، أو ثمانين ألفاً أو أقل من ذلك..

متى كانت صفين؟!:

وقد ذكر ابن أعثم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد نزل صفين في النصف من المحرم سنة ثمان وثلاثين، وقد ذهب إلى هذا القول أيضاً آخرون(1).

وقد يمكن تأييد ذلك بما قيل، من أنه «عليه السلام» قد توجه نحو

---

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص569. وراجع: أعيان الشيعة ج1 ص466 فما بعدها، وعمدة القاري ج17 ص307 وج24 ص53 والإستيعاب (ط دار الجيل) ج4 ص1587.

الشام أواخر شهر شوال سنة 37[1].

وقيل: سنة ست وثلاثين[2]. في شهر ذي الحجة.

وربما يؤيد ذلك بما روي عن أبي بكر بن عمر قال: كان بين الجمل وبين صفين شهران[3].

والقول الأشهر، والأكثر عند الرواة والمؤرخين: أن صفين كانت سنة سبع وثلاثين[4].

---

(1) راجع: شرح نهج البلاغة ج3 ص201.

(2) راجع: أعيان الشيعة ج1 ص466 عن ابن الأثير، وكتاب سليم بن قيس ص334 ويظهر منه أنها استمرت إلى سنة 38 وراجع: أنساب الأشراف للبلاذري ج2 ص299 وفيه: أنه نزل صفين لليالٍ بقين من ذي الحجة وراجع: الدر النظيم ص359 وراجع: فتح الباري ج13 ص75 و 186 و 187 وبحار الأنوار ج32 ص573 عن مناقب آل أبي طالب.

(3) راجع: التاريخ الصغير للبخاري ج1 ص102 وتاريخ مدينة دمشق ج11 ص353 وراجع: المصنف لابن أبي شيبة ج8 ص716.

(4) راجع: عمدة القاري ج14 ص104 وج 18 ص282 والآحاد والمثاني ج1 ص206 والمعجم الكبير ج1 ص211 والإستيعاب (ط دار الجيل) ج2 ص448 و 472 و 669 وج3 ص1140 و 1348 وج4 ص1547 و 1729 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج10 ص107 ونصب الراية ج5 ص48 والدرجات الرفيعة ص314 والطبقات الكبرى لابن سعد ج4 ص381 وتاريخ خليفة بن خياط ص144 والتاريخ الصغير للبخاري ج1 ص102 والتاريخ الكبير للبخاري ج4 ص97 والثقات لابن حبان ج3

وقد يقال: إن من قال: بأن وقعة صفين كانت سنة ست وثلاثين، إنما أراد أن المسير من الكوفة إلى صفين كان في هذه السنة لخمس

ص106 و 302 وتاريخ بغداد ج1 ص163 والتعديل والتجريح للباجي ج3 ص1167 وتاريخ مدينة دمشق ج11 ص352 و 354 وج15 ص345 وج16 ص361 و 371 وج17 ص395 وج38 ص78 وج43 ص354 و 359 و 360 وج49 ص497 وج57 ص130 وج59 ص118 وأسد الغابة ج2 ص114 وج3 ص134 و 343 وج5 ص49 وتهذيب الكمال ج8 ص245 وسير أعلام النبلاء ج1 ص426 وج2 ص485 والإصابة ج3 ص267 وج4 ص468 وج6 ص74 وتهذيب التهذيب ج2 ص110 وج3 ص121 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص188 والمنتخب من ذيل المذيل للطبري ص17 وتاريخ الأمم والملوك ج4 ص40 و 69 والتنبيه والإشراف للمسعودي ص256 ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج7 ص218 والوافي بالوفيات ج9 ص257 وج10 ص17 وج11 ص178 وج17 ص221 وج19 ص261 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص44 وعون المعبود ج12 ص276 والعمدة لابن البطريق ص27 وتوضيح المقاصد للبهائي (المجموعة) ص6 وبحار الأنوار ج32 ص421 و 434 و 525 وشجرة طوبى ج2 ص325 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص212 وج6 ص294 و 300 ومروج الذهب ج2 ص379 ونهج السعادة ج2 ص235 والمستدرك للحاكم ج3 ص386 و 397 ومجمع الزوائد ج9 ص291 وفتح الباري ج11 ص105 وج13 ص186 و 187.

خلون من شهر شوال[1].

إلا أن هذا لا يتلاءم مع قول بعضهم: إنه «عليه السلام» قد توجه إلى صفين أواخر شهر شوال من سنة ست وثلاثين[2].

على أنه سيأتي أيضاً: ما يدل على أنه قد تراسلوا ثلاثة أشهر، ربيعاً الآخر، وجماديين[3]. ومكثوا على ذلك حتى كان ذو الحجة، فاقتتلوا ذا الحجة كله، ثم تداعوا للهدنة إلى أن انقضى المحرم[4]. ثم تجددت الحرب بقوة وعنف بالغ في صفر.

وهذا يعني: أن علياً «عليه السلام» قد بقي حوالي عشرة أشهر في صفين حتى بدأت الحرب الحاسمة.

في أي شهر كانت صفين؟!:

أما فيما يرتبط بالشهر الذي كانت فيه الحرب، **فقد قيل:**

إنها كانت صفين في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين[5].

---

(1) راجع: شجرة طوبى ج2 ص325 والدر النظيم ص359.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص201.

(3) صفين للمنقري ص190.

(4) صفين للمنقري ص195 و 196.

(5) الآحاد والمثاني ج1 ص206 وتاريخ مدينة دمشق ج11 ص352 وج15 ص345 وج38 ص78 وراجع ج43 ص482 وأسد الغابة ج3 ص343 وتهذيب التهذيب ج2 ص110 وج3 ص121 وأنساب الأشراف ص346

وقيل: في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين[1].

وقيل: في المحرم سنة سبع وثلاثين[2].

وقيل: في صفر سنة سبع وثلاثين[3].

ولعل بعض الأقوال تحدثت عن الحرب إبان استعارها بعد الهدنة التي حصلت في شهر محرم، فإن الحرب كانت قبل شهر محرم مجرد مناوشات، لم تصل إلى حد الحرب الشاملة والطاحنة على حد ما حصل في شهر صفر بعد الهدنة.

وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص206 وبحار الأنوار ج32 ص525 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص521 وتهذيب الكمال ج21 ص226 وسير أعلام النبلاء ج1 ص426 وينابيع المودة ج2 ص7.

(1) الإستيعاب (ط دار الجيل) ج3 ص1140 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج10 ص106 والعمدة لابن البطريق ص37 والجوهرة في نسب الإمام علي وآله ص102.

(2) نصب الراية ج5 ص48 وتاريخ مدينة دمشق ج59 ص118 وسير أعلام النبلاء ج3 ص136 وراجع: بحار الأنوار ج32 ص434 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص215 .

(3) تاريخ خليفة بن خياط ص144 وتاريخ مدينة دمشق ج16 ص371 وج38 ص78 وج59 ص118 وسير أعلام النبلاء ج1 ص426 وج2 ص485 والتنبيه والإشراف ص256 وعون المعبود ج12 ص276 وشجرة طوبى ج2 ص325 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص212 و 300 ووقعة صفين للمنقري ص203.

الأقوال في عدد الجيشين:

تقدم أن المنقري يقول: إن علياً «عليه السلام» سار من الكوفة في نحو من مئة وخمسين ألفاً، ولكن طائفة منهم قد خنست، ولم تذهب إلى صفين.. والذين جاؤوا مع معاوية كانوا نحو مئة وخمسين ألفاً أيضاً.

وقال أيضاً: إنهم مئة ألف أو يزيدون[1].

وقال ابن أعثم: أن أصحاب علي يومئذ تسعون ألفاً وثمانمائة رجل[2]، وأن معاوية اجتمعت إليه العساكر من أطراف البلاد فصار في عشرين ومائة ألف[3].

وقال المسعودي: كان مع علي «عليه السلام» تسعون ألفاً، وكان معاوية في مئة ألف وعشرين ألفاً، وقيل: دون ذلك، وأكثر منه[4].

وعن أبي الحمراء: كان مع علي تسعون ألفاً[5]، وقيل:

---

(1) وقعة صفين للمنقري ص156 و 157.

(2) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص544.

(3) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص538.

(4) التنبيه والإشراف ص256.

(5) الوافي بالوفيات ج21 ص184 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص495 وشجرة طوبى ج2 ص325 ومروج الذهب ج2 ص384 والفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص544 ومعجم البلدان ج3

سبعون(1).

وقد ذكر علي «عليه السلام» هذا القول، أو الذي سبقه في الشعر الذي أرسله لعمرو بن العاص.. وقد تقدم.

وقيل: كان مع علي «عليه السلام» مئة وعشرون ألفاً عن صفوان بن عمرو(2).

وقيل: كان معه مئة وخمسون ألفاً(3)، عن الإمام الباقر، وزيد بن أنس وغيرهما(4).

وقيل: كان معه خمسة وتسعون ألفاً(5).

وقيل: أكثر من مئة ألف(6).

وعن الشعبي: سار علي في خمسين ألفاً(1).

ص414 وتاريخ خليفة بن خياط ص145 والسيرة الحلبية ج2 ص707 وبحار الأنوار ج32 ص572 عن مناقب آل أبي طالب.

(1) شجرة طوبى ج2 ص325.

(2) راجع: معجم البلدان ج3 ص414 والبداية والنهاية ج7 ص275 و 346 وج6 ص238 والوافي بالوفيات ج21 ص184.

(3) البداية والنهاية ج7 ص261 وصفين للمنقري ص156.

(4) شجرة طوبى ج2 ص325 وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج2 ص35.

(5) العقد الفريد ج3 ص332 و (ط أخرى) ج4 ص337 عن ابن أبي شيبة.

(6) البداية والنهاية ج7 ص261 وراجع: تاريخ خليفة بن خياط ص145 وأنساب الأشراف ص322.

أما جيش معاوية، فقيل: كان خمسة وثمانين ألفاً[2].

وفي نص آخر: كان في بضع وثمانين ألفاً[3].

وقيل: في ستين ألفاً، عن صفوان بن عمرو[4].

وقيل: في مئة وثلاثين ألفاً[5].

وقيل: مئة وعشرين ألفاً[6].

وقيل: في مئة ألف[7].

وقيل: كان معه تسعون ألفاً[8].

---

(1) أنساب الأشراف ج1 ص97 و (ط أخرى) ص322 وتاريخ خليفة بن خياط ص145.

(2) شجرة طوبى ج2 ص325 ومروج الذهب ج2 ص384.

(3) راجع: العقد الفريد ج3 ص332 وجواهر المطالب ج2 ص35.

(4) البداية والنهاية ج7 ص275 و 346 وج6 ص238 عن صفوان بن عمرو.

(5) البداية والنهاية ج7 ص261.

(6) معجم البلدان ج3 ص414 والبداية والنهاية ج6 ص238 والسيرة الحلبية ج2 ص707 والوافي بالوفيات للصفدي ج21 ص184 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص495 وبحار الأنوار ج32 ص572 عن مناقب آل أبي طالب ج3 ص167 والفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص538..

(7) أنساب الأشراف ج3 ص97.

(8) معجم البلدان ج3 ص414 وسير أعلام النبلاء ج2 ص40 والوافي

وقيل: ثلاثة وثمانون ألفاً[1].

وقيل: سبعون ألفاً[2].

وفي تهذيب الكمال عن حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية قال: قفل معاوية في تسعين ألفاً[3].

لكن نص الذهبي يقول: حصل في تسعين ألفاً[4].

فبناء على نص المزي في تهذيب الكمال نقول:

إذا أضيف إليهم المقتولون، وهم خمسة وأربعون ألفاً يكون المجموع: مئة وخمسة وثلاثين ألفاً.

الصحابة مع علي ×:

وقال ابن شهرآشوب: قال سعيد بن جبير: منها تسع مئة رجل من الأنصار، وثمان مئة من المهاجرين.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: سبعون رجلاً من أهل بدر.

بالوفيات ج21 ص184 .

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج2 ص538 والإمامة والسياسة ج1 ص123.

(2) أنساب الأشراف ج3 ص97 وتاريخ خليفة بن خياط ص145.

(3) تهذيب الكمال ج3 ص292.

(4) سير أعلام النبلاء ج2 ص40.

ويقال: مئة وثلاثون رجلاً(1).

المقام بصفين:

وقالوا: كان المقام بصفين في أيام المحاربة مئة وعشرة أيام. وقيل أكثر(2).

وقد تقدم: ما يدل على أنه قد أقام أكثر من عشرة أشهر..

عدد الهجمات والمعارك:

يقال: كان بين الفريقين أكثر من سبعين زحفاً(3).

والظاهر: أن المراد هو المعركة، التي يعقبها تراجع وانفصال تام.

وقيل: الوقائع بينهم تسعون وقعة(4).

وتقدم: أنهم فزعوا في ثلاثة أشهر خمسة وثمانين فزعة، كل

---

(1) بحار الأنوار ج32 ص572 عن مناقب آل أبي طالب ج3 ص167.

(2) شجرة طوبى ج2 ص325 والتنبيه والإشراف ص256 ومعجم البلدان ج3 ص414 والسيرة الحلبية (ط دار المعرفة) ج2 ص707 وعمدة القاري ج16 ص141 والوافي بالوفيات ج21 ص185 والبداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص304 عن أبي الحسن بن البراء.

(3) فتح الباري ج13 ص75.

(4) التنبيه والإشراف ص256 ومعجم البلدان ج3 ص414.

فزعة يزحف بعضهم إلى بعض، ويحجز القراء بينهم، ولا يكون بينهم قتال[1].

وقال في بعض المصادر: «جرى بين العسكرين أربعون وقعة يغلبها أهل العراق»[2].

عدد القتلى:

وقالوا أيضاً: قتل بصفين سبعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق[3].

وقيل: قتل من الفريقين (نحو) سبعين ألفاً: خمسة وعشرون ألفاً من أصحاب علي «عليه السلام»، منهم خمسة وعشرون بدرياً. وخمسة وأربعون ألفاً من جيش معاوية[4].

وقال صفوان بن عمرو: قتل من أصحاب معاوية عشرون ألفاً،

---

(1) صفين للمنقري ص190.

(2) بحار الأنوار ج32 ص574.

(3) شجرة طوبى ج2 ص325.

(4) راجع: فتح الباري ج13 ص75 عن ابن أبي خيثمة، والتنبيه والإشراف ص256 ومعجم البلدان ج3 ص414 والبداية والنهاية ج7 ص346 وعن السيرة الحلبية ج2 ص707 وعن أنساب الأشراف ص322 والوافي بالوفيات ج21 ص184 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص495.

ومن أصحاب علي أربعون ألفاً(1).

متى كان الصلح؟!:

قيل: كان الصلح ليلة السبت لعشر خلون من صفر(2).

وقيل: كان بين وقعة صفين، والتقاء الحكمين في شهر رمضان سنة 38 سنة وخمسة أشهر، وأربعة وعشرون يوماً(3).

وهذا لا يتلاءم مع ما ذكروه، من أن وقعة صفين كانت سنة ثمانية وثلاثين، بل هو يؤيد أن تكون صفين قد بدأت سنة ست وثلاثين، وانتهت في شهر صفر سنة سبع وثلاثين.

مواعظ معاوية لعلي!!:

وتوضح لنا رسالة معاوية إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»:

أن معاوية قد منع الماء عن علي «عليه السلام» وعن جيشه، ثم إنه حين قهر في ساحة الحرب، وأخذت المشرعة من يده، طلب من أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يسمح له ولجيشه بورود الفرات..

---

(1) البداية والنهاية ج6 ص239 وج7 ص304 وتاريخ الإسلام للذهبي ج1 ص390 ودلائل النبوة ج6 ص419 وإمتاع الأسماع ج12 ص196.

(2) تاريخ خليفة بن خياط ص144.

(3) التنبيه والإشراف (ط دار صعب) ص256 وراجع: معجم الأدباء للحموي ج13 ص44.

مع أن معاوية هو الرجل الذي لم تنفع معه المواعظ، ولا الإحتجاجات، ولا الآيات البينات في ثنيه عن مواصلة العمل لإنجاح مشروعه العدواني، الذي راح ضحيته سبعون ألف قتيل أو أكثر..

يضاف إلى ذلك: أن رسائله إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» قد حفلت بكثير من الإهانات، والتجني والتهديد، والتحدي، وبكثير من الترهات والأباطيل..

إننا نراه هنا يرسل إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» رسالة يظهر فيها مرونة وليناً، ولا سيما قوله له «عليه السلام»: عافانا الله وإياك..

ثم هو يزجي إليه نصائحه، بالتزام جادة الإنصاف والعدل، والإبتعاد عن الطيش والنفش.. ويعد بإعطاء الحق لسائله، ويدّعى لنفسه الأنفة وإباء الضيم.. ويمزج ذلك بشيء من التهديد والوعيد، وذلك ليفوز من علي «عليه السلام» بتأجيل إشعال نار الحرب، لأنه لم يكن قد تدبر أمره، ولا أعد خطته لها، ولا رتب جيشه على النحو المطلوب..

فمعاوية الذي يغدر، ولا يلتزم طريق الحق والهدى، يطلب من غيره أن يلتزم بالعدل والحق..

ومعاوية يمنع علياً «عليه السلام» وجيشه من ورود الفرات، ثم يطالب علياً بالسماح له بما كان هو قد منع منه..

ومعاوية يحاول انتهاز الفرص، ويرسل أبا الأعور ليورد ضربته القاصمة في جيش علي الذي كان بقيادة الأشتر، وكان لا يزال في طريقه إليه، بالرغم من أنه كان متعباً ومرهقاً يعتبر أن التضييق عليه، وإقلاق راحته ببعض المناوشات خلاف العدل والإنصاف..

فما هذه الشخصية الوصولية التي تكيل بجميع المكاييل في سبيل أهدافها الشريرة؟! وحيا الله صبر علي «عليه السلام»، وإنصافه وعدله حتى مع أعدى أعدائه، وأكثرهم غدراً، وأشدهم مكراً.

الآخرة امتداد الدنيا:

وقد قال «عليه السلام» في هذا المورد مشيراً إلى أن المعيار في النجاح والفشل ليس هو الحصول على النصر المادي والسريع في الدنيا، بل المعيار هو أن يكون:

أولاً: نصراً حقيقياً، مستمراً وباقياً.

ثانياً: أن يتجاوز في بقائه الحياة الدنيا إلى يوم القيامة أيضاً، لأن الدنيا مزرعة الآخرة.

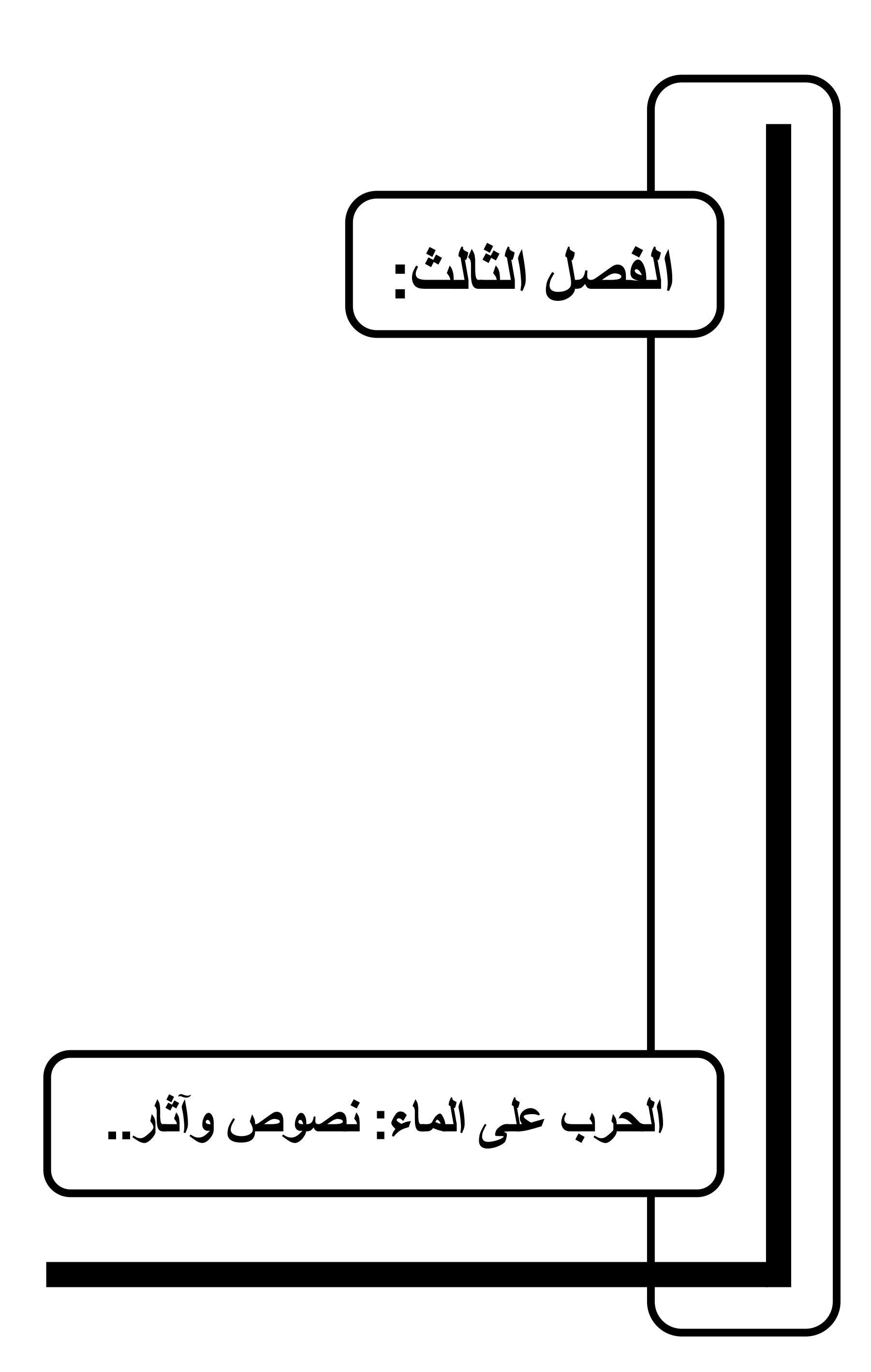
ثالثاً: إنه إنما يتواصل ويستمر في الدنيا والآخرة، إذا كان متصلاً بالله خالصاً له، ولا يكون كذلك إلا إذا كان قائماً على الحق والعدل، ويملك الحجة القاطعة، والمستندة إلى اليقينيات التي لا يمكن إحداث أي اختراق، أو اهتزاز فيها.. بما يثار من شبهات، أو يعرض من إشكالات..

فمن يملك هذه الحجة القاطعة يكون هو الغالب في الدنيا والآخرة حتى لو صح أن يقال: إنه خسر الحرب.. فلا ينبغي أن يكون المطلوب هو النصر الدنيوي كيفما اتفق، لأن القتال بالنسبة إليهم لا يعدو كونه دفاعاً عن النفس، ودفعاً للشر، حين لا يمكن دفعه أو التحرز منه بدون ذلك.

فلماذا العجلة إذن؟! ولماذا التسرع؟!

وهذا ما ألمح إليه «عليه السلام» بقوله: «هذا موقف من نطف فيه نطف يوم القيامة، ومن فلج فيه فلج يوم القيامة».

يقال: نطف ـ كعلم ـ ونطف بالبناء للمجهول، أي اتهم بريبة..



الفصل الثالث:

الحرب على الماء: نصوص وآثار..

رجز علي × إلى معاوية:

قال المنقري:

قال علي «عليه السلام»، لما نزل معاوية بصفين:

لقد أتـاكـم كاشـــرا عــن نــابــه يهمــِّط النـــاس عــلـى اعـتـــزا بـــه

فـلـيـأتـنـــا الـدهــر بـمــا أتـى بـه

وكتب علي إلى معاوية:

فـإن للحــرب عُــرامــا شـــررا إن عليهـــا قائـــدا عشـــنزرا

ينـصــف مــن أجحــر أو تنمـرا علـــى نواحيهـــا مــزجـــا زمـجـرا

إذا ونـيــن ســاعــة تـغشـــمـرا

وقال أيضاً:

ألم تـر قومي إذ دعـاهـم أخـوهـم أجـابوا وإن يغضـب علـى القـوم يغضـــــــــــــــــــــــبوا

هم حفظوا غيبي كما كنت حافظا لقومي أخرى مثلها إذ تغيبوا
بنو الحرب لم يقعد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا

منع الماء:

وقالوا أيضاً:

لما نزل معاوية على الماء، وكانت مقدمة علي «عليه السلام» قد نزلت عليه تراجع الناس إلى معسكرهم، وذهب شباب من الناس وغلمانهم يستقون، فمنعهم أهل الشام.

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف ابن الأحمر قال:

لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه، مستوياً بساطاً واسعاً، وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم، وقد صف أبو الأعور عليها الخيل والرجالة، وقدم المرامية ومعهم أصحاب الرماح والدرق، وعلى رؤوسهم البيض، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء.

ففزعنا إلى أمير المؤمنين فأخبرناه بذلك.

فدعا صعصعة بن صوحان. [وأضاف ابن أعثم: شبث بن ربعي] فقال: ائت معاوية، فقل: إنا سرنا مسيرنا هذا، وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قد قدمت بخيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا

بالقتال، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك.

وهذه أخرى قد فعلتموها، حتى حلتم بين الناس وبين الماء، فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم.

وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا[1].

[وذكر ابن أعثم: أن هذا كان كلام علي «عليه السلام» حرفياً.. إلى قوله: وأيم الله، لنشربن منه شئت أم أبيت! فامنن إن قدرت عليه من قبل إن نغلب، فيكون الغالب هو الشارب[2]].

قال ابن أعثم أيضاً:

[فدعا علي «عليه السلام» بشبث بن ربعي الرياحي[3] وصعصعة بن صوحان العبدي، فقال لهما: انطلقا إلى معاوية فقولا له:

(1) صفين للمنقري ص159 - 161 والأخبار الطوال ص168 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص571 والكامل في التاريخ ج2 ص264 والإمامة والسياسة ج1 ص124 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص318.

(2) الفتوح لابن أعثم ج3 ص2 و (ط دار الأضواء) ج3 ص6.

(3) وكذا في الأخبار الطوال ص172 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص24 و (ط الأعلمي) ج3 ص566 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص83 و 84 وفي الإمامة والسياسة ج1 ص125 ذكر: أن الأشعث بن قيس هو رسول علي «عليه السلام» إلى معاوية للبحث في أمر الماء.

إن خيلك قد حالت بيننا وبين الماء، ولو كنا سبقناك لم نحل بينك وبينه، فإن شئت فخل عن الماء حتى نستوي فيه نحن وأنت، وإن شئت قاتلناك عليه حتى يكون لمن غلب، وتركنا ما جئنا له من الحرب.

قال: فأقبل شبث، فقال: يا معاوية! إنك لست بأحق من هذا[1] الماء منا، فخل عن الماء، فإننا لا نموت عطشاً وسيوفنا على عواتقنا[2]].

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟!

قال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان: حصروه أربعين يوماً، يمنعونه برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشا قتلهم الله!

قال عمرو: خل بين القوم وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم.

فأعاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله ابن أبي سرح ـ وهو أخو عثمان من الرضاعة ـ: امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان

---

(1) لعل الصحيح: في.

(2) الفتوح لابن أعثم ج3 ص1 و (ط دار الأضواء) ج3 ص5 وراجع: الامامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج1 ص94 و (تحقيق الشيري) ج1 ص125 وخزانة الأدب للبغدادي ج3 ص191.

رجوعهم هزيمتهم. امنعهم الماء، منعهم الله إياه يوم القيامة.

فقال صعصعة بن صوحان: إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة، شربة الخمر، ضربك وضرب هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة ـ فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه.

فقال معاوية: كفوا عن الرجل، فإنه رسول[1].

الحرب على الماء:

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، أن صعصعة رجع إلينا فحدثنا بما قال معاوية، وما كان منه وما رد عليه، فقلنا: وما رد عليك معاوية؟!

قال: لما أردت الانصراف من عنده قلت: ما ترد علي؟!

قال: سيأتيكم رأيي.

قال: فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف، فأرسل إلى أبي الأعور: امنعهم الماء.

فازدلفنا والله إليهم، فارتمينا[1] واطَّعنا بالرماح، واضطربنا

(1) صفين للمنقري ص161 والفتوح لابن أعثم ج3 ص2 و 3 و (ط دار الأضواء) ج3 ص6 والأخبار الطوال ص168 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص571 والكامل في التاريخ ج2 ص264 والإمامة والسياسة ج1 ص124 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص318 وراجع: المعيار والموازنة ص146.

بالسيوف، فطال ذلك بيننا وبينهم، فضاربناهم فصار الماء في أيدينا، فقلنا: والله لا نسقيهم.

فأرسل إلينا علي: خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم.

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن رجل، عن أبي حرة أن علياً قال: هذا يوم نصرتم فيه بالحمية.

روى نصر، عن محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، قال: فبقي أصحاب علي يوماً وليلة ـ يوم الفرات ـ بلا ماء(2).

زاد الدينوري قوله: «إلا من كان ينصرف من الغلمان إلى طرف الغيضة، فيمشي مقدار فرسخين، فيستقي، فغم علياً «عليه السلام» أمر الناس غماً شديداً، وضاق بما أصابهم من العطش ذرعاً، فأتاه الأشعث بن قيس..».

ثم ذكر: أنه طلب منه أن يسمح له باسترجاعه، فأرجع الأمر

---

(1) أي بالسهام.

(2) صفين للمنقري ص161 و 162 وراجع: الأخبار الطوال ص168 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص571 والكامل في التاريخ ج2 ص264 والإمامة والسياسة ج1 ص124 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص318.

إليه.. فاسترجعه هو والأشتر[1].

وقال رجل من السكون من أهل الشام، يعرف بالسليل بن عمرو [السليل بن محرم السكوني]: يا معاوية:

اسمع اليوم ما يقول السليل إن قولي قول له تأويل
امنع الماء من صحاب على أن يذوقوه، والذليل ذليل
واقتل القوم مثل ما قتل الشيخ ظما والقصاص أمر جميل
فوحق الذي يساق له البدن هدايا لنحرها تأجيل
لو علي وصحبه وردوا الماء لما ذقتموه حتى تقولوا:
قد رضينا بما حكمتم علينا بعد ذاك الرضا جلاد ثقيل
فامنع القوم ماءكم، ليس للقوم بقاء وإن يكن فقليل

فقال معاوية: الرأي ما تقول، ولكن عمرو لا يدعني[2].

[قال ابن أعثم: ثم أخذ معاوية عمامته عن رأسه مغضباً وقال: لا سقى الله معاوية ولا أباه من حوض محمد، إن شرب علي أو أصحابه من ماء الفرات أبدا إلا أن يغلبوا عليه[3]].

---

(1) الأخبار الطوال ص168 و 169.
(2) صفين للمنقري ص162 و 163 والفتوح لابن أعثم ج3 ص3 و 4 و (ط دار الأضواء) ج3 ص6 و 7.
(3) الفتوح لابن أعثم ج3 ص4 و (ط دار الأضواء) ج3 ص7.

الهجوم على بيت الزهراء ÷:

قال عمرو: خل بينهم وبين الماء، فإن علياً لم يكن ليظمأ وأنت ريان، وفي يده أعنة الخيل وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز، وقد سمعته أنا وأنت وهو يقول: لو استمكنت من أربعين رجلاً.

فذكر أمراً.

يعني لو أن معي أربعين رجلاً يوم فتش البيت. يعني بيت فاطمة[1].

الهمداني يحتج ويلجأ إلى علي ×:

قال المنقري:

وذكروا: أنه لما غلب أهل الشام على الفرات فرحوا بالغلبة، فقال معاوية: يا أهل الشام، هذا والله أول الظفر[2]، لا[3] سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعهم عليه.

(1) صفين للمنقري ص163 وبحار الأنوار ج32 ص440 وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص320.

(2) الفتوح لابن أعثم ج3 ص1 و (ط دار الأضواء) ج3 ص5.

(3) أضفنا كلمة «لا»، لكي يستقيم المعنى.

وتباشر أهل الشام، فقام إلى معاوية رجل من أهل الشام [همداني ناسك]، يقال له: المعري بن الأقبل وكان ناسكاً، وكان له ـ فيما تذكر همدان ـ لسان، وكان صديقاً ومواخياً لعمرو بن العاص، فقال: يا معاوية، سبحان الله، ألِأن سبقتم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه تمنعونهم عنه؟!

أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه.

أليس أعظم ما تنالون من القوم أن تمنعونهم الفرات، فينزلوا على فرضة أخرى، فيجازوكم بما صنعتم؟!

أما تعلمون أن فيهم العبد، والأمة، والأجير، والضعيف، ومن لا ذنب له. هذا والله أول الجور.

لقد شجعت الجبان، وبصرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك.

[**وحسب نص ابن أعثم:** والله لقد حملت من لا يريد قتالك على قتالك، ويمنعك[1] هذا الماء، فإن شئت فاغضب، وإن شئت فارض، فإني لا أدع القول بالحق، ساءك أم سرك[2]].

وقال المنقري:

فأغلظ له معاوية، وقال لعمرو: اكفني صديقك.

---

(1) لعل الصحيح: بمنعك.

(2) الفتوح لابن أعثم ج3 ص4 و (ط دار الأضواء) ج3 ص7.

فأتاه عمرو فأغلظ، فقال الهمداني في ذلك:

لعمرو أبى معاوية بن حرب وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعن يحار العقل فيه وضرب حين يختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يا ابن هند لقد برح الخفاء فلا خفاء
أتحمون الفرات على رجال وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد كأن القوم عندهم نساء
فترجو أن يجاوركم علي بلا ماء وللأحزاب ماء
دعاهم دعوة فأجاب قوم كجرب الإبل خالطها الهناء

قال: ثم سار الهمداني في سواد الليل، فلحق بعلي(1).

قال ابن أعثم:

[فأمر معاوية بقتل هذا الرجل، فوثب قوم من بني عمه فاستوهبوه منه، فوهبه لهم، فلما كان الليل هرب إلى علي بن أبي

(1) صفين للمنقري ص163 و 164 والفتوح لابن أعثم ج3 ص4 و 5 و (ط دار الأضواء) ج3 ص7 و 8 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص320 و 321.

طالب، فصار معه[1]].

وتقدم: أنه مكث أصحاب علي يوماً وليلة بغير ماء، واغتم علي بما فيه أهل العراق.

علي × يتجول في المعسكر:

روى نصر، عن محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، قال: خرج علي لما اغتم بما فيه أهل العراق من العطش قِبَل رايات مذحج، وإذا رجل ينادي:

[**وعند ابن أعثم:** فإذا هو برجل يقول أبياتاً من الشعر من جوف خيمته[2]]

أيمنعنا القوم ماء الفرات — وفينا الرماح وفينا الحجف

وفينا الشوازب مثل الوشيج — وفينا السيوف وفينا الزغف

وفينا علي له سورة — إذا خوفوه الردى لم يخف

فنحن الذين غداة الزبير — وطلحة خضنا غمار التلف

فما بالنا أمس أسد العرين — وما بالنا اليوم شاء النجف

فما للعراق وما للحجاز — سوى اليوم يوم فصكوا الهدف

فدبوا إليهم كبزل الجمال — دوين الذميل وفوق القطف

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص5 و (ط دار الأضواء) ج3 ص8.

(2) الفتوح لابن أعثم ج3 ص5 و (ط دار الأضواء) ج3 ص8.

فإما تحلوا بشط الفرات ومنا ومنهم عليه الجيف
وإما تموتوا على طاعة تحل الجنان وتحبو الشرف
وإلا فأنتم عبيد العصا وعبد العصا مستذل نطف

قال: فحرك ذلك علياً، ثم مضى إلى راية كندة، فإذا مناد ينادي إلى جنب منزل الأشعث وهو يقول:

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه فهبنا أناسا قبل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا وتلق التي فيها عليك التشتت
فمن ذا الذي تثنى الخناصر باسمه سواك ومن هذا إليه التلفت
وهل من بقاء بعد يوم وليلة نظل عطاشى والعدو يصوت
هلموا إلى ماء الفرات ودونه صدور العوالي والصفيح المشتت
وأنت امرؤ من عصبة يمنية وكل امرئ من غصنه حين ينبت

[زاد ابن أعثم قوله: فرجع علي «عليه السلام» إلى رحله[1]].

وقال المنقري:

فلما سمع الأشعث قول الرجل أتى علياً من ليلته، فقال: يا أمير المؤمنين أيمنعنا القوم ماء الفرات، وأنت فينا، ومعنا السيوف؟!!

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص6 و (ط دار الأضواء) ج3 ص9.

خل عنا وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت.

ومر الأشتر فليعل بخيله فيقف حيث تأمره.

فقال: ذاك إليكم.

تحرير الماء على يد الأشعث والأشتر:

فرجع الأشعث [من عند علي «عليه السلام»، وذلك في وقت السحر]، فنادى في الناس: من كان يريد [الماء أو] الموت فميعاده الصبح، فإني ناهض إلى الماء.

فأتاه من ليلته اثنا عشر ألف رجل [فأجابه نيف عن عشرة آلاف] وشد عليه سلاحه وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح   هل يصلح الزاد بغير ملح

لا لا، ولا أمر بغير نصح   دبوا إلى القوم بطعن سمح

مثل العزالي بطعان نفح   لا صلح للقوم وأين صلحي

حسبي من الإقحام قاب رمح(1)

[لكن ابن أعثم نسب هذه الأبيات إلى الأشتر، وأنه قالها وهو

---

(1) صفين للمنقري ص164 - 167 والفتوح لابن أعثم ج3 ص8 و (ط دار الأضواء) ج3 ص10 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص323 و 324 والإمامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج1 ص94 و (تحقيق الشيري) ج1 ص125.

يصب عليه سلاحه، وقد أضاء عمود الصبح(1)].

وقال المنقري وابن أعثم:

فلما أصبح دب في الناس وسيوفهم على عواتقهم [وأمر الأشعث الرجالة، فتقدم أكثر من أربعة آلاف رجل، حتى بركوا خلف الأسنة والجحف]، وجعل يلقي رمحه ويقول: بأبي أنتم وأمي [يا أهل العراق]، تقدموا قاب رمحي [هذا].

فلم يزل ذلك دأبه [هو الأشتر جميعاً] حتى خالط القوم وحسر عن رأسه ونادى: أنا الأشعث بن قيس، خلوا عن الماء.

فنادى أبو الأعور السلمي: أما والله لا، حتى تأخذنا وإياكم السيوف.

فقال: قد والله أظنها دنت منا.

وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره علي، فبعث إليه الأشعث: أن أقحم الخيل. فأقحمها حتى وضع سنابكها في الفرات، وأخذت القوم السيوف، فولوا مدبرين(2).

روى نصر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر، عن

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص5 - 8 و (ط دار الأضواء) ج3 ص8 - 10.

(2) صفين للمنقري ص167 والفتوح لابن أعثم ج3 ص11 و (ط دار الأضواء) ج3 ص8 - 10 وراجع: الإمامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج1 ص94 و (تحقيق الشيري) ج1 ص125 و 126.

زيد بن حسين قال: نادى الأشعث عمرو بن العاص، قال: ويحك يا ابن العاص، خل بيننا وبين الماء، فوالله لئن لم تفعل ليأخذنا وإياكم السيوف.

فقال عمرو: والله لا نخلي عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم، فيعلم ربنا أينا اليوم أصبر.

فترجل الأشعث، والأشتر، وذوو البصائر من أصحاب علي، وترجل معهما اثنا عشر ألفا، فحملوا على عمرو ومن معه من أهل الشام، فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل علي سنابكها في الماء.

قال نصر: روى سعد أن علياً قال ذلك اليوم: هذا يوم نصرتم فيه بالحمية[1].

ثم إن علياً عسكر هناك.

وقبل ذاك قال شاعر أهل العراق:

ألا يتقون الله أن يمنعوننا الـ فرات وقد يروى الفرات الثعالب

وقد وعدونا الأحمرين فلم نجد لهم أحمراً إلا قراع الكتائب

إذا خفقت راياتنا طحنت لها رحى تطحن الأرحاء والموت طالب

---

(1) صفين للمنقري ص167 و 170 وبحار الأنوار ج32 ص442 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص324.

فتعطي إلـه النـاس عـهداً نفي به صـــهر رســـول الله حتـــى نضارب(1)

يقسم الذهب والقمح إن فتحت الشام:

وكان بلغ [أهل] الشام أن علياً جعل للناس إن فتحت الشام أن يقسم بينهم البر والذهب ـ وهما الأحمران ـ وأن يعطيهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة، فنادى منادي أهل الشام، يا أهل العراق [لماذا نزلتم بعجاج من الأرض؟! نحن أزد شنوءة لا أزد عمان. يا أهل العراق]:

لا خمــس إلا جـندل الإحـرِّيـن والـخمس قد يـحمل الأمــريـن
جـمزاً إلى الكوفـة مـن قـنسـريـن

روى نصر، عن أبي عبد الرحمن المسعودي، عن يحيى بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن عمرو بن العاص:

لا خـمس إلا جندل الإحــريـن والخـــمس قـــد يجشـــمك الأمرين(2)

لا عقل لمن يمنع الماء:

روى نصر، عمرو بن شمر، عن جابر قال: سمعت تميماً الناجى قال سمعت الأشعث بن قيس يقول ـ يوم حال عمرو بن العاص بيننا

---

(1) صفين للمنقري ص167 و 168.

(2) صفين للمنقري ص168 و 169.

وبين الفرات ـ: ويحك يا عمرو، والله إن كنت لأظن لك رأياً، فإذا أنت لا عقل لك، أترانا نخليك والماء، تربت يداك وفمك؟! أما علمت أنا معشر عرب؟! ثكلتك أمك وهبلتك، لقد رمت أمراً عظيماً.

فقال له عمرو: أما والله لتعلمن اليوم أنا سنفى بالعهد، ونقيم على العقد، ونلقاك بصبر وجد.

فناداه الأشتر: والله لقد نزلنا هذه الفرضة يا ابن العاص، والناس تريد القتال، على البصائر والدين، وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية.

ثم كبر الأشعث وكبر الأشتر، ثم حملا، فما ثار الغبار حتى انهزم أهل الشام(1).

[قالوا]: فلقي عمرو بن العاص بعد ذلك الأشعث بن قيس فقال: أي أخا كندة، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء، ولكني كنت مقهوراً على ذلك الرأي، فكايدتك بالتهدد، والحرب خدعة.

ثم إن عمرا أرسل إلى معاوية: أن خل بين القوم وبين الماء، أترى القوم يموتون عطشاً وهم ينظرون إلى الماء؟!

فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد [القسرى]: أن خلِّ بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله.

---

(1) صفين للمنقري ص169 و 170 وبحار الأنوار ج32 ص442 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص324.

فقال يزيد ـ وكان شديد العثمانية ـ كلا والله، لنقتلنهم عطشاً كما قتلوا أمير المؤمنين(1).

بين عمرو بن العاص والأشتر:

روى نصر، عن عمرو بن شمر، عن إسماعيل السدي قال: سمعت بكر بن تغلب السدوسي يقول: والله لكأني أسمع الأشتر وهو يحمل على عمرو بن العاص يوم الفرات، وهو يقول:

[وحسب قول ابن أعثم:

نظر الأشتر إلى عمرو بن العاص واقفاً في أول القوم، فصاح به: ويلك يا عمرو! لقد كنت أظن أن لك رأياً، أتظن أننا نخليك والماء؟! أي تربت يداك وثكلتك أمك! أما علمت أننا أفاعي أهل العراق؟! لقد رمت أمراً عظيماً.

فقال له عمرو: ستعلم يا أشتر أينا يوفي بالعهد ويتم على العقد.

قال: فتبسم الأشتر وهو يقول:(2)]

ويحك يا ابن العاصي — تنح في القواصي
واهرب إلى الصياصي — اليوم في عراص
نأخذ بالنواصي — لا نحذر التناصي

---

(1) صفين للمنقري ص170 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص324 و 325.

(2) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص12.

.... [من حذر القصاص]
نحن ذوى الخماص لا نقرب المعاصي
في الأدرع الدلاص في الموضع المصاص

فأجابه عمرو بن العاص:

ويحك يا ابن الحارث أنت الكذوب الحانث
أنت الغرير الناكث [آكل] مال الوارث
[وفي الضلال لابث] وفي القبور ماكث

[قال ابن أعثم: فحمل عليه الأشتر ليضربه بسيفه، فمر عمرو من بين يديه هاربا حتى اختلط بأهل الشام(1)]

روى نصر، عن عمرو بن شمر، عن إسماعيل السدي، عن بكر بن تغلب قال: حدثني من سمع الأشتر يوم الفرات، وقد كان له يومئذ غناء عظيم من أهل العراق، وهو يقول:

اليوم يوم الحفاظ بين الكماة الغلاظ
نحفتزها والمظاظ

قال: ثم قال: وقد قتل من آل ذى لقوة، وكان يومئذ فارس أهل الأردن، وقتل رجال من آل ذى يزن(2).

---

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص12 و 13 وصفين للمنقري ص170 و 171.
(2) صفين للمنقري ص171.

قال نصر:

فحدثني عمرو بن شمر، عن إسماعيل السدي، عن بكر بن تغلب قال: حدثنى من سمع الأشعث يوم الفرات وقد كان له غناء عظيم من أهل العراق وقتل رجالا من أهل الشام بيده، وهو يقول: والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة، ولكن معي من هو أقدم مني في الإسلام، وأعلم بالكتاب والسنة، وهو الذي يسخى بنفسه(1).

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن رجل من آل خارجة بن الصلت، أن ظبيان بن عمارة التميمي، جعل يومئذ يقاتل وهو يقول:

مالك يا ظبيان من بقاء — في ساكن الأرض بغير ماء

لا، وإله الأرض والسماء — فاضرب وجوه الغدر الأعداء

بالسيف عند حمس الوغاء (اللقاء) — حتى يجيبوك إلى السواء

قال: فضربناهم والله حتى خلونا وإياه(2).

قال ابن أعثم:

وأقبل الأشعث بن قيس على صاحب رايته واسمه الحارث بن حجر الكندي، فقال له: ابن حجر! الله ما النخع بخير من كندة، ولا الأشتر بخير مني! فتقدم فداك أبي وأمي بالراية!

---

(1) صفين للمنقري ص171 و 172.

(2) صفين للمنقري ص172 وراجع: الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص11 و 12 وتاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج3 ص567 .

قال: فتقدم صاحب راية الأشعث وهو يقول:

يـا أشـعث الخيـرات يا بن قيس يـا لابـس التـاج وليـث الخـيس
مـا إن لنـا مـثلـك ليـس ليـس والطـعـن بالله كأكـل الـحـيس

فقال الأشعث: لله درك ودر أبيك! إن أعش فلك عندي رضاك، وإن أمت فلك عقار من عقاري بحضرموت(1).

قال ابن الأثير: «فرجع صعصعة، فأخبره بما كان، وأن معاوية قال: سيأتيكم رأيي.

فسرب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء، فلما سمع علي ذلك قال: قاتلوهم على الماء.

فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسير إليهم.

فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم، فرموهم بالنبل، فتراموا ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة، وأرسل معاوية يزيد بن أسد البجلي القسري جد خالد بن عبد الله القسري في الخيل إلى أبي الأعور، فأقبلوا.

فأرسل علي شبث بن ربعي الرياحي، فازداد القتال.

فأرسل معاوية عمرو بن العاص في جند كثير، فأخذ يمد أبا الأعور ويزيد بن أسد.

---

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص11 و (ط الهند) ج3 ص9.

وأرسل علي الأشتر في جمع عظيم، وجعل يمد الأشعث وشيئاً، فاشتد القتال، فقال عبد الله بن عوف الأزدي الأحمري:

خلـــوا لنـا مــاء الفرات الجاري أو أثبتـــوا لجحفـــل جـــرار

لكـــل قـــرم مسـتميت شـاري مطاعـــــن برمحـــــه كـــــرار

ضـراب هـامـات العدى مـغوار لـــم يخـــش غـــير الواحـــد القهار

وقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب علي»[1].

قال المنقري:

عن عمر بن سعد بإسناده قال: طال بيننا وبين أهل الشام القتال، فما أنسى قول عبد الله بن عوف [بن] الأحمر، يوم الفرات، وكان من فرسان علي، وهو يضربهم بالسيف وهو يقول:

خلـوا لنـا عن الفرات الـجاري أو اثبتـــوا للجحفـــل الجـــرار

لكـن[2] قـرم مستميـت شـــار مطـــاعن برمحـــه كـــرار

ضراب هــامــات العدى معـوار [بكـل عضـب ذكـرٍ بناري][3]

---

(1) الكامل في التاريخ ج3 ص285 و 286 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص569 وج3 ص566 و 567.

(2) كذا في المصدر، وفي أنساب الأشراف: بكل قرم.

(3) راجع: صفين للمنقري ص172 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص10 وأنساب الأشراف ص299.

من قتال الأشتر:

قال المنقري:

ثم إن الأشتر دعا الحارث بن همام النخعي ثم الصهباني فأعطاه لواءه ثم قال: يا حارث، لولا أني أعلم أنك تصبر عند الموت لأخذت لوائى منك ولم أحبك بكرامتي.

قال: والله يا مالك لأسرنك اليوم أو لأموتن، فاتبعني فتقدم [باللواء] وهو يقول:

يا أشتر الخير ويا خير النخع   وصاحب النصر إذا عم الفزع
وكاشف الأمر إذا الأمر وقع   ما أنت في الحرب العوان بالجذع
قد جزع القوم وعموا بالجزع   وجرعوا الغيظ وغصوا بالجرع
إن تسقنا الماء فما هي بالبدع   أو نعطش اليوم فجند مقتطع
ما شئت خذ منها   وما شئت فدع

فقال الأشتر: ادن مني يا حارث.

فدنا منه فقبل رأسه وقال: لا يتبع رأسه اليوم إلا خَيِّرٌ.

ثم قام الأشتر يحرض أصحابه يومئذ ويقول:

فدتكم نفسي، شدوا شدة المحرج الراجى الفرج، فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل نواجذه،

فإنه أشد لشئون الرأس، ثم استقبلوا القوم بهاماتكم.

قال: وكان الأشتر يومئذ على فرس له محذوف أدهم، كأنه حلك الغراب(1).

روى نصر، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن عامر، عن الحارث بن أدهم، عن صعصعة بن صوحان قال: قتل الأشتر في تلك المعركة سبعة، وقتل الأشعث فيها خمسة، ولكن أهل الشام لم يثبتوا.

فكان الذين قتلهم الأشتر صالح بن فيروز العكي، ومالك بن أدهم السلمانى، ورياح بن عتيك الغساني، والأجلح بن منصور الكندي ـ وكان فارس أهل الشام ـ وإبراهيم بن وضاح الجمحي، وزامل بن عبيد الحزامي، ومحمد بن روضة الجمحي.

قال المنقري:

فأول قتيل قتل الأشتر ذلك اليوم بيده من أهل الشام رجل يقال له: صالح بن فيروز، وكان مشهوراً بشدة البأس، فقال وارتجز على الأشتر:

يا صاحب الطرف الحصان الأدهم أقـدم إذا شـئت علينـا أقـدم
أنـا ابـن ذي العـز وذي التكرم سيد عـك كـل عـك فاعلـم

فبرز إليه الأشتر وهو يقول:

---

(1) راجع: صفين للمنقري ص172 ـ 174 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص8 و 9 وراجع: المناقب للخوارزمي ص216 ـ 218.

آليــت لا أرجــع حــتــى أضربا بسيفي المصـقول ضربا معجبـا

أنــا ابــن خــيـــر مذحج مركبا مـــن خــيــرها نفســا وأمــا وأبا

قال: ثم شد عليه بالرمح فقتله، وفلق ظهره، ثم رجع إلى مكانه[1].

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: مالك بن أدهم السلماني ـ وكان من فرسان أهل الشام ـ وهو يقول[2]:

إنــى مـنـحــت مــالــكاً سنانيا أجـيـبـه بـالـرمـح إذ دعانيا

لـفـارس أمـنـــحه طـعـانـيـــا

ثم شد على الأشتر، فلما رهقه التوى الأشتر على الفرس، ومار السنان فأخطأه، ثم استوى على فرسه وشد عليه بالرمح وهو يقول:

خــانك رمـــح لـم يـكـن خوانا وكـــان قــدماً يقتــل الفرســانا

لـويـتـه لـخـيـر ذي قـحطــانـا لفـــارس يـخـتـرم الأقرانـــا

أشـهــل لا وغــلا ولا جـبـانــا

فقتله.

---

(1) راجع: صفين للمنقري ص174 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص18.

(2) الرجز المذكور هنا أورده نصر بن مزاحم في صفين ص175 ولكن ابن أعثم ذكر أن الرجز الذي قاله مالك بن أدهم هو ما سيأتي عن قريب نسبته إلى إبراهيم بن الوضاح، وأنه هو الذي قاله، وكذلك الحال بالنسبة للشعر الذي أجابه به الأشتر «رحمه الله» فراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص18.

ثم خرج فارس آخر يقال له رياح بن عتيك وهو يقول:

إني زعيم مالك بضرب بذي غرارين، جميع القلب
عبل الذراعين شديد الصلب

وقال بعضهم: «شديد العصب».

فخرج إليه الأشتر وهو يقول:

رويد لا تجزعَ من جلادي جلاد شخص جامع الفؤاد
يجيب في الروع دُعا المنادى يشد بالسيف على الأعادي

فشد عليه فقتله(1).

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: إبراهيم بن الوضاح وهو يقول:

هل لك يا أشتر في برازى براز ذى غشم وذى اعتزاز
[كأنه حية ذي ابتزاز مقاوم لقرنه لزاز

فخرج إليه الأشتر وهو يقول:

نعم نعم أطلبه شهيدا معى حسام يقصم الحديدا
يترك هامات العدى حصيدا [به أريح في الوغا

---

(1) راجع: صفين للمنقري ص175 ولكن ابن أعثم في الفتوح ج3 ص19 قد نسب أبيات الأشتر لزياد بن عبيد الكناني.

أما الأبيات التي أجاب بها الأشتر زياداً فهي التي سيقول المنقري: إن الأشتر أجاب بها الأجلح.

الجنود]

فقتله[1].

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: زامل بن عتيك الحزامى، وكان من أصحاب الألوية، فشد عليه وهو يقول:

يا صاحب السيف الخضيب المرسب وصاحب الجوشن ذاك المذهب
هل لك في طعن غلام محرب يحمل رمحاً مستقيم الثعلب
ليس بحياد ولا مغلب

فطعن الأشتر في موضع الجوشن، فصرعه عن فرسه، ولم يصب مقتلاً، وشد عليه الأشتر [راجلاً]، فكسف قوائم الفرس بالسيف وهو يقول:

لا بد من قتلى أو من قتلكما قتلت منكم خمسة من قبلكما
وكلهم كانوا حماة مثلكا

ثم ضربه بالسيف وهما رجلان [ثم شد عليه الأشتر، فقتله][2].

---

(1) صفين للمنقري ص176 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص18.
(2) صفين للمنقري ص176 و 177 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص19 فقد وقع خلط في الأبيات وفي المطالب بين ما جرى للأشتر مع زامل بن عتيك، وما جرى له مع مالك بن أدهم السلماني.

ثم خرج إليه فارس يقال له: الأجلح، وكان من أعلام العرب وفرسانها، وكان على فرس يقال له: لاحق، فلما استقبله الأشتر كره لقاءه، واستحيا أن يرجع، فخرج إليه وهو يقول:

أقـدم بـالـلاحـق لا تـهـلل على صـملٍ ظـاهر التسـلل
كـأنـمـا يـقـشم مـر الـحنـظل إن سـمته خسـفاً أبـى أن يقبـل
وإن دعـاه الـقـرن لـم يـعـول يمشـى إليـه بحسـام مفصـل
مشـيـاً رويـداً غيـر ما مستعجل يـخـتـرم الآخـر بـعـد الأول

فشد عليه الأشتر وهو يقول:

بليـت بالأشـتـر ذاك المذحجي بفـارس فـي حلـق مـدجج
كالليـث ليـث الغـابة المهيـج إذا دعـاه القـرن لـم يعـرج

فضربه[1].

ثم خرج إليه محمد بن روضة، وهو يضرب في أهل العراق ضربا منكرا، وهو يقول:

يا سـاكني الكوفة يا أهل الفتن يـا قـاتلي عثمـان ذاك المـؤتمن

---

(1) صفين للمنقري ص177 و 178 وراجع: الفتوح لابن أعثم فقد نسب هذين البيتين للأشتر جواباً للأجلح لا للكناني. وراجع: المناقب للخوارزمي ص216 - 218.

وكأن العبارة هنا ناقصة، ولعل الصحيح: فضربه فقتله.

ورث صدري قتلـه طول الحزن أضربكـم ولا أرى أبا حسـن

فشد عليه الأشتر وهو يقول:

لا يبعد الله سوى عثمانا وأنـزل الله بكـم هوانـا
ولا يسلي عنكم الأحزانا مخالف قد خالف الرحمانا
نصرتموه عابدا شيطانا

ثم ضربه فقتله.

وقالت أخت الأجلح بن منصور الكندى حين أتاها مصابه، وكان اسمها حبلة بنت منصور:

ألا فـابكـى أخـا ثقـة فقـد والله أبكينـا
لقتل الماجد القمقا م لا مثـل لـه فينـا
أتـانـا اليـوم مقتلـه فقـد جـزت نواصـينا
كـريم مـاجد الجديـ ـن يشـفي مـن أعادينـا
وممـن قـاد جيشهـم عـلي والمضلونـا
شفـانـا الله مـن أهـل الـ ـعراق فقـد أبادونـا
أمـا يخشـون ربـهـم ولـم يـرعـوا لـه دينـا

قال المنقري:

قال عمرو: قال جابر: بلغني أنها ماتت حزنا على أخيها.

وقال أمير المؤمنين حين بلغه مرثيتها أخاها: أما إنهن ليس بملكهن ما رأيتم من الجزع، أما إنهم قد أضروا بنسائهم، فتركوهن [أيامى] خزايا، [بائسات]، من قبل ابن آكلة الأكباد.

اللهم حمله آثامهم وأوزارهم، وأثقالاً مع أثقالهم.

وأصيب يوم الوقعة العظمى حبيب بن منصور، أخو الأجلح ـ وكان من أصحاب الرايات ـ وجاء برأسه رجل من بجيلة قد نازعه في سلبه رجل من همدان، كل واحد منها يزعم أنه قتله، فأصلح علي بينهما، وقضى بسلبه للبجلي، وأرضى الهمداني.

روى نصر، عن عمرو بن [شمر، عن] جابر، عن الشعبي، عن الحارث بن أدهم، عن صعصعة قال: ثم أقبل الأشتر يضرب بسيفه جمهور الناس حتى كشف أهل الشام عن الماء وهو يقول:

[قـل لابــن هنـد أحسن الثباتا] ....

لا تـذكــروا مــا قـد مضى وفاتا والله ربـى بــاعـث أمــواتــا

[وحسب نص ابن أعثم:

إني وربـي خـالــق الأقــواتــا إلـهنـا وبـاعـث الأمــواتـــا

مـليكـنـا وجـامـع الشـتـاتا[1]]

مــن بعد ما صـــاروا صدى رفاتا لأوردن خـيـلـي الـفــراتـــا

شـــعث النـــواصي أو يقال ماتا

من حروب الأشعث:

وكان لواء الأشعث مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله

---

(1) راجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص8 و (ط دار الأضواء) ج3 ص10.

أنت! ليس النخع بخير من كندة، قدم لواءك [فإن الحظ لمن سبق].

فتقدم صاحب اللواء، [وعند ابن أعثم: فتى من أصحاب علي «عليه السلام» وفي يده رمح له] وهو يقول:

أنعطش اليوم وفينا الأشعث والأشعث الخير كليث يعبث

فأبشروا فإنكم لن تلبثوا أن تشربوا الماء فسبوا وارفثوا

من لا يرده والرجال تلهث [ففي ضلال وبوار يمكث]

وقال الأشعث: إنك لشاعر، وما أنعمت لي بشرى.

وكره أن يخلط الأشتر به، فنادى الأشعث: أيها الناس، إنما الحظ لمن سبق.

قال: وحمل عمرو العكي من أصحاب معاوية، وهو يقول:

ابرز إلى ذا الكبش يا نجاشي اسمى عمرو وأبو خراش

وفارس الهيجاء، بانكماشي تخبر عن بأسي واحر نفاشي

فشد عليه النجاشي وهو يقول:

أرود قليلاً فأنا النجاشي من سرو كعب ليس بالرقاشي

أخو حروب في رباط الجاش ولا أبيع اللهو بالمعاش

أنصر خير راكب وماش أعني علياً بيِّن الرياش

من خير خلق الله في نشناش مبرأ من نزق الطياش

بيت قريش لا من الحواشي ليث عرين للكباش غاش

يقتـــل كـبـش القـــوم بالـهراش وذي حــــروب بطــــل ونــــاش

خــف لــه أخـــطف في البطاش مــن أســـد خـفان وليث شاش

فضربه ضربة ففلق هامته بالسيف(1).

وحمل شرحبيل بن السمط، فقال:

أنــا شـرحبيل [و] أنا ابن السمط مبـــين الفعـــل بهـــذا الشـــط

بـالـطعـن سـمـحا بقناة الخط أطلـــب ثــارات قتيـــل القـــبط

جمـعت قومي باشتراط الشرط علــى ابــن هنـد وأنــا المــوطي

حتـى أنـاخـوا بـالـمحامي الخط جنــد يمــان ليــس هــم بخلـط

فأجابه الأشعث بن قيس على رواية ابن مزاحم:

إنــي أنــا الأشــعث وابـن قيــس فـــارس هيجـــاء قبيـــل دوس

لســت بشكــاك ولا مـمـسوس كنـــــدة رمحـــــي وعـــــلي قوسي(2)

وقال ابن أعثم:

ثم حمل عليه الأشعث وطعنه طعنة كفأه عن فرسه، فأفلت وهو لما به.

قال: فعيره أبو الأعور السلمي وقال: يا شرحبيل! طعنك الأشعث

---

(1) صفين للمنقري ص174 - 181 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص10 و (ط دار الأضواء) ج3 ص11.

(2) صفين للمنقري ص174 - 182 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص21.

بن قيس!

فقال: نعم والله يا أبا الأعور! طعنني الأشعث وهو سيد في قومه، وأنا سيد في قومي، فإن كنت صادقاً فأخرج إليه، وانتصب له، لترى ما ينزل بك من صولته.

قال: فخرج أبو الأعور وجعل يرتجز ويقول ـ ونص الأبيات مأخوذ من المنقري ـ[1]:

أنا أبو الأعور واسمي عمرو أضرب قدماً لا أولي الدبر
ليس بمثلي يا فتى يغتر ولا فتى يلاقيني يسر
أحمي ذمارى والمحامي حر جرى إلى الغايات فاستمر[2]

وذكر المنقري: أن الأشتر هو الذي حمل على أبي الأعور وهو يقول:

لست ـ وإن يكره ـ ذا الخلاط ليس أخو الحرب بذى اختلاط
لكن عبوس غير مستشاط هذا علي جاء في الاسباط
وخلف النعيم بالإفراط بعرصة في وسط البلاط
منحل الجسم من الرباط يحكم حكم الحق لا اعتباط[3]

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص20.

(2) صفين للمنقري ص181 وراجع: الفتوح لابن أعثم ج3 ص21.

(3) صفين للمنقري ص181.

أما ابن أعثم فيقول:

إن الأشعث هو الذي حمل على أبي الأعور، وهو يقول البيتين المتقدمين:

إني أنــا الأشــعث وابــن قيــس الخ..

ثم قال:

ثم حمل عليه الأشعث فطعنه طعنة كادت أن تأتي على نفسه، فولى عنه أبو الأعور جريحاً.

قال: ثم خرج حوشب ذو الظليم وذو الكلاع، فخرجا على فرسين لهما، وجعل حوشب [يرتجز و] يقول:

يــا أيـهـا الفــارس ادن لا تــرع أنــا أبــو مــر وهــذا ذو كلــع
مســود بـالشــام مـا شــاء صنع أبلــغ عنــي أشـترا أخــا النخــع
والأشــعث الغيث إذا الماء منع قــد كثـر الغدر لـديـكم لو نفع

قال: فخرج الأشعث والأشتر جميعاً نحو حوشب وذي الكلاع، وجعل الأشعث يرتجز ويقول:

أبـلغ[1] عنــا حـوشبـاً وذا الكلع فحوشـب المـذلول داراه الطمـع
.... [وشـرحبيل ذاك أهلـك الطمـع]
وذو الكــلاع قـومــه أهـل البدع قـــوم جفـــاة لا حيـــا ولا ورع
يـقـودهـم ذاك الشـقي الـمبتدع إنـــي إذا قـــرن لقــرن يصـــطنع

---

(1) أي أبلغن.

وأبـرقـوها في عجـاج قد سطع أحمـــي ذمـــاري مـــنهم إذا امتنع(1)

وقال(2) الأشتر أيضاً، فجال:

يا حوشب الـجلف ويا شيخ كلع أيكمـــا أراد أشـــتر النخـــع

هـا أنـا ذا وقـد يـهـولك الفزع في حومة وسط قرار قد شرع

ثم تلاقي بطـــلا غتير جـزع سائل بنا طلحة واصحاب البدع

وسـل بنـا ذات البعير المضطجع كيـف رأوا وقـع الليـوث فـي النقـــــــع

تـلـقـى أمـرأ كـذاك مـا فيه خلع وخـالـف الـحق بـدين وابتدع(3)

قال ابن أعثم:

وصاح الأشعث بالرجالة، والأشتر بالخيل، واختلط القوم على شاطيء الفرات، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من أهل الشام جماعة كثيرة، وغرق منهم في الفرات مثل ذلك، وولوا الأدبار منهزمين، وصار الماء في يد علي وأصحابه، فأنشأ النجاشي يقول:

كشـــف الأشـــتر عـــنـــا ســـكرة المـــوت عيانـــا

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص21 و (ط دار الأضواء) ج3 ص18 و 19 وراجع: صفين للمنقري ص182.

(2) لعل الصحيح: وقام.

(3) صفين للمنقري ص182 و 183.

بـعـدمـا طــارت حـصــانـا طيــــرة مســــت لهانـــــا

إذ حـمـى الـقـوم حـمــاهــم ثــــم لــــم يحـــم حمانـــا

فـدعـــا الأشــعــث قــومــا مـــــن معـــــد ودعانـــــا

فــمنحـنــا الـقـوم فـي النقـــ ــــع ضـــــرابا وطعانـــــا

فــلـــه الــمـــن عـلـيـنــا وبـــــــه دارت رحانـــــــا

لبــس الـتـــاج غـــلامــا ثــــم لـــم يـــثن عنانـــا

نـــذرع الأرض بـــريــــح قابـــــه كـــــان حطانـــــا

فـنـهـضـنـــا نـهـضـــة البـــا زي لـــــم نبـــــغ ســـــوانا

ســـاعـــة ثــم تـــولـــوا وحمـــــى الأشـــــعث مانـــا

وبـــمــــثــــل الأشـعث اليو م لـــــك الخيــــر كفانـــــا

عــــن هـــوى المـلك ابن قيس قــد حـمــانــا ورعـــانـــا[1]

روى نصر، عن عمر بن سعد، عن رجل قد سماه، عن أبيه، عن عمه محمد بن مخنف قال: كنت مع أبي يومئذ وأنا ابن سبع عشرة سنة، ولست في عطاء، فلما منع الناس الماء قال لي: لا تبرح.

فلما رأيت الناس يذهبون نحو الماء لم أصبر، فأخذت سيفى فقاتلت، فإذا أنا بغلام مملوك لبعض أهل العراق، ومعه قربة له، فلما رأى أهل الشام قد أفرجوا عن الماء شد فملأ قربته ثم أقبل بها، وشد

____

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص13 و 14 وراجع: مروج الذهب ج2 ص417.

عليه رجل من أهل الشام فضربه فصرعه، ووقعت القربة منه، وشددت على الشامي فضربته وصرعته، وعدا أصحابه فاستنقذوه.

قال: وسمعتهم يقولون: لا بأس عليك.

ورجعت إلى المملوك فأجلسته، فإذا هو يكلمني وبه جرح رحيب، فلم يكن أسرع من أن جاء مولاه فذهب به، وأخذت قربته وهي مملوءة ماء، فجئت بها إلى أبي، فقال: من أين جئت بها؟!

فقلت: اشتريتها.

وكرهت أن أخبره الخبر فيجد علي، فقال: اسق القوم.

فسقيتهم وشربت آخرهم، ونازعتني نفسي والله القتال، فانطلقت أتقدم فيمن يقاتل.

قال: فقاتلتهم ساعة، ثم أشهد أنهم خلوا لنا عن الماء.

قال: فما أمسيت حتى رأيت سقاتهم وسقاتنا يزدحمون على الماء، فما يؤذى إنسان إنساناً.

قال: وأقبلت راجعاً، فإذا أنا بمولى صاحب القربة، فقلت: هذه قربتك فخذها، أو ابعث معي من يأخذها، أو أعلمني مكانك.

فقال: رحمك الله، عندنا ما يكتفى به.

فانصرفت وذهب، فلما كان من الغد مر على أبي، فوقف فسلم، ورآني إلى جنبه، فقال: من هذا الفتى منك؟!

قال: ابني.

قال: أراك الله فيه السرور، استنقذ والله غلامي أمس، وحدثني شباب الحي أنه كان من أشجع الناس.

قال: فنظر إلى أبي نظرة عرفت [منها] الغضب في وجهه، ثم سكت حتى مضى الرجل، ثم قال: هذا ما تقدمت إليك فيه؟!

قال: فحلفني ألا أخرج إلى قتال إلا بإذنه.

فما شهدت لهم قتالاً حتى كان آخر يوم من أيامهم، إلا ذلك اليوم.

مهران يقاتل:

روى نصر، عن يونس بن [أبى] إسحاق السبيعى، عن مهران مولى يزيد ابن هانئ السبيعى قال: والله إن مولاي ليقاتل على الماء، وإن القربة لفى يدي، فلما انكشف أهل الشام عن الماء شددت حتى أستقي، وإني فيما بين ذلك لأرمي وأقاتل(1).

ما ظنك بعلي؟!:

روى نصر، عن محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، أن عمرو بن العاص قال:

يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم كما منعتهم أمس، أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه.

وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة.

---

(1) صفين للمنقري ص183 و 184.

قال: دع عنك ما مضى منه، ما ظنك بعلي؟!

قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه، وأن الذى جاء له غير الماء. [وقد كنت أشرت عليك في بدء الأمر: أن لا تمنعه الماء، فخالفتني وقبلت من (ابن) أبي سرح، فقلدت نفسك عاراً يُحدَّث به إلى آخر الأبد].

فقال له معاوية قولاً أغضبه.

فأنشأ عمرو يقول:

أمرتك أمرا فسخفته وخالفني ابن أبى سرحة
فأغمضت في الرأى إغماضة ولم تر في الحرب كالفسحة
فكيف رأيت كباش العراق ألم ينطحوا جمعنا نطحة
أظن لها اليوم ما بعدها وميعاد ما بيننا صبحة
فإن ينطحونا غدا مثلها نكن كالزبيري أو طلحة
وإن أخروها لما بعدها فقد قدموا الخبط والنفحة
وقد شرب القوم ماء الفرات وقلدك الأشتر الفضحة[1]

علي × يبيح الماء لعدوه:

وأرسل علي «عليه السلام» إلى أصحابه: أن خلوا بينهم وبين

(1) صفين للمنقري ص185 و 186 والفتوح لابن أعثم ج3 ص14 و 15 وراجع: الأخبار الطوال ص169 والإمامة والسياسة ج1 ص126 ومروج الذهب ج2 ص386.

الماء، ولا تمنعوهم إياه.

قال: فكان أصحاب علي «عليه السلام» وأصحاب معاوية يردون الماء بالقرب والأسقية، يستقون ويسقون الخيل والإبل، ما يؤذي أحد منهم أحداً(1).

الحضرمي، يشك في مشروعية الحرب:

روى نصر، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبى عمرة، عن أبيه سليمان الحضرمي، قال: لما خرج علي من المدينة خرج معه أبو عمرة بن عمرو بن محصن قال: فشهدنا مع علي الجمل ثم انصرفنا إلى الكوفة، ثم سرنا إلى أهل الشام، حتى إذا كان بيننا وبين صفين ليلة دخلني الشك، فقلت: والله ما أدري علام أقاتل؟! وما أدري ما أنا فيه.

قال: واشتكى رجل منا بطنه من حوت أكله، فظن أصحابه أنه طعين،

فقالوا: نتخلف على هذا الرجل.

فقلت: أنا أتخلف عليه.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص14 و 15 وصفين للمنقري ص185 و 186 وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص24 و ج3 ص331 وينابيع المودة ج1 ص451 وبحار الأنوار ج32 ص443.

والله ما أقول ذلك إلا مما دخلنى من الشك.

فأصبح الرجل ليس به بأس، وأصبحت قد ذهب عني ما كنت أجد، ونفذت لي بصيرتي، حتى إذا أدركنا أصحابنا ومضينا مع علي إذا أهل الشام قد سبقونا إلى الماء، فلما أردناه منعونا، فصلتنا لهم بالسيف فخلونا وإياه.

وأرسل أبو عمرة إلى أصحابه: قد والله جزناهم فهم يقاتلونا، وهم في أيدينا، ونحن دونه إليهم، كما كان في أيديهم قبل أن نقاتلهم.

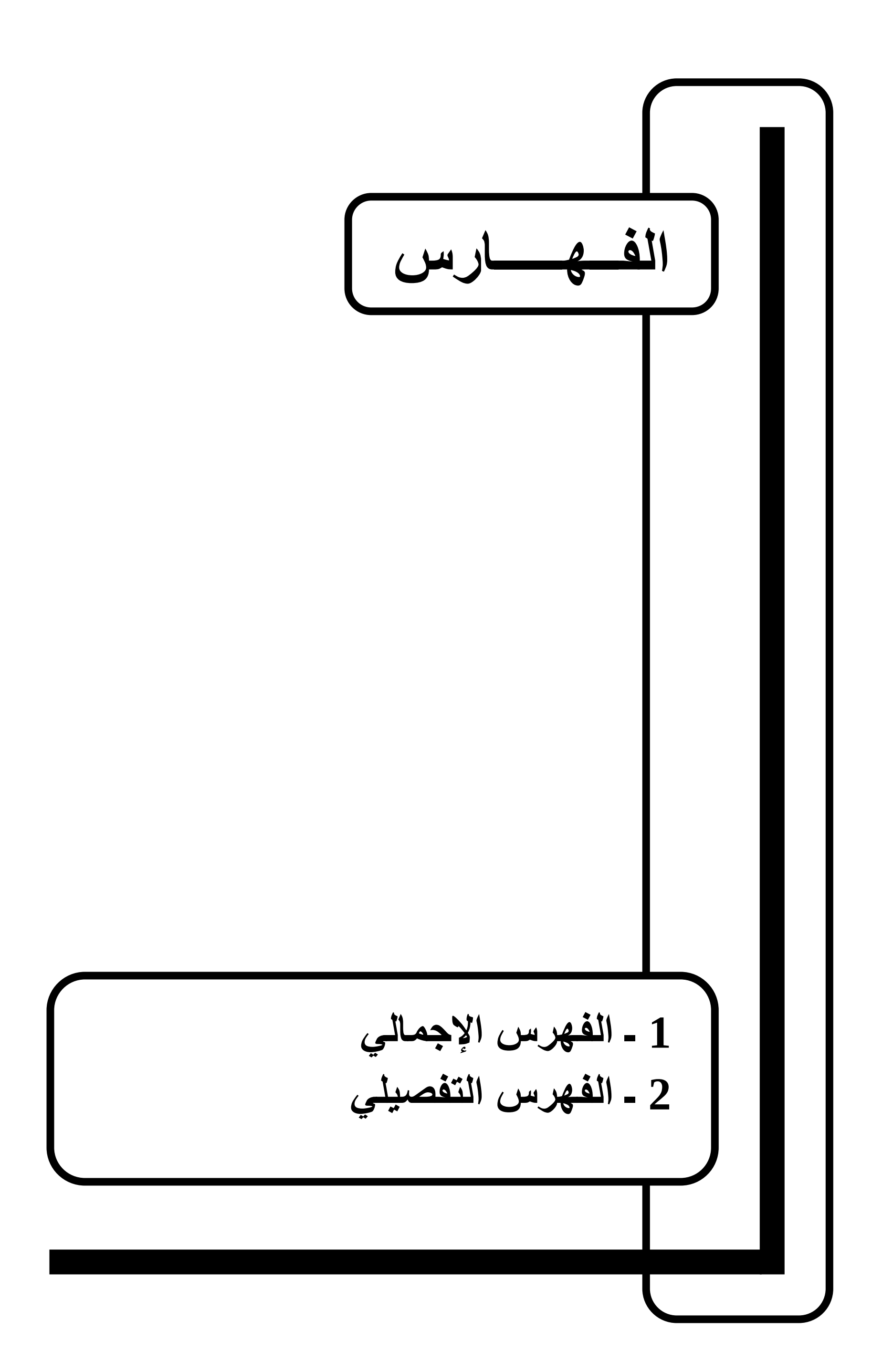
فأرسل معاوية إلى أصحابه: لا تقاتلوهم، وخلوا بينهم وبينه.

فشربوا فقلنا لهم: قد كنا عرضنا عليكم هذا أول مرة فأبيتم، حتى أعطانا الله وأنتم غير محمودين.

قال: فانصرفوا عنا وانصرفنا عنهم، ولقد رأيت روايانا ورواياهم بعد، وخيلنا وخيلهم ترد ذلك الماء جميعا، حتى ارتووا وارتوينا[1].

---

(1) صفين للمنقري ص185 والدرجات الرفيعة ص415 و 416.



الفهـــــارس

1 - الفهرس الإجمالي
2 - الفهرس التفصيلي

1 - الفهرس الإجمالي

الباب الخامس: من الكوفة.. إلى صفين..

القسم السابع: معارك صفين..

الباب الأول: قبل المعارك الكبرى..

2 - الفهرس التفصيلي

الباب الخامس: من الكوفة.. إلى صفين..

الفصل الأول: مقدمة الجيش عيونـهم.

الفصل الثاني: التعديات.. والحقوق، والواجبات..

الفصل الثالث: من النخيلة.. إلى مظلم ساباط..

الفصل الرابع: علي × في كربلاء..

الفصل الخامس: من دهاقين المدائن والأنبار.. إلى عين راحوما..

الفصل السادس: علي × في الرقة..

الفصل السابع: أين المخاض؟!

القسم السابع: معارك صفين..

الباب الأول: قبل المعارك الكبرى..

الفصل الأول: الأشتر يواجه أبا الأعور..

الفصل الثاني: الجيشان في المواجهة..

الفصل الثالث: الحرب على الماء: نصوص وآثار..